رحيل في بدايات الألفيّة

.الجزء الثالث.

بوابات المواجيد

روايه

صدقي شعباني

ماستر

رحيل فى بدايات الألفية

الجزء الثالث

بوابات المواجيد

صدقى شعباني

تصميم الغلاف

بيشوى ظريف

الجمع والإخراج

التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ١٠٨٧٣/ ٢٠٢٠م

ISBN: 978-977-85710-9-7

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماستر ©

٢٠٢٠م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـداء

إلى الأستاذ مصطفى فاروق

الّذي لولاه لما كان لهذا الجزء أن يتمّ... إليه مع مطلق الاحترام والعرفان لأنّه أعاد لي شوق الأدب بعد أن كان يخفت في داخلي.

تصديـــر

** «أشار لحظي بعين علِم بخالصٍ من خِفّي وَهْم ولائحٌ لاح في ضميري أدقّ من فهم وهم همّي وخضتُ في لجّ بحر فكري أمُرُّ فيه كمرّ سهم وطار قلبي بريش شوقي مركّب في جناح عزمي إلى الذي عن سُئلتُ عنه رمزت رمزاً ولم اسمّي حتّى إذا جُزْتُ كل حدّ في فلوات الدنّو أَهْمِي نظرت إذ ذاك في سَجَالٍ فما تجاوزتُ حدّ رَسْمي فجئتُ مستسلما إليه حدّ قيادي بكفّ سلْمي قد وسم الحبّ منه قلبي بميسم الشوق أي وسم وغاب عنّي شهود ذاتي بالقرب حتّى نسيتُ اسمي.»

الحـلاّج

** «قد أوحى الله لمحمّد: «أيها النّبيّ لا تجالس إلا العشّاق، وابتعد عن غيرهم». مهما أضاءت شعلتك العالم. فالنّار تموت بمرافقة الرّماد. ينعم المؤمنون والعادلون بالحياة الأبديّة. الرّوح النّقيّة تتقبّل الموت ليست عقاباً أو ظلماً ذلك الموت، بل تجلٍّ؛ قبل الموت، كانت الروح تحتضر، تلك كانت آلامها. اذهبوا بي عند موتي، سلّموا معشوقي جسدي. إن قبّل شفتيّ الجافّتين، ثمّ ردّ إليّ الحياة، لا تتعجبوا»!

جلال الدّين الرّومي

((الجزء الثّالث))

بوّابـات المواجيــد وديوان العشق
(الأسراروالطّواسين)

١. العتبة
((في البدء كانت الحكاية/الحكاية المنسيّة))

١.

** اللّيلة الثّانية بعد الألف من ألف ليلة وليلتين:

- اللّيلة الّتي كانت مجرّد خاطرة عابرة في ذهن شهرزاد حينما كانت تنوي حكايتها للملك شهريار بمناسبة مرور سنتين على زواجهما. هذا الزّواج الّذي تمكّن به الملك من مصالحة نفسه سيّما بعدما أنجبت له شهرزاد بنتين... ولكنّ الملك الآن قد توفّي دون أن يخلّف أثرا من أيّ نوع... دون أن يخلّف وصيّة... أو إلزاما من نوع ما لزوجته... وظلّت شهرزاد طاوية ذهنها على الحكاية الأخيرة... الحكاية أغرب ممّا يمكن أن يتخيّله إنسان... فيها من العجب، وفيها من السّحر الشّيء الكثير... وقد كانت شهرزاد تحتفظ من بين أشيائها الكثيرة بخاتم صغير كان أهداها إيّاه والدها الوزير... ونحن إذ نذكر الخاتم هنا فلأنّه خاتم عجيب وغريب، وليس كباقي الخواتم في المملكة، ولا يوجد له مثيل إلاّ في مدينة النّحاس وبغداد علاء الدّين... لقد كان الخاتم مرصودا لجنّي من الطّبقة الثّالثة في مملكة الجنّ... وهذا الجنّيّ، وإن كان لا يستطيع أن يبني قصورا في يوم وليلة، أو أن يحوّل النّحاس إلى ذهب، فإنّه قادر على التنقّل بيسر بين البلدان... وكان هذا الجنّي يدعى «يرفغ صاحب الخاتم»؛ وقد كانت شهرزاد لا تعلم عن هذا شيئا، ولكن بالأمر المقدّر سنحت سوانح وطرأت طوارئ... فبينما كانت شهرزاد تتلفّع بشال من شالاتها مرّت أصابعها فجأة على الخاتم في يدها، وفجأة انطلق من

الخاتم طيف لمارد ليس بالطّويل ولا القصير... أحمر كأحيمر ثمود... له عثنون وشارب صغير... كان يمكن لشهرزاد أن ترتعب كما ارتعب علاء الدّين حين ظهر له جنّيّ المصباح، ولكنّها كانت تربّت على حكايات وأساطير الشّياطين والجنّ الّتي كانت ترويها لها وهي صغيرة مربّيتها العجوز نسرين...

قال لها الخاتم في نبرة بين الشّدّة والخفوت:

.شبّيك لبّيك، عبدك يرفغ بين يديك...

قالت شهرزاد بشيء من السّخرية:

.وما معنى ذلك؟!!

قال الجنّيّ:

.معناه أنّي طوع أمرك أفعل ما تأمرينني به...

قالت شهرزاد:

.ما آمرك به ولو كان خارقا!!

قال الجنّيّ:

. هذا يتوقّف على ما تأمرين به، فأنا جنّيّ، هذا صحيح، ولكنّ إمكانيّاتي لا تتجاوز حدّا معيّنا. فأنا مثلا لا أستطيع أن أبني قصورا في يوم وليلة كما كان يفعل «زبيلوباب»...

هنا اوقفته شهرزاد بحركة من يدها قائلة:

.ومن «زبيلوباب» هذا... هل هو ملك الذّباب؟!!

فردّ الجنّيّ في خوف:

. لا تقولي هذا، يا سيّدتي، فهو جنّيّ من الطّبقة الأولى، وهو ملك على كلّ الجنّ في مملكة الجنّ.

هنا قالت شهرزاد:

.فماذا يمكنك أن تفعل؟!!

قال الجنّيّ بفخر واعتزاز:

.أكثر شيء يعجبني أن أتسقّط الأخبار بين البلدان... فأنا جوّابة لا

يضارع وسابح من السّوابح...
سألت شهرزاد:
.وهل الأمريحتاج إلى وقت كثير؟
فأجاب الجنّيّ، مشيرا إلى صدره دلالة الفخار:
.ما بين طرفة عين وانتباهتها، أكون قد عبرت الأقيانوس...
هنا أوقفته شهرزاد مرّة أخرى قائلة:
.وما هذا أيضا؟!
قال الجنّيّ:
. لا أدري، يا سيّدتي، سمعتهم يقولون ذلك في بلدي، فأصبحت أردّده.
قالت شهرزاد:
.وكنت تردّد الأشياء ولا تسأل عن معناها؟!
قال الجنّيّ:
. كنت أوثر السّلامة، يا سيّدتي، فقد قيل . لا أعلم في أيّ موضع من الطّومار الّذي ورثته عن والدي: «إذا كان الكلام من حديد فإنّ الصّمت من نحاس.»
هنا قالت شهرزاد بين الغاضبة والمازحة:
. أنت قطعا لا تعلم ما تقول، يا خادمي، فنحن نقول: «إذا كان الكلام من فضّة فإن الصّمت من ذهب.»
كان الجنّيّ الّذي لا يمكنه أن يأتي بخوارق كثيرة، فاغر الفم متحيّرا في أمره... كان يريد أن يسأل ولا يريد في نفس الوقت، وكان يريد أن يتقرّب من سيّدته الجديدة ويريد إرضاءها بأيّ شكل من الأشكال، ولذلك كان يخاف الإلحاح عليها... أخيرا انتصر على خوفه وسأل بحياء:
.وما هذان؟!
قالت شهرزاد:

.وأيّ هذان؟
قال الجنّيّ:
.الذّهب والفضّة؟
قالت شهرزاد:
.معدنان... للنّساء الذّهب، وللرّجال الفضّة.
فقال الجنّيّ:
.نحن... هناك... لا نعلم من أمرهما شيئا... على كلّ حال، أترغبين في هذه اللّحظة، يا سيّدتي أن آتيك بخبر أو حكاية أو ما شابه....؟
قالت شهرزاد:
.هذه المرّة، لا أريدك أن تأتيني بخبر، ولكن أريد منك أن تنقل إلى العالم حكاية.
قال الجنّيّ:
أيّة حكاية، يا سيّدتي؟
قالت شهرزاد:
. الحكاية الّتي لم يطلع عليها الصّباح... الحكاية الّتي لم تجعلني أسكت عن الكلام المباح... الحكاية الّتي لم يدركني صياح الدّيك متلبّسة بنهايتها...
قال الجنّيّ:
.وأيّة حكاية؟!
قالت شهرزاد:
.ستفهم حين يحين ذلك...
ولكن للأسف الشّديد، لم يحن ذلك...فإنّ الموت الفتّان الّذي كان أخذ زوجها قد أخذها هي أيضا على أكفّ أردية من الموسلين الورديّ الّتي كانت تحفّ حفيفا... وتوفّيت شهرزاد على السّاعة البنفسجيّة الّتي كان النّاس حديثي عهد بها آنذاك... وظلّ الجنّيّ يرفع صاحب الخاتم شريدا، بلا سيّد يخدمه، وكانت مأساته بلا حدود: فلا هو قادر

على الرّجوع إلى الخاتم، ولا هو قادر على الذّهاب إلى أيّ مكان آخر....!!

فكيف تسرّبت الحكاية... كيف صارت الحكاية المنسيّة حديث النّاس وشاغلة دنياهم... ومن ملأ بها الأسماع والأفواه... تقول «السّبيلا» عرّافة كلّ الأزمان: «كان هناك في زمن ما، على مشارف حدود بلد ما، رجل ككلّ الرّجال، مات له ولدان وعاش له ولدان، وماتت تحته زوجتان وعاشت له زوجتان، وسكن بيتين واحترق له بيتان، وكان يحبّ القيان والمدام، ويحبّ الاستماع إلى الطّنبور، ويستبيه حسن الحور.... (هنا تقف السّبيلا قليلا لتوضّح الأمر لأنّه ملتبس بعض الشّيء، فتقول: «والحور هنا حور الدّنيا، وهنّ القيان ذوات الأفنان، والعصف والرّيحان..

(«فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ....»)

لم تكن العرّافة تدرك أنّ آخر نبوءة لها لن تكتمل أبدا، وأنّ الموت الفتّان، الذّي لا يمكن أن يفرّ منه إنسان، في كلّ زمان ومكان، سيأخذها في منتصف نبوءتها أو حكايتها الأثيرة... فمن كان إذن لهذه الحكاية يتعهّدها ويرمّم خللها على امتداد فترات من الزّمن سيّما وأنّها أخذت وقتا وحيّزا زمنيّين كبيرين حتّى تصلا إلينا...

المرجّح أو شبه الأكيد أنّ هناك شخصا ما، في مكان ما، في زمن ما، نتيجة ظروف ما، هو الّذي نقلها إلينا حتّى بات الواحد منّا يعرفها كما يعرف أبناءه... وأشياءه... وأسماء الأشياء الّتي يمتلكها... وحسراته... وغصصه... وأحلامه الّتي لا يتذكّر أكثرها... والحديث يطول... ((نقطة إلى السّطر.))

يزعمون أنّه عربيّ... ليس عربيّا قحّا من أقحاح العرب، ولكنّه عربيّ بالحلف، جاب أحد أحياء العرب فجاور إحدى قبائلها وطلب حلفهم فحالفوه... ويقول أحد المؤرّخين العرب قد يكون هو ابن جرير الطّبريّ... أو اليعقوبيّ... أو ابن كثير... ولا يستبعد أيضا أن يكون ابن الأثير... أو مسكويه... أو الإمام الهمام صاحب المقام سيّدي

عبد الرّحمان... أو ابن قزمان الّذي ترك لنا من بين ما ترك رحلة في مخطوط إلى بلاد الزّنجان والسّودان... أقول يقول أحد المؤرّخين إنّه جاء من بلاد «البيلاروس» وأنّه «طاجيك»، كان يجوب الأصقاع في آسية بين بورما وجاكرتا وسومطره، وفي المشرق بين الكرخ والرّصافة، وفي تونس بين جربة ومطماطة، وفي الجزائر بين غرداية والعاتر وفي السّوس بين جبال الأطلس والعيون... و«طاجيك» هذا لا يعرف له أب أو أمّ، وقصارى ما يعرفه عنه من كان يلمّ به أنّه كان يتردّد إلى رجل تبحّر في العلوم من فلك وطبّ وحديث وسيرة وفقه وأصول وكيمياء وفيزياء وسحر وعلم نجوم، وقد بلي هذا الرّجل في أخر حياته بلوثات في عقله فكان يزيد في الحديث فضعّفه أهل الجرح والتّعديل، وكان يخلط في عناصر الكيمياء فلم يتوصّل أبدا إلى الحصول ولو على ذرّة واحدة من الذّهب فازدراه جابر الحيّان وسخر منه... (ولكنّ شيخه، أي شيخ جابر الحيّان، سيّدي جعفر الصّادق لم يسخر منه لأنّه من أهل البيت رضي الله تعالى عنهم وكان يترفّع عن الصّغائر)... وكان يخبط في الفيزياء خبط عشواء... وفي الطبّ مات على يديه عشرات الولدان فازدراه ابن سينا ومن جاء بعده أو جاء قبله من أمثال الرّازي والزّهراوي... و«ابن كنّونة». وهنا أستميحكم عذرا سادتي فمن نقل إليّ اسم هذا الطّبيب لم يكن متأكّدا من اسمه، وأنا أقول لكم هذا من باب الحيطة والأمانة حتّى لا تظنّوا بي الظّنون ... وكان يخلط بين الزّهرة وعطارد، وبين زحل والمشتري، ويقول «الكافر» إنّه صعد إلى القمر وشهد الكسوف من على قمّة ربوة في المرّيخ، وكان يقول بالمثنويّة ثمّ انتقل إلى التّثليث، وفي الكلام كان على دين الجماعة من أمثال الجبّائيّ والنّظّام وابن هذيل العلاّف، وكان يقول مثلهم بالخلق، وبجبر الله تعالى على العدل («الزّنديق»).

«طاجيك» لايقول إنّه أخذ الحكاية من سيّده، وأرجو من الله تعالى أن لا يكون الأمر كذلك، لأنّ الأمر إذا كان كذلك فلا حول ولا قوّة إلاّ

بالله وبالله الشّدّة وعلى الله الاتّكال... سيذهب الجهد سدى، وستضيع الحكاية بين تلافيف النّسيان... سنفترض أنّ «طاجيك» حينما كتب كتابه الموسوم بـ «دليل الحيران إلى منابع النّسيان»، والذّي أودعه حكاية شهرزاد المنسيّة، إنّما كانت مصادره بعيدة كلّ البعد عن ذلك الشّيخ صاحب اللّوثات، وبما أنّه كان رحّالة لا يشقّ له غبار، فربّما يكون أخذ الحكاية عن حبر أو جهبذ أو مرزبان صاحب طيلسان أو عن قلم سعدي أو سيّدي جلال البلخيّ المعروف بالرّوميّ لكونه ذهب إلى قونيّة وأقام بها على عهد السّلاجقة الرّوم....

.٢

قال «طاجيك»، وقد أخذته العبرة والشّهقة، وسحّت دموعه نواهل، وهو يتأبّط كتابه الّذي كتبه في ظروف تألّبت فيها عليه الخطوب، وتعاورته المحن والإحن: «قبّح الله سوسان بن نصرون، لقد غشّني وأوهمني كذبا أنّ شهرزاد قد ماتت... سوسان جعلته في سلسة سند لخبر أوردته عن أحدهم في الزّمان السّالف، وقد كان سوسان هو أوّل هذه السّلسلة فكذب عليّ ودلّس أيّما تدليس، ولوكان بجانبي الآن لقرصت أذنه، ولضربت أنفه بمنشّتي، ولقلت له بكلّ قسوة وشدّة: «كيف تجرؤ، أيّها اليهوديّ، على الكذب عليّ!!؟!» شهرزاد لم تمت، وكلّ ما في الأمر أنّها شرقت بحرفين من حروف الأبجديّة فظلاّ في حلقها حتّى اختنقت بهما فظنّ النّاس أنّها ماتت فقاموا بتكفينها ودفنها حتّى أنقذها ذلك الطّبيب... كانت شهرزاد أوفر حظّا من سلاّمة مغنيّة يزيد بن عبد الملك الّتي غصّت بحبيبة رمّان فهلكت وظلّ يزيد حزينا عليها إلى أن قضى وواراه التّراب... أمّا أمر الطّبيب فلم يكن مشهورا، ومن كان يعرفه لا يكاد يتجاوز أصابع اليد الواحدة... لقد كان ذلك الطّبيب تستهويه النّزهة والتّريّض بقرب المقبرة الوحيدة على مشارف الرّصافة قبل أن يحرقها هولاكو على إثر هجومه على بغداد........... (ابن العلقمي هو الّذي كاتب هولاكو وأغراه بالمجيء إلى بغداد، وكان هولاكو ينوي غزو بلاد الفرنجة!!) سمع الطّبيب أنينا فظنّ أنّه يتوهّم، وقد كان اللّيل أرخى سدوله على الكون بكلّ ما فيه من مساحي، ومحاريث، وروث بهائم، وأوساخ في الطّريق... والأوساخ الّتي كانت عالقة بثياب الظّرفاء، والأدران الّتي كانت تلفّ قلوب الأمراء والوزراء، باستثناء سيّدي الخليفة رفع الله تعالى شأنه، مولاي وابن مولاي، وأخ مولاي،

وابن عمّ مولاي، وابن مولاتي الأمة التّركيّة الّتي تسرّاها مولاي، فأنجب منها مولاي، وكلّ مواليّ رضي الله تعالى عنهم أجمعين، مولاي المستعين أحمد بن محمّد ـــــــ وقد نسيت بقية النّسب، إلاّ أنّه صحيح نسب ونسبته إلى سيّدي العبّاس رضي الله تعالى عنه وأرضاه... وكان اللّيل أيضا قد أرخى سدوله على كلّ الأتراك الكبار: بغا الصّغير وبغا الكبير، وعلى مواشيهم، وبيضائهم وصفرائهم، وعلى قصورهم ومطاميرهم الّتي كانوا يضعون فيها كلّ شيء لديهم حتّى أسرارهم الّتي كانوا يسرقونها من أسرار الخليفة وأهل بيته.... لقد كان الخليفة مسكينا مغلوبا على أمره، وكان دائما يقول: «أقيلوني يرحمكم الله، ولكنّهم كانوا يسخرون منه ويحملونه أحيانا زقّفونا فيفقأون عينيه أو يقطعون يديه ورجليه وهو يصيح بأعلى صوته: «أليس من الغرائب أنّ مثلي يرى ما قلّ ممتنعا عليه/ وتجمع باسمه الدّنيا جميعا وما من ذاك شيء في يديه... المهمّ أنّ اللّيل كان ليلا أليل وكانت به حمرة قانية على خدّيه وكأنّ أحدا قد ضربه بنعله، فاللّيل كذلك مسكين ومغلوب على أمره كسيّدي الخليفة فرّج الله تعالى كربته... ولم يكن للّيل سيف أو خنجر أو ما شابه، فهو ليل مسالم، كأبناء إمبراطوريّة «زفتي» العظيمة الّتي قامت في التّاريخ وتجاهلها سيّدي الهمام عبد الرّحمان لأنّها كانت لا تؤمن بالعصبيّة ، وإنّما تؤمن بـ «دعه يهرب... اتركه يفرّ».... فلمّا سمع الطّبيب الأنين اتّجه إلى مصدره، وبالكاد كان يرى الأشياء من حوله، وعلى ضوء زيز صغير كان يمرّ بالمصادفة من هناك، ألفى قبرا يتبعثر شيئا فشيئا وتخرج منه امرأة على الرّغم من كثرة الغبار من حولها لم تكن شعثاء ولا غبراء، وإنّما كانت لا تزال على جمال وكمال، وعقل ودلال، فسبحان الكريم المنّان، الّذي جعلها في أحسن اعتدال... لقد كان يمكن للطّبيب أن يخاف وأن يرتعب، وحتّى أن يفعل أشياء أخرى لا يعرفها إلاّ الجبناء من أمثال ابن «برسيسة» وابن «قرمون» وابن «أبي الشّناتر»، ولكنّه مجرّب، ولا يخاف حتّى من أكثر الأشياء شراسة

في هذا العالم ــــــ لقد قال له أصدقاؤه المقرّبون يوما، وهم قليل على كلّ حال: «ألا تعلم، يا إسحاق (وكان ذلك اسمه) أنّ عنترة بن شدّاد العبسيّ كان قادرا على الفتك بالأسد بيد واحدة؟!» فما كان من الطّبيب إسحاق إلاّ أنّه أخرج من جيب قفطانه أسدين كبيرين جعدين ولوى عنقيهما في الحال وشرب من دمهما قائلا لأصحابه: «أنتم لا شكّ لا تعرفون أنّي أنا إسحاق يمكنني أن أكون عاشبا ولاحما وشيئا بين ذلك وشيئا لم يكتشفه علم الأحياء بعد... وسآكل إذا أردت فلانا وفلانا.» ولم يصرّح خوفا من اللّيل الّذي يخفي في طيّاته آذان وأعين سيّدي أعزّه اللّه تعالى...

كانت المرأة غريبة عليه نوعا ما، ولم يذكر أنّه رآها في درب الرّواسين أو درب الحمّالين أو درب الدّبّاغين أو درب البزّازين أو أيّ درب من دروب المحروسة بغداد رفع اللّه تعالى مقامها على المحروسة القاهرة لأنّها كانت دوما عشّا جميلا لبني عبيد لا رفع الله تعالى ذكرهم أبدا... ((عجبا، ثمّ عجبا، ثمّ عجبا، كيف يستطيع هذا «العبد الله ابن ميمون القدّاح» اليهودي أن يضحك على ذقونهم جميعا ويفتري عليهم الفرية إثر الفرية ويوهمهم أنّه من نسل البتول الطّاهرة المطهّرة رضي الله تعالى عنها وأرضاها ـ إنّه صفّاق خفّاق مزواج مطلاق، لا يخجل أن يقفش القفشة إثر القفشة قبّحه الله من عتلّ زنيم مشّاء بنميم))

قال الطّبيب يسأل المرأة، وهو يحاول أن يهدّئ من روعها. ففاجأته بأنّها هدّأت من روعه، لأنّها كانت تحمل في يدها ذلك الخاتم الّذي ليس كمثله المصباح، فكانت خفيفة كالأثير وتكاد تطير:

.من أنت يا أمة الله؟

قالت:

.قبل القبر كانوا يسمّونني شهرزاد.

قال الطّبيب مستغربا:

.وهل اختلف اسمك بعد القبر؟!

قالت:

. الحياة أويقات وساعات ولا يخلو الأمر من تغيّرات وتبدّلات... ألا تعلم أنّ اللّيل يلج في النّهار، والنّهار يلج في اللّيل، وكذلك الأسماء، اسم يلج في اسم، واسم يلبس اسما، ويلبسه قميصه، وجواربه، ويعطيه أزراره وأسراره...

قال الطّبيب:

.وما حكايتك، يا أمة الله، في هذه اللّيلة اللّيلاء، والفضاء الخلاء؟!

قالت:

. سامح الله والدي، لقد علّمني الحروف، ولكنّه لم يعلّمني كيف أبوح، فغصصت بحرفين من حروف الكلام...

قال الطّبيب:

.وأيّ حرفين، يا أمة الله؟!

قالت:

. الهمزة والهاء، وهما حرفان. والعياذ بالله. مثل الحجارة لصعوبة نطقهما!!!

قال الطّبيب:

. أحمد الله على سلامتك، أتريدين أن أوصلك إلى مكان؟!

قالت:

. لا داعي... وفركت الخاتم قليلا، فظهر فجأة يرفغ صاحب العثنون وقال بكلّ وقار وفخار:

.شبّيك لبّيك، خادمك الأمين بين يديك، اطلبي وتمنّي، يا سيّدتي.

قالت شهرزاد دون أن تفكّر، وبسرعة البرق:

.انطلق بنا إلى مدينة النّحاس!!

. ٣

كتب في الهامش من ذلك الكتاب، كتب بلوعة وحسرة، وهو يدرك أنّ الهوامش والحواشي ليست للاعتذارات والأسف، ولكنّه معذور، يشعر كأنّه فقد شيئا عزيزا، وأنّ عليه أن يفضفض في هذا الهامش، وسيكون عليه أيضا أن يعتذر في حاشية الحواشي، سيحكي عن «أربعاء الرّماد»، سيعبر «الأرض اليباب»، وسيسافر مع المسافرين، وسيحطّ الرّحال مع شذّاذ الآفاق، وسيبكي الأطلال، والدّيار، وسيبحث عن كلّ من ماتوا من الشّعراء، وسيتلو عليهم الكثير ممّا كتبوه، متذرّعا بالصّبر، ومعتمدا على القليل القليل ممّا بقي في قلبه من اللّوعات... آه، يا بهيّة الطّالع، آه، يا من كنت في زمن الانهيارات الثّلجيّة، وانحراف المدارات، وسقوط المذنّبات، وعدم تحقّق النبوءات، كنت له العضد والسّاعد، والدّليل والقائد، وهو اليوم وحيد، وهو اليوم ضائع، يخبط في الأرض خبط عشواء، ويقول «يا ليت البلاء... يا ليت العزاء !!» فلا البلاء يؤول ولا العزاء يطول: إنّه يذكر أنّه كان على المشارف، بين مكّة والطّائف، وكانت له خيمة من وبر كان يهرّبها معه دائما ويخشى عليها من أهل المدر، ولطالما أوهموه بالعدول والمثول والاقتناع بالمكتوب، فما بعد حدود الأرض الّتي هم عليها غير البلقع واليباب، وما لا يعلم من السّراب، وكان يبكي بكاء النّاقة على الفصيل، ويقول في نفسه: «أين أنتم، يا أهل الدّليل؟! فقد فاضت الأشواق، وكاد يهلك العشّاق!!» وهرب وحيدا، في حلكة اللّيل الوسنانة، مختفيا بين فروع تلك الشّجرة الفينانة، يحمل ركوة ماء، وعصا غليظة، كان يستند إليها شيخه الضّرير، أبو الفوارس، في مقتبل عمره وفي شرخ الشّباب والأيّام العذاب... إنّه يشعر أنّه ارتكب جرما وأنّ الجميع يتّهمونه ويشيرون إليه بالبنان، فيما

كان كتبه عن محنة الأوطان، وخيانة أهل العقد وأهل العقل لأهل الضّريع وما يسوقه الربّ البديع لأهل السّدّ المنيع والحصن الرّفيع... يقول في ذلك الهامش، وسيعيد في تلك الحاشية، حاشية الحواشي: «يا ليتني ما قلت ولا كتبت، شلّت يميني وانقطع وتيني، فأنا اليوم مطارد ومتابع، وعفاريت الأرض تقتفيني وتريد أن تشلّ يميني، فأين أنت يا سيّدي أبا الفوارس لتسند ضعفي وتلهمني ما أعمل...» اللّيل طويل، يا أحبّتي، ولا يعرف طوله إلاّ الهاربون، النّاكلون، العابرون، وأمّا من لم يذق الصّبابة، واكتنفته الدّيار والتأم بدثار، فإنّه يعيش بعيدا عن الأفكار... ماذا يعمل وكيف يقول، والطّريق طويل: لقد سار الأميال الطّوال حتّى ضيّع القسمات واكتنفته الفلوات، وبين الفينة والفينة، يفتح الكتاب، ويتفكّر في العذاب... كان ذلك الطّائر يطير، ولا يتوقّف عن المسير، وهي بأوتاده متشبّثة، ولحيزومه متأبّطة، وهو يقول، بعد حين يكون الوصول، وهي ما تزال لا تعرف شيئا عن المدينة الجديدة الّتي تركتها صغيرة، وهي تعلم أنّ الوقت لا يرحم، والزّمن يبدّل ما لا يتبدّل، فسبحان من له الدّوام، ولا يحيط بعلمه إنسان...: كان «يرفغ» يغنّي، ويقول: «يا لا لنّي...» وهي تنصت متضاحكة، لأنّها المرّة الأولى الّتي تسمع فيها جنّيّا يغنّي... كانت مدينة النّحاس على التّخوم، وعلى نتوء من الصّخر تقوم، وهي بعيدة متباعدة، شحطها غريب، والتئامها على مبعدة من المدن الأخرى عجيب، أبوابها ليست كالأبواب، وقممها يعتليها السّراب، فلا يهتدى إليها إلاّ بدليل، ولا يحيط بأكنافها إلاّ من كان له إلى العلم سبيل... في السّاعة المعلومة، حلّت الدّينونة، وعلى الأبواب وجدوا المسكين، الذّي كان يحمل السّنان في يديه ليدلّ كلّ حيران: اقتربت منه شهرزاد وضغطت على زرّ في جنبه فاستدار دورتين وأشار إلى جانب من الجوانب، في شرق المدينة، فدخلت يتبعها «يرفع»، غير أنّه لم يكن هناك من فار ولا نافخ نار، وكان كلّ من بالمدينة قد تحوّل إلى صنم، يعتريه البكم، وكانت الأسواق مشرعة، والموازين

قائمة، وكلّ شيء من البضائع على حاله، وكانت الميادين شاغرة، ولكن تبدو وكأنّ أهلها غادروها قبل حين وسيعودون إليها حين تؤذن الشّمس بالغروب، وقصر السّلطان هناك، يقوم عليه العبيد إلاّ أنّهم لا يتحرّكون ولا يريمون؛ وقالت شهرزاد:

. أتعلم ما هذه المدينة؟!

قال يرفغ:

. سمعتك تقولين إنّها مدينة النّحاس، يا سيّدتي.

قالت:

. بلى إنّها مدينة النّحاس، وقد كانت من كبار المدن في الزّمان، قبل أن يحلّ بها ما حلّ، وكان بإمكان السّاحرة الّتي سحرتها أن تقتل كلّ شيء، وتأخذ كلّ شيء، ولكن أرادت أن تجعلها عبرة للمعتبر، وذكرى لمن لا يتذكّر...

قاطعها يرفغ بحياء:

. وما قصّتها، يا سيّدتي؟!

قالت شهرزاد:

. إنّ قصّتها تطول، ولو كتبت لما وسعها المداد...

ثمّ سكتت شهرزاد قليلا، وأخرجت بساطا من مكان ما في متاعها وفرشته على الأرض، وأمرت يرفغ أن يجلس على مبعدة يسيرة منها، وقالت تخاطب رجلا غير منظور:

. اعلم أيّها الملك السّعيد، أنّه كان هناك مدينة عامرة، ليست هي بيت لحم ولا السّامرة، تقوم على الأطراف، يكتنفها الانثيال والانشحاط، جميلة كبيرة، وبأهلها مزدانة، ولأعرافها راعية، وبصغيرها بارّة، ولكبيرها موقّرة... وكان يحكم تلك المدينة ملك ليس له مثيل في العدل، يحكم بالشّريعة ولا يضيّع الفريضة، كانت زوجته الملكة جنّية ساحرة، وهو لا يعلم، وأنجب منها البنات والذّراري وحرّمت عليه أن يتّخذ السّراري، فعاشا في أحسن حال إلى أن أتاهم هازم اللّذات

ومفرّق الأفراد والجماعات...!!!

وهنا يدرك شهرزاد الصّباح، فتسكت عن الكلام المباح.

ويقول «طاجيك» في موضع ما من كتابه «الدّليل»: «ولم يمت الملك شهريار...»

. ٤

قال طاجيك . غفر الله تعالى له وسامحه وتجاوز عن خطاياه وجعله من التّائبين المنيبين الفائزين بجنّات النّعيم. وهو يتصفّح كتاب «الميزان ودلائل القبول والغفران» . في سنة (...) من هجرة الرّسول سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم في دارة أحد أصحابه الواقعة في بلاد من بلدان الإسلام فيما وراء نهر بلخ، وهو يتأمّل من حوله ويتفكّر في أمره... في أمر هذه الرّحلة المضنية الّتي لم تنته بعد، وقد ذكر أمر سيّدي ياقوت الحمويّ. رحمه الله تعالى ونوّر ظلمة قبره.... آمين، وقد كتب كتاب «معجم البلدان»، وكتب من بعده «معجم الأدباء»، ويقول في نفسه الّتي انتهت إلى الرّضا بالمقسوم وكفّت عن كونها أمّارة بالسّوء: «إيه، يا نفسي، يا من طاوعتك كثيرا، وسرت وراءك كما يسير الظّمآن في صحراء، وراء السّراب، بحثا عن جرعة ماء...»؛ وهنا يتوقّف قليلا ويذكر حكاية أمير المؤمنين سيّدي هارون الرّشيد بن سيّدي محمّد المهديّ بن سيّدي عبد الله أبي جعفر المنصور بن سيّدي محمّد ذي الثّفنات (وكان هو مبتدأ الدّعوة العبّاسيّة في مدينة السلميّة بالشّامّ وهو الّذي تولّى إرسال الدّعاة والّذي تنازل له الكيسّانيّة الّذين كان رأسهم سيّدي محمّد بن الحنفيّة عن حقّهم في الخلافة) بن سيّدي عليّ السّجّاد بن سيّدي عبد الله بن سيّدي العبّاس رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما. حكاية سيّدي هارون مع البهلول الّذي لقية ذات مرّة في شارع من شوارع المحروسة بغداد، وهو متنكّر بصحبة ذلك البرمكيّ المتآمر جعفر بن يحي بن خالد بن برمك خادم النّوبهار، وهي نار المجوس الملاعين، وكان يتفقّد أحوال الرّعيّة ليحقّق الأمن ويحكم بالسّويّة... كان ذلك البهلول يمتطي عصا، وهو يدور على نفسه كما يدور الشّادوف

أو الخذروف... وقف سيّدي هارون لحظة، وهو يتأمّله، وأومأ إلى ذلك اللّعين أن يتأمّله أيضا ـــ (لم يكن سيّدي هارون يدرك بعد ما فعله ذلك اللّعين الّذي أغوى سيّدتي العبّاسة. غفر الله تعالى لها. بالزّواج منه، فتزوّجها وأنجب منها ولدين) ـــــ تقدّم سيّدي هارون وأمسك بطرف ثوب ذلك البهلول، الّذي توقّف فجأة عن الدّوران دون أن تبدو عليه علائم الدّهشة أو المفاجأة. قال أمير المؤمنين، الّذي كان متنكّرا:

. من أنت يرحمك الله؟

قال البهلول، وهو يرسم ابتسامة صغيرة على شفتيه لا تكاد تبين:

. ألم تعرفني، يا هارون؟ (ولم يقل أمير المؤمنين.)

قال سيّدي:

. من أنت يرحمك الله؟ وقد بلغ به العجب مبلغا لا يتصوّر، وألقى نظرة سريعة على نفسه وعلى كلّ ما حوله... كان الّذي قام بتحضير لوازم التّنكّر له واحدا من أربعة حذّاق في التّنكّر في كلّ فارس، فكيف لمجنون (ولم يقل لبهلول) أن يكشفه، وبهذه السّهولة.

قال سائلا:

. وكيف عرفتني يرحمك الله؟

قال البهلول:

. سيماهم في وجوههم من أثر القعود...

هنا تدخّل ذلك اللّعين جعفر قائلا:

. سبحان الله! وتتقوّل على الله أيضا؟! ألم يقل سبحانه في كتابه «من أثر السّجود»؟!

قال البهلول:

. أناس وأناس... مثل خناس وخناس وكناس ولباس ولباس ونفاس ونفاس واحتباس وانحباس... والقائمة تطول!!

قال أمير المؤمنين:

. ماذا تعني يا رجل؟

قال البهلول:

. لا تسأل... أنا عرفتك ولو تنكّرت ألف مرّة؛ وألقى نظرة من حوله فطالعته مقابر الكرخ؛ وقلّب الطّرف أيضا فطالعته قصور شامخات وديار عامرات... كان هناك قصر الخلد، والقصر الأبيض... والقصر الأحمر... والقصر الأصفر... وكانت هناك قصور بكلّ ألوان الطّيف... كانت الدّموع تنزل من عينيه، وكان يبسمل ويحوقل، ويكبّر، ويهلّل، ويتطلّع إلى الأفق من حوله وكأنّه يرى أشياء لا يراها إلاّ هو... قال:

. يا هارون، اتّق الله، ولا تعبد إلاّ الله، ولا تعتمد إلاّ على الله، فلو كنت ترى ما أرى لما بكيت فقط، بل لسقطت مغشيّا عليك... إنّي أرى على اليمين دوركم وأرى على الشّمال قبوركم، فاذكر يوما يذهب فيه الخلاّن، وينتفي فيه الحدثان، ويموت الحملان، ويشيب الولدان، وتنطفئ النّيران، وتسقط العمدان والصّلبان، وتقول يا ليتني كنت ترابا، يا ليتني لم تلدني أمّي، ولم أتزوّج ولم يأت من صلبي لا الأمين ولا المأمون ولا محمّد المعتصم ولا تزوّجت العصماء، ولا جمعت القيان، ولا أمرت بالبرابط والمزاهر وكلّ ألوان اللّهو والغناء، ولا قرّبت ذلك الزّنديق أبا الحسن بن هانئ أبا نواس من مجلسي ولا أمرت برباعيّات الخيّام أن يترجمها المترجمون وأن يكتبوها بماء الذّهب وتودع في خزائني...

كان سيّدي هارون يومئ إليه بالتوقّف، وكانت عيناه تسحّان دموعا ودما، وكان يبكي ويشهق، ويزفر، وكأنّه ولد صغير تركته والدته ورحلت عنه وهو جوعان، دون معين أو رفيق، في صحراء، غبراء، جرداء، غامرة غير عامرة.

تدخّل ذلك اللّعين، وهو يقول للبهلول، وهو يريد أن يتملّق سيّدي أمير المؤمنين:

. حسبك أيّها الرّجل، لقد أكثرت على سيّدي أمير المؤمنين!!

أومأ إليه سيّدي هارون بالتوقّف وقال للبهلول:

.صدقت أيّها الرّجل. فمن أنت؟!
قال:
. أنا بهلول... أنا شملول... أنا عطبول... أنا شاقول... أنا زبلون... أنا الشّمردل... أنا السّموأل... أنا الدّمرياط... أنا آصف بن برخيا هذا الزّمان...
ثمّ توقّف قليلا قائلا:
.يا هارون، ماذا تريد منّي؟!
قال سيّدي أمير المؤمنين:
.أن تعظني يرحمك الله؟
قال:
.كما تشاء...
ثمّ بعد لأي:
. هب أنّك في صحراء... لا ماء فيها ولا زرع ولا ضرع، ولا شجر، ولا وبر فيها ولا مدر، ولا حياة ولا بشر، وكنت عطشان، بلا ريّ ولا رواء، ولا ركوة ماء، فماذا تبذل مقابل شربة، أو حتّى قطرة؟!!
قال سيّدي:
.نصف ملكي وأزيد قليلا.
قال البهلول:
.ودخلت تلك القطرة إلى جوفك، وانحصر بها بطنك، فكم تعطي لتخرج تلك القطرة منك؟
قال سيّدي هارون:
.نصف ملكي الآخرولا أزيد فلم يبق لي ما أفتدي به نفسي.
هنا سالت عبرات البهلول، وارتفع نشيجه، ورفع رأسه إلى السّماء وكأنّما يشهد الله تعالى أنّه قد بلّغ الرّسالة ونصح في الدّين:
. أي هارون... أي هارون... أي هارون... ما نفع ملك أولّه قطرة وآخره بولة... يا هارون، اتّق الله تعالى في نفسك، وفي أغنامك الّتي أنت

مؤتمن عليها... إنّ لله تعالى رجالا غيركم، لا يعجزه إن نكلتم أن يأتي بهم فيحلّوا محلّكم...

ورحل البهلول، وقد ترك سيّدي في حالة من الرّثاء، وهو في حاجة إلى عزاء أكبر من كلّ العزاء... كان يقول في نفسه: «ليس هذا بهلولا، وإنّما عاقل أعقل من كلّ العقلاء!!»

قال طاجيك:

.يا عيني... ثمّ عيني... ثمّ عيني... يا ليتني في الأوطان أنادم الخلاّن... يا ليتني كنت راعيا في بادية من بوادي بلدي، أسرح بالنّهار، وفي اللّيل أغنّي للعذارى وللحيارى، وأقول: «يا لا لنّي... يا عين جودي بالدّموع وأكثري... فإنّي رأيت الزّمان بلا وفا... والحياة بلا هنا... ولا خير إلاّ فيمن اتّقى... فيا ربّ اجعلنا من أهل الرّجا...» وذكر البلدان والأوطان، ومن حادت به الطّريق، ووجد نفسه في مضيق، وذكر المعتمد بن عبّاد ومقامه في أغمات، وقد تقلّب به الزّمان، فمن أمير كبير كان يملأ البرك بالمسك والكافور لتخوّص فيها زوجته وبناته إلى أسير طريد في إحدى قرى المغرب الأقصى تسرح زوجته وبناته بغزلهنّ وصوفهنّ في الأسواق ويتكفّفن النّاس حتّى لا يمتن جوعا...

وذكر أبياته الرّائعات... وذكر بكاءه في تلك الأبيات... وأدار في نفسه كيف تتحوّل اللّغة من أداة للمتعة والجمال إلى مجرّد آلة للبكاء والنّواح... آه... ثمّ آه... ثمّ آه...

«غريب بأرض المغربين أسير / سيبكي عليه منبر وسرير**وتندبه البيض الصّوارم والقنا / وينهلّ دمع بينهنّ غزير**سيبكيه في زاهيه والزّاهر النّدى / وطلاّبه والعرف ثمّ نكير**إذا قيل في أغمات قد مات جوده / فما يرتجى للجود بعد نشور**فيا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة / أمامي وخلفي روضة وغدير**بمنبتة الزّيتون مورثة العلا / يغنّي حمام أو ترنّ طيور.»

قال طاجيك:

. وقد حدنا قليلا عن الطّريق... وقد كان من أمر شهريار أنّه لمّا طلع النّهار، كان المغسّلون قد غسّلوه، وألبسوه أكفانه وقد حنّطوه، ثمّ وضعوه بعد ذلك في النّاووس، وساروا به إلى مقبرة أجداده وراء القصر، والمشيّعون يشيّعون والمقرئون يقرأون قلب القرءان وسورة الملك وأواخر الزّمر ويدعون له بالغفران وبتسهيل الحساب من الله تعالى ذي المنّ غير المنقطع وذي الرّحمة الواسعة؛ وبعد ما صلّوا عليه صلاة الجنازة، تركوه بين يدي مولاه، يحضّر للقاه، ويستعدّ لسؤال منكر ونكير، فيا ربّ ثقّل ميزانه وثبّت جنانه وألهمه حسن الجواب عن السّؤال وألهمه الشّهادة...

ثمّ يتأمّل طاجيك قليلا في كتاب «الميزان» وقد سرح قليلا، ثمّ انتبه إلى نفسه وقال:

. وكان قد ألمّت بشهريار العزيمة، وحنّ إلى اليتيمة (أي «يتيمة الدّهر» للثعالبيّ)، فأراد أن يطوّف قليلا في البلاد ليعرف عادات وأعراف العباد، ولكنّه أراد أن لا يطّلع أحد على عزيمته، وكان له خادم أثير يشبهه في كلّ شيء، فأطلعه على عزيمته، وقال له: «سأعطيك ثيابي وتعطيني ثيابك، لأنّني نويت الرّحيل..» وقد كان الّذي أراد، فرحل وترك خادمه وأثيره في حالة من السّرور والحبور بعدما لبس شارة الملك والإمارة، ولكن، ويا للأسف ما كلّ فرحة تدوم، فقد مات ذلك الخادم بعد رحيل شهريار بيومين، فطنّوه هو، وقد فعلوا به ما سقناه آنفا وهم يحسبونه ملكهم، وقد ودّعوه بالشّهقات والعبرات وكثير من الحسرة إلاّ ما كان من أمر قليل من العترة الّذين قتل شهريار نساءهم واستباح أعراضهم وحرماتهم... فرحم الله تعالى ذلك الغلام الأثير، وطوّل الله تعالى عمر سيّدي شهريار حتّى لا تضيع حكايتنا هباء...

وهنا يتوقّف طاجيك عن الكلام فقد تطاول عليه اللّيل، وذكر بيت فطحل شعراء العرب وقائدهم إلى جهنّم وبئس المصير ذي القروح امرؤ القيس:

«تطاول علينا اللّيل دمّون / دمّون نحن قوم يمانون»

ـــــــــ حاشية كتاب «الميزان ودلائل الغفران» لـ «طاجيك بن لامار بن عمران بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السّلام.

.٥

... آه لكم يؤلمه هذا السّكون!! هذا الصّمت ما أمضّه في بلد هو غريب عنه!! قالوا له حين بلغ مبلغ الرّجال إنّه من بيلاروس، وإنّ حكايته كانت عجبا من الأعاجيب، وإنّ القراصنة أسروه بعد أن قتلوا أبويه دون شفقة أو رحمة، ثم جلبوه إلى بغداد المحروسة. حفظها الله تعالى من كلّ سوء. وباعوه إلى أحد أثريائها... كان الّذي اشتراه رجلا قد طعن في السنّ وكان طيّبا غاية في الطّيبة، وكان كذلك. لحسن حظّه هو طاجيك بن لامار. غنيّا جدّا، إذ كان هو أمين التّجّار وشهبندر سوق الصّيارفة والبزّازين بحيّ القامشليّة بسوق بغداد؛ ولمّا كان طاجيك يختلف عن صبية بغداد، وكان وجهه مشربا ببياض تشوبه حمرة خفيفة وكان شعره أشقر مجدولا في ضفيرتين، وكان على غاية من الوسامة والجمال فقد أعجب به «أبو السّعود». وكان ذلك اسم الرّجل الّذي اشتراه. وكاد يطير به سرورا، وقد أضمر في نفسه أن يجعله أحدا من أهل بيته، لذلك وكل به ابنته الوحيدة «بوران» الّتي كانت تكبره بعشر سنوات قائلا: «يا ابنتي، هذا الولد قد ساقه الله تعالى إلينا، وأنا رجل قد طعنت في السّنّ، ولم يرزقني غيرك، وليس لنا من يقوم بأمرنا ويتوّلى مصالحنا، فأوصيك بهذا الغلام خيرا عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولدا...» ثمّ تذكّر الشّيخ «أبو السّعود» أنّه لم يسأل القراصنة عن اسمه حيث سلّمهم المال، وكان على عجلة من أمره، حيث كان في إثر قضاء حاجة من حوائجه العارضة الّتي لا تحتمل تأخيرا.

أخذ الشّيخ بيد الغلام برفق وقاده إلى متّكأ في وسط غرفة متوسّطة الحجم، فجلس وأجلسه بجانبه ثمّ سأله بدماثة ولطف:

. ما اسمك يا بنيّ؟!

لم يبد على الغلام أنّه فهم السّؤال، فأعاده عليه وهو يومئ ويشير إلى صدره دلالة من يريد أن يستفسر عن اسمه...

ولكن عبثا... ومع ذلك لم ييأس، فقد سقطت يده عفوا على جيب الغلام، فاصطدمت بشيء بارز بروزا ظاهرا، وحين أدخلها سحب شيئا كالقلادة مكتوبا عليه: هذا طاجيك بن لامار، ابن الجاه والعزّ، ابن مولانا لامار بن تغز صاحب البيلاروس... وقد كانت الكتابة بلغة غير العربيّة في أعلاها، ولا يدري من ترجمها إلى تلك الكلمات العربيّة الّتي كانت مثبتة في أسفلها... وآلى على نفسه أن يتولّى رعايته وأن يضمّه إليه وأن يلحقه بمجالس العلم في بغداد وأن يرسله . إذا أبدى رغبة في ذلك . إلى كلّ بلاد الإسلام لينهل من علوم العصر... وتعلّم طاجيك الجبر والحساب والفقه والنّحو والعربيّة بفروعها من أدب وسير وأيّام ومغازي، وقد كان قبل ذلك قد حفظ القرءان على يد الشّيخ ابن مردويه بأحد الكتاتيب في حيّ المريدين القريب من بيته ببغداد المحروسة...

وكان طاجيك كلّما ازداد تدرّجا في مراقي العرفان ازداد جماله وتفتّحت وسامته فعرفه القاصي والدّاني ليس في بغداد وحدها، ولكن في البصرة أيضا، وفي الكوفة، وكانت «بوران» ابنة الشّيخ «أبي السّعود»، لم تزوّج بعد، وكانت تنظر إلى نفسها في مرآة ذاتها وتقول: «إيه، يا بوران إنّك لسيّئة الحظ، غاض جمالك وذهب شبابك، ولم يبق أمامك إلاّ الأماني ومداراة السّنين، والبحث عن العزاء...» وقد كانت تنظر إلى طاجيك: إلى جماله ووسامته، وإلى حسنه الأخّاذ، وتقول: «سبحان الّذي وهبك جمالا كجمال يوسف!!» وقد ذكرت «زليخا» وما كان من أمرها فتقول: «تبّا للنّساء من الرّجال وتبّا للرّجال من النّساء!!» وكانت مع ذلك تنظر إلى طاجيك، وتحسّ أنّه بدأ يتسلّل إلى قلبها رويدا رويدا، ولم تفزع وإنّما كانت تشعر بحنان ما عليه من مزيد تجاهه، فأزمعت أن تجعله لها ابنا وعونا على همّ الزّمان...!!

الآن، وهو وحيد، في هذا الرّكن القصيّ من بلاد الإسلام، في هذا الخان الصّغير على مفترق الدّنيا، أمامه كوب السّحلب، ودخان الأراكيل من حوله يغطّي فضاء الغرفة فيقول، وهو يشعر أنّ قلبه المتعب يكاد ينفجر ما بداخله من الغصص والحسرات: «آه، يا والدي أبا السّعود!! ويا والدتي الحبيبة بوران!! لكم أشتاق إليكما!! أين تراكما تكونان؟! أفي الأحياء أنتما أم من الأموات؟!! ليت لي جناحين فأطير إليكما... أطير إلى بغداد الحبيبة... إلى مرابع الصّبا، ومجالس العلم، وإلى شيوخي الّذين أحببتهم وأحبّوني!!»

قال طاجيك:

.وبسط يرفع يديه فصعدت شهرزاد وشهريار يتبعها...

.٦

حين طار يرفغ عاليا في الجوّ، لم تكن لديه النّيّة لينهي الرّحلة . كما كانت عادته . في بضع دقائق أو ثواني، فلم يكن مستعجلا لعلمه أنّه سيكون لديه الكثير لفعله في بغداد؛ ولم تكن شهرزاد تعلم عن نيّته شيئا، ولا ما يدور في رأس هذا الجنّيّ الصّغير. أمّا شهريار فقد كان يبدو عليه شيء من السّهوم، ولم يكن منتبها إلى ما يحدث حوله. لقد مرّ يرفغ وهو يجوب الأقطار ببغداد وعلم أن العبيد السّودان قد استولوا عليها، وأنّهم قتلوا كلّ من فيها من الرّجال ولم يتركوا غير النّساء، أمّا من بقي من الأطفال فقد جمعوهم في براميل أحكموا إغلاقها ولم يتركوا لهم غير ثقوب صغيرة يتنفّسون من خلالها... أمّا كيف حدث كلّ ذلك، وكيف تسنّى لهؤلاء العبيد أن يتخلّصوا من أسيادهم، ويفعلوا ما فعلوه، وهل كانت تلك خطّة أعدّ لها سلفا أم جاء كلّ شيء عفو الخاطر لغياب شهريار من ناحية ولحالة الحداد الّتي فرضت على المملكة منذ اختفاء ملكها، فإنّ يرفغ لم يكلّف نفسه حتّى مجرّد السّؤال، وقد كان في داخله سعيدا لهذا الحدث الغير المتوقّع لما سيوفّره له من بعض التّسلية في محاربة هؤلاء العبيد الذّين نسوا وهم يقومون بهذا الانقلاب المفاجئ أنّ هناك من سيكون لهم بالمرصاد وسيذيقهم الأمرّين ليتعلّموا فيما بعد كيف يطيعون في صمت ويخدمون أسيادهم وعلى رؤوسهم العصيّ وعلى أقفيتهم الصّفعات وفي صدورهم اللّكمات...

كان يرفغ يحوّم، ويميل بجسمه ذات اليمين وذات الشّمال، وكان سعيدا، يقلّد العصافير الصّغيرة الّتي تمرّ من أمامه وهي تيمّم صوب مناطق الدّفء، فقد كان الشّتاء على وشك المداهمة؛ ويبدو

أنّه سيكون شتاء قاسيا. فقد كانت النّسمات الّتي تهبّ من حين لآخر شديدة البرودة ومحمّلة برطوبة تنذر بوابل من المطر... في أوقات أخرى، أوقات ضاربة في مجاهل النّسيان، وحينما كان يرفغ ما يزال بعد حبيس الخاتم، لم تكن له من تسلية سوى التّخيّل. ولحسن حظّه فقد ورث عن والدته حضور بديهتها وقوّة ذاكرتها الّتي ورثتها بدورها عن أمّها، وأمّها عن أمّها... لقد كانوا من قبيل من الجنّ يقال لهم «الشّناتر»، وهؤلاء علّمتهم حياتهم الّتي لم تكن تخلو من القتل وسفك الدّماء شحذ أذهانهم لتذكّر مواطن هجومهم وكلّ التّفاصيل الّتي يمكن أن تساعدهم في إحراز أكبر قدر ممكن من الغنائم؛ وقد استمرّ هذا الأمر فيهم لآلاف السّنين قبل أن يغزوهم قبيل آخر كان أعظم خطرا وأشدّ بأسا هم «البوائق»، الذّين حين تمكّنوا من خصومهم لم يقتلوهم ولكن حبسوهم جميعا فيما كان بحوزتهم. فهناك من حبسوه في قماقم، ومن حبسوه في قوارير داكنة مختومة، ومن حبسوه في أزيار ضيّقة الأغناق، ومن حبسوه في خواتم، مثل يرفغ الّذي كان في ذلك الحين صغير السّنّ، ورموا الجميع بعد ذلك في البحر؛ ولحسن حظّ يرفغ التقطه في البداية رجل من نيسابور وخدمه سنين، ولا يدري كيف انتقل الخاتم إلى قصر شهرزاد الّتي أصبح الآن خادمها الأمين...

قالت شهرزاد تسأل يرفغ حين لاحظت أنّ الرّحلة كانت أطول من المعتاد:

.ويحك، يا يرفغ، لماذا أنت بطيء على غير العادة؟

كان يرفغ محتارا ولم يدر حقّا ما يقول، فهو لم يكن متأكّدا بعد أيخبرها بخبر العبيد أم يترك الأمر لوقت آخر. في الأخير قال:

.سيّدتي هناك شيء قد حدث ببغداد!

أحسّت شهرزاد أنّها أخذت على حين غرّة. قالت في نفسها: «كيف عرف ذلك وقد كان طوال الوقت معنا ولم يغب عنّا طرفة عين؟»

ثمّ متوجّهة إليه وهي ترمق شهريار بطرف عينها:

.وماذا تراه يكون حدث؟!
قال يرقغ:
. علمت، يا سيّدتي، أنّ العبيد قد استغلّوا فرصة غياب سيّدي شهريار فقتلوا كلّ الرّجال وأخذوا المدينة. ونصّبوا عليهم ملكا أشدّهم بأسا وهو عبد يقال له ابن زبيبة...
قاطعته شهرزاد فجأة، وهي تضحك رغما عنها:
.أيكون هو عنترة يا ترى؟!
ثمّ وهي تتّخذ سيماء الجدّ من جديد، وتتّجه صوب زوجها شهريار:
.أسمعت ما سمعت يا سيّدي؟
كان شهريار قد ابتعد كثيرا... وفي لحظات غيابه تلك كان قد جاب العالم المعمور ثلاث مرّات، ورأى في ثواني معدودات ما لم يره طوال حياته الّتي تقترب الآن من خريفها الرّابع والخمسين: لقد رأى التّنّين وهو يرمي نيرانا من فمه كان يطلقها على حصون غاية في المناعة، ورأى بأمّ عينيه كيف كانت الحصون تتهاوى وتسقط محدثة أصواتا كأصوات الانفجار... ورأى السّبيلا عرّافة الزّمان الّتي استوقفته وأخبرته أنّه سيعيش خمسمائة وخمسا وتسعين سنة شمسيّة... وفي غفلة منه، ودون أن يدري كيف حصل كلّ ذلك، تزوّج أربع نساء كأنهنّ الأقمار وكنّ أخوات، ومن عجب أنّه لم يتزوّجهنّ مرّة واحدة، ولكن كان كلّما توفّيت واحدة تزوّج الأخرى، وهو لا يدري إلى الآن كيف تسنّى له أن يفعل ذلك في ذلك الزّمن اليسير الّذي لم يكن يتجاوز بضع ثوان؛ وقام بثماني غزوات غنم خلالها، واستولى على خمسة عشر حصنا، وثماني دساكر، وقصبتين... ورأى سور الصّين العظيم وتجوّل في مملكة الأباطرة وتعلّم اللّغة الصّينيّة وأطلق البارود على منغوليا المجاورة وكتب على الورق الّذي كان ابتكارا في ذلك الزّمان رسالتين في الحبّ، وكتب كتابا عن رحلة قام بها في بحر اليابان وسومطرة وجاوة وشبه القارّة الهنديّة... وكانت تصله الأخبار أثناء ذلك أنّ زوجاته كنّ يلدن له أولادا وبنات بلغ عددهم مائة وخمسين بين ولد وبنت، وكان

في كلّ مرّة يرسل الأسماء الّتي ستطلق عليهم... لقد كان سعيدا، وكان يتمنّى لو بقي في ذلك الحيّز من تهويماته، ولو لم توقظه شهرزاد لكان الآن على أبواب غرناطة، فلم تكن بينه وبين إعادة فتحها سوى أن يطلق عليها مدافعه الّتي كان أحضرها معه من الصّين. إنّه يذكر كيف حرّر فلسطين، وحرّر قدسها الشّريف، وحين فعل ذلك رأى المظفّر صلاح الدّين في المنام، وقال له: «الآن أنام قرير العين: فقد علمت أنّ الله تعالى لم يضع جهدي عبثا، وأنّ القدس الشّريف الّذي حرّرته مع رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه قد عاد إلى أهله!!»

نظر إليها شهريار في حيرة، وكان غاية ما خرج من فمه:

.هه...!!

قالت شهرزاد:

.أراك قد ابتعدت كثيرا، يا سيّدي، إنّك لم تكن معنا!

قال:

.أجل، لقد رأيت عجبا من الأعاجيب!!

فجأة نسيت شهرزاد ما كانت ستقوله وتعلّق كلّ انتباهها بوجه زوجها، ولكن قبل أن تسأله، أمرت يرفغ أن ينزل بهما في مكان ما من الواحة الّتي كانت على مرمى حجر منهم: وفي النّهاية حين استقرّ بهم المكان جميعا، وكان يرفع قد أعدّ بساطا لا يدرى كيف أخرجه وبسطه بكلّ عناية، وجهّز شيئا كالقباء، وأعدّ آلات السّمر وما لذّ وطاب من مأكل وشراب: آنئذ قالت شهرزاد:

.لنجلس، يا سيّدي.

ثمّ، وبعد أن اطمأنّت أنّ كل شيء أصبح على ما يرام، قالت:

.هيه، يا سيّدي، أخبرنا عن هذه الأعاجيب!!

قال شهريار:

.اعلمي، أيّتها الملكة الجليلة ذات المكانة الرّفيعة أنّي رأيت...

وهنا أدرك شهريار الصّباح فسكت عن الكلام المباح.

.٧

قال طاجيك: آه، ماذا يحدث في بخارى؟! بخارى الّتي ما شعرت فيها يوما بالغربة مذ وطئتها قدماي!! كنت أطوف بأسواقها وحواريها وميادينها، وكنت في كلّ مرّة أخرج فيها أكون قد أَضفت صديقا جديدا إلى قائمتي أو رفيقا ستجمعني وإيّاه قافلة الرّحيل حين يؤذن رئيس الرّكب بذلك. بخارى تتحوّل اليوم إلى عين كبيرة تراقب الغرباء أمثالي؛ وقد سمعت منذ يومين أنّ أحد الزّعّار قد جمع عصابته وهجموا على قصر الأمير فخرّبوا ما طالته أيديهم ونهبوا الأموال الطّائلة، حتّى أنّهم كانوا يسحبون العقود واللآلئ من أعناق الجواري... قلت في نفسي: «ربّما يكون هذا سبب هذه الشّدّة الطارئة، وانتشار الجنود البخاريّة في كلّ مكان من الإمارة .» ولذلك كنت أخرج في الصّباح من كلّ يوم فأشتري حاجاتي من السّوق ثمّ أعود إلى غرفتي في الخان ولا أغادرها حتّى صباح اليوم التّالي... لقد كانت أيّاما صعبة، ولم يكن لي في البداية من رفيق إلاّ كتبي الّتي جلبتها معي وديوانا ابن الفارض وأبي الطّيّب المتنبّي؛ وقد علم صاحب الخان بمحنتي، وكان يعرف أنّي كاتب وخطّاط، ومن أهل الأدب، فأمر خادمه .وكان حاذقا يحسن القراءة والكتابة .أن يلازمني ويقوم على خدمتي طيلة إقامتي، ولم يكن ينتظر أجرا، ولكنّي قلت في نفسي: «إذا كان صاحبك عسلا فلا تأكله كلّه!!» واتّفقت معه على قدر من المال أؤدّيه إليه مع أجرة الخان... وقد كان هذا الخادم هديّة من السّماء جاءت في وقت بدأت فيه عيناي تضعفان، وبتّ لا أميّز الحروف جيّدا حين أقرأ؛ وقد سألت في السّوق عمّن يصنع عوينات للنّظر فأخبروني أنّه إذا كنت حقّا في حاجة إلى ذلك لا بدّ من الذّهاب إلى سمرقند أو بغداد، فضربت صفحا عن الأمر

إلى حين، وقلت سأسعى في ذلك إذا عدت إلى الدّيار سالما؛ وذكرت سيّدي أبا السّعود ومربّيتي بوران فألفيت قلبي يبكي وينوح وقلت متى يسعف الله تعالى باللّقاء!! لقد كانت لي جولات لا تنسى على ضفاف دجلة والفرات، وكنت أسرّح طرفي في قصور الخلفاء وأتعجّب لتلك الأبهّة وذلك الجمال، وكنت أقول لا بدّ أنّ سيّدي أمير المؤمنين وآباءه من قبل قد أنفقوا ثروة لا تقدّر في بناء كلّ تلك القصور المنيفة الّتي تمتدّ على مرمى البصر... وذكرت أيضا ذلك المقهى الصّغير في أطراف الكرخ، وكنت آوي إليه في أماسي الشّتاء البعيدة. فأطلب كأسا كبيرا من البابونج، وأفتح الكتاب الّذي أكون قد جلبته معي وأسرح معه، ولا أغادر حتّى أكون قد أتيت عليه كلّه؛ لقد كنت أقرأ كثيرا في الزّمان القديم، قبل محنة الرّحيل والسّفر الّتي ابتليت بها على كبر، وكنت أقرأ في اليوم الواحد كتابين، وفي الأسبوع سبعة كتب، وما أن يجيء الشّهر حتّى أكون قد أتيت على عشرين كتابا في شتّى العلوم. فقد كنت أقرأ في التّاريخ، وأدب الرّحلة، والسّير والمغازي، وفي الفقه والفتوى، والكيمياء، والسّحر... آه، لكم يجتاحني الحنين!! لكم أحسّ أنّي في حاجة إلى أن أتحدّث مع شخص ما في هذا اللّيل الطّويل!! كان خادمي . مسعود . قد آوى إلى فراشه مبكرا، وكنت متردّدا في إيقاظه. لعلمي أنّه كان يتعب كثيرا، فهو يقضي طيلة فترة الصّباح وما بعد الظّهر مع سيّده في خدمة زبائن الخان، ثمّ يأتيني في المساء فأملي عليه ما يفتح اللّه تعالى عليّ به...

في اللّيلة الماضية، حينما جاءني، كنت قد أخذت ورقة وبدأت أخطّ عليها شيئا، وتذكّرت شهريار وشهرزاد والجنّيّ يرفغ، فوضعت ما بدأته جانبا وأمرت الخادم أن يجلس ويتناول قلما ودواة ويجلس بجانب نضد في وسط الغرفة لأملي عليه تتمّة الحكاية...

«حين استقرّ المجلس بالجميع، وبعد أن أكلوا كفايتهم وشربوا ما تيسّر لهم قضوا تلك اللّيلة في الواحة على أهنأ حال؛ وفي الصّباح، أراد يرفغ أن يحلّق بهم من جديد، ولكنّ شهرزاد الّتي لم تنس ما قاله زوجها

شهريار، أمرته بالمكوث حتّى تسمع من زوجها بقيّة حديثه العجيب...
قال شهريار:
.أيتّها الزّوجة الحبيبة والملكة الفريدة بين النّساء، لقد رأيت قصورا وممالك... وكدت أقع في المهالك لولا أنّ الله ستروسلّم... ولم أكن نائما، ولكنّي لم أكن يقظان أيضا، ولكن يخيّل إليّ أنّي كنت أرى الأشياء كما لو كنت أراها من وراء ستر خفيف أو زجاج مشوب ببعض السّواد... فكنت بين اليقظان والنّعسان... وكنت أمشي وحيدا في صحراء ليس فيها إنس ولا جانّ... وبعد التّعب والضّنى وحرارة الشّمس، رأيت على البعد أطيافا وسمعت أصواتا كما لو كانت تأتيني من بين جبلين شامخين؛ وحينما اقتربت منّي تلك الأطياف تبيّنت فيها صورا لرجال ونساء، وكانت بينهم امرأة.سبحان من صوّرها في تلك الصّورة ؛ واقترب منّي شيخ وقور، يغرق في البياض من رأسه حتّى أخمص قدميه، ذو لحية بيضاء وشارب كثّ أبيض هو الآخر، ويلبس قفطانا أبيض وقباء أبيض، وقال لي بإجلال لم يكن يخفي مسرّته وفرحه بلقائي:
.سبحان الجبّار الّذي ساقك إلينا في هذه السّاعة المباركة...
لقد تركني في حيرة من أمري، وتساءلت عن سبب كلّ هذه الحفاوة، وكنت أنوي أن أسأله، غير أنّه كان أسرع منّي، فواصل قائلا:
.لقد مات ملكنا منذ ساعة، ونحن أهل مدينة لا تبعد كثيرا من هنا، فرسخ أو يزيد قليلا؛ وعادتنا أنّه إذا مات لنا ملك خرجنا إلى أطراف المملكة، وأوّل قادم يصادفنا نولّيه علينا...
أحسست كأنّ عصافير الكون تغرّد في قلبي، وأنّ فرقة من المنشدين تعزف من حولي... لقد كان يبدو أنّ مملكة القوم هي أكبر بكثير من مملكتي، وفرحت غاية الفرح، وتملّكني سرور ما عليه من مزيد أنّي سأكون ملكا من أكبر ملوك الأرض؛ غير أنّ ذلك الرّجل الوقور استوقف سلسلة أفكاري قائلا:
.ولكن، يا سيّدي، عليك أن تكون على علم، أنّ أيّ رجل نولّيه علينا

عليه أن يلتزم بشرطنا...

قلت مقاطعا من فرط الفرح والدّهشة معا، وقد أضمرت أن أقبل هذا الشّرط مهما كانت التّكاليف:

.وما هو هذا الشّرط أيّها الرّجل الطّيّب؟!

قال، وهو يشير إلى امرأة خلفه كانت متنقبّة، ولم تكن تشبه بقيّة النّساء اللاّتي كنّ يحاذينها:

.أن تتزوّج زوجة ملكنا الرّاحل...

قلت مقاطعا مرّة أخرى:

.أنا موافق.

غير أنّه استوقفني بإشارة خفيفة من يده، ثمّ قال:

. عليك أن تسمع الشّرط إلى نهايته حتّى لا تقول إنّنا ضحكنا عليك...

قلت:

.صدقت. تفضّل... إنّي كلّي آذان صاغية.

قال:

.شرطنا أن تتزوّج الملكة، ولا يحقّ لك إذا ما تزوّجتها أن تطلّقها أو تتزوّج عليها...

ثمّ توقّف هنيهة، وواصل بعد قليل:

. إنّي أقول لك هذا لأنّ مملكتنا معروفة بين جميع الممالك بفتنة نسائها وحسنهنّ الّذي لا يضارع... ونحن بشر، نميل بطبعنا إلى الحسن والجمال، فربّما سوّلت لك نفسك شيئا أو أمرا يكون فيه هلاكك...

قاطعته مرتاعا:

.هلاكي؟! وماذا يعني ذلك؟!

قال بهدوء أعصاب وكأنّه سيخبر بشيء عاديّ جدّا:

.إنّ من لا يلتزم بشرطنا قذفناه في جبّ السّباع بظاهر القصر...

وهنا أدرك شهريار الصّباح فسكت عن الكلام المباح...»

٨.

قال طاجيك: في الصّباح، حينما استيقظت، ألفيت مسعود قد غادر الغرفة والتحق بالخان لخدمة الضّيوف؛ وقد رأيت أنّه كان مزدحما بالزّبائن، على غير العادة، في ذلك الوقت من النّهار. قلت في نفسي: «قد يكونون مثلي، وقد أحسّوا بوطأة الأيّام وثقلها في بخارى بعد الّذي حدث فيها!!» وانتقلت عيناي بين الضّيوف في محاولة منّي للتعرّف على من كنت التقيتهم أثناء إقامتي وربطتني بهم مودّة بدأت تتأكّد كلّما التقينا وتحدّثنا؛ ولكن يبدو أنّ كلّ من تعرّفتهم قد اختفوا لسبب أو لآخر، ودعوت الله تعالى أن يكون قد حفظهم من عيون العسس وأيدي الجلاوزة... اجتزت عتبة الخروج، ولا أدري لماذا كانت تجتاحني آنئذ مشاعر الرّضا والطّمأنينة رغم ما كنت فيه من الضّنك والحصار، واتّجهت إلى السّوق مثلما كانت عادتي منذ ثلاثة أو أربعة أيّام. كان في السّوق رجل خيّاط، وكان له حانوت صغير، والصّدفة وحدها هي من وضعتني في طريقه، وكان ذلك حين تمزّق قفطاني .ولم يكن لي غيره؛ وكنت مضطرّا إلى إصلاحه، فمررت على حانوت «شمس الدّين» .وكان ذلك اسم صاحبي؛ وحين أخبرته أنّ قفطاني هو الّذي يقيني برد بخارى القارص الّذي هجم في ذلك العام مبكرا، وعلى غير توقّع، وأنّي رجل قد دقّ عظمي وقلّ لحمي من التّجوال والضّرب في الآفاق، أشار إلى كرسيّ وطيء بجانبه وأمرني بالجلوس ريثما يفرغ من إصلاح شيء كان في يده، وأشار إلى غلام له في الدّكان بأن يأتيني بكوب من القرفة من المقهى المجاور لحانوته... كان يجتاحني شجن في ذلك اليوم، وكان من العمق بحيث أنّه جلب انتباه صاحبي الّذي قال لي:

. أيّها السّيّد، اعذرني على تطفّلي؛ ولكن سأقول لك شيئا، ربّما لا

تكون تجهله: «خلّها على الله! فهذه الدّنيا لا أمن فيها ولا أمان، وهي آيلة إلى الزّوال، ولا يبقى فيها إلاّ وجه الدّيّان.»

لم أستغرب ذلك القول منه ولم أعتبره تدخّلا في شؤوني، وأنا الّذي عرفت البخاريّين واحتفاءهم بكلّ القادمين إلى بلادهم، سيّما الغرباء منهم... لقد كان يفد على بخارى في كلّ يوم عشرات الطّلبة من سمرقند ومن جرجان وطبرستان وأرّجان ومن خراسان ومن الرّيّ البعيدة لشهرة علمائها الّذين كانوا يدرّسون في جامعها الكبير شتّى العلوم من فلسفة ورياضيّات وفقه ونحو وكلام وأستطيقا وجغرافيا وأدب الرّحلة الذّي كان مستحدثا في ذلك الزّمان؛ وكنت رغم اطّلاعي وحصولي على إجازات عديدة من شتّى الأمصار والبلدان ألمّ ببعض أولئك العلماء فآخذ عنهم وأحيانا أجادلهم.

شعرت في داخلي، لأوّل مرّة بعد أيّام عديدة من الخوف والمطاردة بالسّعادة، وقلت أترك لهذا الرّجل الطّيّب أن يتكلّم. فاتّجهت صوبه مشعرا إيّاه أنّي كلّي آذان صاغية، وقد وطّنت نفسي على الصّمت، إلاّ أن يكون ما سأقوله ردّا على سؤال لا بدّ من الرّدّ عليه.

قال الرّجل:

. إنّ في حياتي، أنا الرّجل الضّعيف، لعبرة؛ وإنّه لو كان رجل أميل إلى اليأس والإحباط لكنت أنا ذلك الرّجل، ولكنّك اليوم تراني، رغم فساد الحكّام وتكالب الزّمان، راضيا بقدري صابرا على ألمي... واعلم أنّ اسمي شمس الدّين، وأنا لست من هذه البلاد، وإنّما جئت إليها من «بيكند» بعد أن عدا اللّصوص وقطّاع الطّريق على بلادنا وسرقوا كلّ شيء فيها، ولم يكن أمامي إلاّ الهروب كما هرب غيري؛ ولحسن حظّي لم أكن ثقيل الظّهر، فلا زوجة خلّفت ورائي، ولا أبناء أحمل همّ حمايتهم وإطعامهم؛ وجئت إلى بخارى...

ثمّ صمت قليلا، وهو يضع ما كان بيده على نضد قريب منه؛ وبدأ بإصلاح قفطاني، ثمّ قال بعد لأي:

ـ لقد كانت بخارى، بلد الأمن والأمان، قبل أن يتغيّر كلّ شيء فيها، حتّى أنّهم أخذوا في اضطهاد العلماء، وكلّ من يقول شيئا خارجا عمّا يريده الأمراء أو يجاهر برأي لا يوافق هوى الفقهاء، وقد سمعت أنّ «ابن سينا» قد غادرها متخفّيا بعد أن ضيّقوا عليه الخناق...

وصمت قليلا، ويبدو أنّه أدرك أنّ الكلام قد أخذه وأنّه كان ينبغي عليه أن يشركني في حديثه، فقال يسألني:

ـ معذرة، يا أخي، فقد تركت للساني العنان، ونسيت أنّك ضيفي، وكان ينبغي لي أن أتركك تتكلّم بدل أن أستأثر بكلّ الكلام... هل لي أن أسألك: ما اسمك؟!

قلت:

ـ اسمي طاجيك.

ربّما بدا الاسم غريبا عليه، فقد لاحظت على وجهه علائم الدّهشة والاستغراب، ولكنّه تدارك نفسه لئلاّ يجرحني أو يثير شكوكي ناحيته، فقال:

ـ يبدو لي أنّك جئت من بلاد بعيدة!!

قلت:

ـ نعم. أنا من بغداد.

قال يسألني:

ـ اسمك غريب؛ فكيف تقول إنّك من بغداد، وفي بغداد لا يسمّون أبناءهم بهذا الاسم؟!

قلت:

ـ أنت، على حقّ، يا سيّدي؛ فأنا قد جلبت إليها رقيقا واشتراني رجل طيّب وضمّني إلى أهل بيته فنشأت كواحد من أبنائه وعهد إلى ابنته الوحيدة أن تربّيني.

قال:

ـ فهمت الآن! فما الّذي جاء بك إلى بخارى؟ هل أنت تاجر من

التّجار؟

قلت:

.لا. بل أنا سندباد أجوب الأمصار ورحّالة في بلاد الله أبغي الفرجة والتّعرّف على الأقطار...

وأخذنا في أحاديث كثيرة كانت تتشّعب وتتعرّج إلى أن جاء المساء، وفي الأثناء جاء غلامه بأباريق وأكؤس من القرفة والزّنجبيل كنّا نشربها على وقع المطر الخفيف الّذي كان ينزل في الخارج... ومن ذلك اليوم، صرت أتردّد على صديقي «شمس الدّين»، وقد ربطت بيننا أواصر صداقة ومحبّة ليس إلى انقطاعها سبيل.

- ٩ -

الضّنى والضّنك؛ ومن للغريب؟! في زاوية في غرفته بالخان، يتطلّع من الكوّة الصّغيرة إلى الخارج في أواخر النّهار، أو بداياته؛ فهو لا يدري تحديدا... كانت السّماء تبكي في صمت، والمياه الّتي تنزل كانت تكوّن سواقي رقيقة في الجوار. لا يدري لماذا كان المطر دائما يبعث فيه من الحزن بقدر الّذي يمنحه من الفرح؛ وهو لا يذكر إلاّ أنّه يافع في منزل سيّده ببغداد، في الأوقات الشّحيحة النّادرة الّتي كان ينزل فيها المطر؛ ورغم وقوف بوارن له بالمرصاد كان يغافلها ويدلف إلى الخارج فيعرّض وجهه بكلّ فتنة للماء، ويندفع في الغناء بلغة أجنبيّة، لأنّه لم يكن قد تعلّم العربيّة بعد... كانت كلّ جارحة فيه تغنّي، وكان قلبه يتمدّد وينقبض في آن، وكان يشعر كأنّه ليس غريبا عن كلّ ما حوله؛ وأنّ بغداد بلده كما ذلك البلد الّذي جاء منه، ولو أنّه لا يذكر عنه شيئا... كانت بغداد هي البدايات ولم يكن يعلم آنذاك أنّها ستكون هي النّهايات أيضا. لم يكن يعلم أنّه كان يبكي في صمت، لا لأنّ الدّموع تسقط على خدّيه الخاسفين وتتخلّلان لحيته الصّهباء، ولكنّ شيئا في داخله كان يترقرق، ويخبره أنّ الغريب مثله إذا تأكّد لديه أنّ هناك في مكان ما من يذكره ويسأل عنه ويرسل له المراسيل، فسيكون ذلك غاية المراد؛ فأمّا - إذا لا قدّر الله تعالى . غاب ذلك الشّخص أو رحل، فسينقلب كلّ شيء رأسا على عقب، وسيعمّ الدّنيا الفراغ، وسيكون الموت هو النّهاية المحتومة. منذ وطئت قدماه بخارى، لا يدري لماذا أدمن قراءة ابن سينا، سيّما كتبه في الفلسفة، وكان إذا تعب منها أخذ يقرأ شيئا في الطّب. كان يقف عند عبارة بعينها لا يتعدّاها، وكانت تلك العبارة هي قطب الرّحى!! آه، لتلك العبارة! هل كان ابن سينا يصف وضعا؟

أم كان، على العكس من ذلك، يشير إلى النّفس، يشير إلى الجروح الّتي في الدّاخل، إلى دمامل القلب، الّذي إذا أعجزه النّسيان كان موته وهلاكه؟! آه، لتلك العبارة: «إذا كان المرض خفيّا في الباطن استحال البرء منه وكان الهلاك.» كان قلبه يمتلئ بوالده أبي السّعود، حتّى وهو على أبواب الكهولة؛ أمّا إذا ذكر بوران فإنّ روحه ترقّ وتشفّ. ماذا لو ماتت؟ ماذا لو مات والده أبو السّعود؟ ماذا لو مات كلّ من يسأل عنه؟ هو الغريب في بلد لم يعد غريبا لديه الآن... بخارى، آه يا بخارتي! لو تعودين كما كنت! حينما دخل عليه مسعود كان ما يزال على تلك الحالة من الهيمان؛ وكان الغلام يعلم عن سيّده تلك الشّرودات بحكم اتّصاله به خلال إقامته في الخان، لذلك قام بترتيب الغرفة في صمت، وأعدّ له الشّاي، ووضعه على طاولة قصيرة القوائم في الوسط و أفرد أوراقه في انتظار أن يؤوب سيّده أخيرا إلى نفسه.

اتّخذ مجلسه المعتاد، و بعد أن شمّر كمّيه واعتمد بيديه على الطّاولة أخذ يملي عليه في صوت تشوبه شجنة:

قال شهريار: «وعدنا جميعا إلى قصر لم يشهد العالم مثله، وحول ذلك القصر كانت الدّور العامرات وكانت الحدائق المعلّقات، وكانت الأنهار الجاريات، والطّيور الصّادحات؛ وكانت هناك الجواري والغلمان الّذين استقبلونا بالمزاهر والدّفوف، وكانت الملكة تمسك بيدي، وتضغط عليها من حين لآخر، لتذهب عنّي اضطرابي، وتمحو من رأسي اكتئابي... وكانت اللّيالي الثّلاثين الّتي مرّت بعد ذلك كلّها أعراسا وأفراحا، كلّ ليلة تمرّ تكون أمتع و أجمل من الّتي قبلها، وأنا والملكة في الفراش لا نخرج إلاّ لماما... وكان كلّ شيء يأتينا إلى جناح الحريم، المآكل الّتي لم أشهد مثلها في حياتي، والمياه المروّقة بالورد والزّهر؛ والمغنّيات المغنّون وهم ينشدوننا إلى أخر ساعة من اللّيل... إلى أن زلّت قدمي وحان حيني...»

ونظر إلى مسعود من طرف خفيّ؛ رآه وهو يكتب ينصبّ بكلّ ثقله

على الطّاولة وهو يحاول أن يجاريه ولا يفوته ممّا يقوله شيء. كان أجمل ما يعجبه فيه صمته، هدوؤه، انفصاله عمّا يكتب، فلا يتأثر بشيء، فكأنّما ما يكتبه لا يتجاوز سمعه إلى قلبه، أو أنّ ما يكتبه لا يعنيه فيه إلاّ أنّه سيتقاضى عليه ثمنا... رفع رأسه إلى السّقف؛ ونازعته نفسه إلى التوقّف في تلك اللّحظات وصرف الغلام ليخلو أخيرا إلى نفسه؛ فقد كان يشعر بحزن ما عليه من مزيد؛ ثمّ عدل عن ذلك، وتطلّع إلى مسعود، وودّ لأوّل مرّة مذ حلّ ببخارى لو كان له ولد مثله يصحبه في رحلاته ويخدمه. ذكر أبا الطّيّب المتنبّي وابنه محسّد، وحسده؛ وذكر آخرين كانوا إذا خرجوا أو اضطرّتهم الظّروف إلى المفارقة استصحبوا فلذة أكبادهم ليكونوا قريبين منهم، ليذكّروهم أنّهم لم يغادروا وأنّهم مقيمون... قال لمسعود: «اكتب، يا ولدي، أنّ شهريار كان لا بدّ له من يوم، وجاء ذلك اليوم أقرب ممّا كان يتوقّع؛ كانت الملكة هي أجمل النّساء في المملكة، بل أجمل من كلّ النّساء اللّواتي عرف في حياته؛ ولكن كان يجد عزوفا حين تقبل عليه، كان ربّما يرى جمالها من النّوع الّذي لا يتّخذ للعناق والتّقبيل، وأنّه شيء سماويّ، لا يطال، وكانت تستهويه الجواري اللّواتي لم يكن جمالهنّ يساوي شيئا إلى جمالها، وكان يخلو بهنّ كلّما سنحت الفرصة في كلّ مكان، في الزّوايا المظلمة، في طرقات القصر، في المقاصير الكثيرة الّتي كانت تضوع برائحة الطّيب والمسك، وحتّى في غرفة نوم الملكة حين تكون في الخارج لقضاء شأن من الشّؤون... كان يتمنّى لو طال كلّ ذلك، لو امتدّت متعته إلى أقصاها، ولو أنّ الوزير لم يقيّده بذلك الشّرط. لا يدري ماذا اعتراه في تلك الأيّام، أو لماذا كانت تقوده جوارحه إلى تلك النّساء وهو الّذي يمتلك ملكة لم يجد الزّمان بمثلها؛ هل هو الضّعف البشريّ أمام الجمال، أو بالأحرى أمام الشّهوة الضّاجّة الّتي لايملك الإنسان حيالها إلاّ أن يستسلم؟...» وتوقّف، رثا لحاله؛ لم يكن قد طرح سؤالا من هذا النّوع على نفسه من قبل: ماذا عنه هو؟ ماذا عن رغباته وشهواته؟ ماذا عن

أسراره؟ وتلك البرك المظلمة بداخله؛ هو الّذي لم يعرف من النّساء إلاّ بوران، أو صديقاتها اللّواتي كنّ يزرنها من حين لآخر في منزل والده أبي السّعود؟... لقد كان يمرّ بهنّ فيخفض رأسه، يمضي في صمت دون أن يكلّف نفسه حتّى عناء الاستماع إلى ما يقلن؛ هل كان يشعر أنّه إن فعل سيتورّط في إثم ما؟ ستتلوّث نفسه وسيفقد طهره وبراءته؟ كان ينظر إلى بوران ويراها المرأة الوحيدة الّتي لا يشعر حيالها بالحرج؛ وكان يراها أمّا ويراها أختا ويراها حبيبة وكان يراها كلّ شيء؛ وكانت بوران، بشكل ما، قد أفسدت عليه علاقته بالمرأة. في بخارى، كانت تمرّ به النّساء في الأسواق، وفي الأرباض، وفي كلّ مكان، ورغم أنّ كثيرات منهنّ كنّ متنقّبات، كان يعلم أنّ منهنّ من كانت تمرّ به، فتحدّ فيه بصرها، وتتأمّله بإمعان، وأنّ فيهنّ من كان يجد في عيونهنّ دعوة صريحة، ولكنّه كان يغضي، كان يطرد شياطين اللّذة من حوله، ويمضي في حال سبيله. يذكر حلقات العلم في بغداد وما كان يقوله شيوخه عن العالم الربّانيّ الحقّ؛ وكان يرى نفسه دائما من أولئك الّذين لو دعته آلاف النّساء من ذوات المال والجمال، فسيقول في ثقة: «إنّي أخاف اللّه تعالى ربّ العالمين!!» كانت تلك الأفكار تحاصره، تتعقبّه، وهو يملي حكاية شهريار، شهريار الّذي ضبطته الملكة أخيرا متلبّسا مع بعض جواريها على فراشهما؛ وكانت أن أخبرت عنه الحرس فجاؤوه واقتادوه إلى بئر السّباع... كانت تنظر إليه وهو يصرخ، وهو يستغيث. وكانت تريد أن تعذّبه . أن ترى خوفه في عينيه، وفي يديه، وفي كلّ جارحة من جوارحه الآثمة. ولكنّها لم تكن تضمر له شرّا، ستتركه يذهب، سوف لن تتركه يوما واحدا في المملكة، لأنّ من خان مرّة سيخون مرّات؛ ويكفيها منه أنّه ترك ببطنها بذرة ستكون مشيرا إليه ومحيلا. ستعلمّه - إن كان ولدا - أن لا يسرف، أن لا يسلس قياده لشهواته، وأنّه إذا قال قولا سيكون عند عهده وإلّه؛ أمّا إذا كانت بنتا فستعلّمها كيف تحفظ شرفها وتصون نفسها!!

آه، ثمّ آه، ثمّ آه!! ما باله قد استحال فيه كلّ شيء إلى عطالة، إلى خمدة لا برء منها؛ ما بال كلّ شيء فيه قد انقلب رأسا على عقب؛ وأنّ الحياة الّتي كانت تساوي عنده انطلاقا وبحثا قد غدت بلا طعم... كانت الحياة فيما مضى تعني كتابا بين يديه... أو مخطوطا جديدا سيحقّقه، أو صحيفة غريبة عن الزّمن القديم سيفكّ طلاسمها؛ وكانت الحياة شيئا كبيرا سيكون عليه أن يفهمه حقّ المعرفة؛ وسوف لن يدركه قدره إلاّ إذا عرف سرّها، وعرف أبعادها ومراميها، وعرف جهاتها الّتي سيدلّه عليها اصطرلابه، وتهديه إليها بوصلته، وهو البحّار الّذي لا يملّ من السّفر؛ ولا يكاد يستقرّ ببيت والده ببغداد حتّى يستدعيه هاجس السّفر من جديد... لقد كان يستهويه السّندباد، ولم يتوقّف يوما عن السّؤال. لقد كان سؤالا لجوجا، ينبت في الرّأس ويظلّ يتسامق بعنقه إلى أن يتجسّد أمامه كائنا من لحم ودم يروم افتراسه أو قتله؛ وكان ذلك السّندباء السّعيد هو السّبب: «هل كان السّندباد اسمه فعلا؛ أم أنّ التّسمية تحمل في طيّها حبّا بلا حدود للمعرفة؟!» وكان يتساءل لماذا هو بالذّات دونا عن جميع النّاس من كان عليه أن يكون سندبادا؛ وهو الّذي له ببغداد والد يجلّه كلّ الإجلال وامرأة هي دونا عن جميع نساء الكون تصلح أن تكون كلّ شيء دون أن يكون ذلك منفّرا أو متعارضا... آه، يا بوران، يا من أحسّ تجاهك أنّك بمقام أمّ، وأنّك بمقام زوجة، وأنّك بمقام أخت، وأنّك أميرة، وأنّك ملكة، وأنّك حديقة فينانة تحفل بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد... كان يبكي من الدّاخل، وكانت دموعه الغير المنظورة تلتبس بالدّم الّذي كان يتدفّق مباشرة من القلب إلى الدّماغ ومن الدّماغ إلى القلب؛ وكانت يداه حين تعتريه تلك الحالة (ولا يدري لماذا) تمتدّ لاإراديا إلى كتاب «الدّليل» وإلى كتاب «الميزان»، وكتاب «البدايات في أصل المرامات» وكتاب «النّهايات في غير المحدودات»؛ وكانت نفسه في كلّ مرّة تدعوه إلى أن يتصفّح ويقلّب، وأن يدقّق وأن يلتبس بتلك السّطور الّتي كانت

تأخذه إلى الهلام... إلى السّديم... والظّلمات الأولى حين لم يكن هناك نور، ولا شموس تضيء الكون، ولا قمر ولا نجوم، ولا حركة... وكان كلّ شيء مجرّد سديم يعضده سديم؛ وكانت الأرض والسّماء شيئا واحدا بلا محدّدات ولا جوازات. تساءل أكثر من مرّة... قال لنفسه، وأعاد مرّات ما يقول، كيف يأتي الشّيء فجأة من اللاّشيء؟ كيف تأتي الحياة من الموت؟ وهل الحياة هي الموت؟ وهل الموت إذا أراد كان حياة وكان موتا في نفس الوقت؟ والموت إذا قرّر أن يكون حياة فلحكمة ذلك؟ أم مجرّد استيهام من استيهامات الّذاكرة ونزوع إلى خلق العوارض والمحاميل ومداراة الجواهر ليكون على الإنسان فيما بعد أن يكتشفها ليعيد الفروع إلى الأصول؟ حين تعتريه تلك الأسئلة يحسّ أنّ رأسه تكاد تنفجر؛ وأنّه يريد أن يستحضر جنّة وشياطين، وأنّه يريد أن يذهب إلى كواكب أخرى، يتمنّى لو كان على سطح القمر، أو في المرّيخ، أو بين تجاويف الزّهرة... نعم «فينوس»؛ يتأنّى فجأة ويذكر أنّ فينوس هي إلهة كلّ شيء جميل، كان الرّومان يعظّمونها، وكذلك اليونان الّذين كانوا يسمّونها أفروديت... وكانت فينوس هي الحبّ... وكانت هي الجمال... وكانت هي الخصوبة... وكانت هي الشّهوة... وكانت هي الظّلمة الّتي لمّا عجز الإنسان عن السّيطرة عليها أو تفسيرها خرج إلى ظلّة بيته وأخذ إزميله ومطرقته الصّغيرة ثمّ أخذ يحفر في حذق وأناة، دون أن يكون لديه في البداية أيّة فكرة عمّا يمكنه أن ينحت، وكانت يده أكثر من عقله هي الّتي تتحرّك وتحفر التّقاطيع والعلامات الفارقة في ذلك الجسد النّافر... في ذلك الجمال الوحشيّ الّذي كان مرتبطا دائما بزيوس وأولمبه أو جوبتير وعالمه... آه، البدايات... الجذور... أصول الأشياء وهو المحدود في الزّمان والمكان، هو المشدود إلى فطرة القصور والمحدوديّة في عالم المرامات؛ لكم كان يشعر أنّه يريد أن يفكّ قيده، أن يرى ما لا يرى؛ ماذا تراه يكون خلف تلك الجسيمات الصّغيرة المنتثرة هنا وهناك. كان يعلم أنّ النّجوم مثلا هي أكبر... أكبر

بكثير ممّا تبدو عليه في الواقع؛ وأنّ القمر... والشّمس كذلك... وزحل؛ نعم زحل الّذي كان يراه، دونما سبب واضح، وراء كلّ هذا البلاء الّذي يعانيه... هذا النّحس الّذي يلازمه؛ ويراه شكسا إلى أبعد الحدود ويشدّ كلاّبتيه حول عنقه ولا يروم فكاكه... كيف هي الأشياء على الحقيقة يا ترى؟! وكيف يكون الإنسان في واقعه وآنيّة حاله وحقيقته متزامنا ومتلازما مع واقع كائنات أخرى لا يعرف عن حقيقتها شيئا، ويكون ذلك في الزّمان والمكان عينهما؟ ثمّ يتفكّر قليلا: هل هما المكان والزّمان، هما هما، عينهما؛ وأنّ تلك الأشياء الّتي يراها موجودة في التّوّ واللّحظة حقيقة لا مراء فيها، أم أنّ حقيقتها هي حقيقة أخرى وزمنها ومكانها آخران، يفصله عنهما منطق ولوغوس آخر؟!! لكن ما هي الحقيقة؟ ما هو اللّوغوس؟ وهل الحقيقة وهذا اللّوغوس حقيقتان؟! والحقيقة هي الحقيقة من أيّ زاوية نظر؟ من أيّ منطلق؟! وهل المنظور الإنسانيّ هو الوحيد أو المحدّد في مثل هذه المسائل أم أنّ هناك منظورات أخرى لحقائق أخرى؟! وأنّ الإنسان هو مجرّد نقطة في بحر المرامات؛ وفي عالم النّهايات لا يعدو أن يكون مجرّد أثير في سفر المجرّات!! ذكر فرياب، في آخر زيارة إليها، وطافت أفكاره بمسجدها الجامع، وتخيّل الفارابي الّذي غادرها منذ زمن بعيد إلى بلاط سيف الدّولة الحمدانيّ، وتخيّله جالسا في زاوية من زواياه، وتخيّل نفسه يحاوره، بجانب النّافذة الكبيرة الّتي كانت تفتح على عالم النّور في الخارج؛ وكان يلقي إليه بأسئلته، السّؤال بعد السّؤال؛ وقد كانت أغلب أسئلته الّتي يطرحها عليه إنكاريّة لا تستوجب أجوبة أو توضيحا؛ ولكنّ بعضها الاخر كان أشبه بالطّنين المؤرّق، كان أشبه بالذّبذبة الّتي ما تنفكّ تزعج وتقلق... كان يرى البسمة تعلو شفتي المعلّم الثّاني وهو يملّس ببطء على عثنونه ويشرد؛ وقد كان، هو طاجيك، عاجزا عن تفسير تلك الابتسامة، غير أنّه كان يعلم أن تلك الشّرودات الصّغيرة للمعلّم الكبير كانت تحمل همّا كهمّه، وأنّ الفلاسفة أنفسهم، مثله، تؤرّقهم

الحقائق وتشاكسهم البديهيّات الّتي كان العامّة يمرّون عليها ولا يلقون إليها بالا... حينما كان الفارابيّ يحاوره لم يكن همّه أن يفرض عليه رأيه، أن يجبره على اتّباعه، بل كان كمن يريد أن يصل إلى شيء محدّد معه، أن يبني وإيّاه منطلقا للفهم والتّفسير، أن يصلا معا إلى بناء نسق للحقائق، وأن يدركا ما وراء المنطق واللّوغوس؛ واختفى الفارابيّ فجأة وتركه لأسئلته، القلقه، ولساعات النّهار الطّويلة مع كتبه، وصحائفه، ومخطواطاته، يورد ثمّ يصدر، ويصدر ثمّ يورد؛ ولا مجال لحقيقة أخرى غير الحقيقة الإنسانيّة الّتي رغم أنّه لا يعرف عنها الشّيء الكثير إلاّ أنّها تظلّ هي الحقيقة المتوفّرة؛ أمّا حقيقة المذنّبات والمجرّات والكواكب والنّجوم، وحقيقة السّماء، وحقيقة الأرض، وحقيقة الباطن، فمازال يجهل عنها الشّيء الكثير... على أيّامه، كان النّاس قد اكتشفوا شيئا كالدّخان، كانوا يسمّونه التّمباك، وكانوا يرصّونه في آلات يسمّونها الأراكيل. لم يكن رأى ذلك في بغداد، أو البصرة، أو الكوفة، أو دمشق حين زارها قبل (...) هجريّة، ولكن رأى كلّ ذلك في دسكرة من دساكر ما وراء النّهر، ولم يكن ذلك في بخارى، في آخر زيارة له إليها، وكان يمرّ بالخانات الّتي كان يتّخذ في بعض جوانبها ما يشبه القهوة الصّغيرة كان يجتمع فيها بعض من أهل البلد أو الغرباء لشرب كؤوس السّحلب أو القرفة أو البابونج أو اليانسون، وقد رآهم يدخّنون ذلك الشّيء الّذي كان يجلبه صبيان المعلّم الّذي كان يقوم في آخر المكان على دكّة وطيئة ويدخّن تمباكه بصمت. كان يمرّ بالمكان ويتردّد، يتساءل بينه وبين نفسه، ترى ماذا يفعلون؟ وما هو ذلك الشّيء الّذي كان يرتفع في فضاء المكان فيغلّفه بطبقة شفيفة أشبه بالسّراب؟ وكان يمرّ في البداية مسرعا دون ان يسترعي المشهد انتباهه، ثمّ صار بعد ذلك كلّما مرّ أبطأ، يودّ لو يكون هناك معهم يجرّب معهم ذلك الشّيء، ثمّ انتهى به المطاف أن غدا واحدا منهم... أوّل ما يدخل يشير إلى الصبيّ، فيدرك الغلام طلبه دون أن يتكلّم، ويأتيه بصينيّة

الشّاي الثّقيل وبالأركيلة، ثمّ يسرح، يهيم مع أفكار الوجود، وفلسفة الخلق والبدايات، ويصير الدّخان ليس ذلك الدّخان الذّي يدخّنه ولكن مدخلا إلى عوالم الإستطيقا، ومجاهل الرّياضّيات وفراغات الثّقوب السّوداء، وفيزياء الظّلال، وفيزياء الكمّ، وملخّصات كشوفات الفيزياء... لقد كانت الأركيلة تمنحه فرصة للاكتشاف، للهروب وراء سيول أفكاره في محاولة ربّما للتّلبّس بالمستحيل ومعانقة المجهول السّماويّ...

في وقت ما، لا يدري موقعه من ساعات النّهار، أومأ إلى مسعود، لم يكن في حاجة إلى الكلام ليفهم عنه، خرج في صمت، واتّخذ مكانه على النّضد، كان يريد أن يهدّئ من جيشان أفكاره بالكتابة؛ أخذ القلم، وراح يكتب ويكتب، وكان الملك شهريارو شهرزاد ويرفغ، ما يزالون في مكانهم، وقد أنهى الملك حكايته مع الملكة وأهل المملكة الّذي كانوا مستعدّين لرميه في بئر السّباع...

أخذ القلم، دون أن ينظر إلى الرّقعة أمامه، واشرأبّ بعنقه إلى السّقف، وراح يتأمّل الشقوق الّتي كانت منتشرة في كلّ مكان، وتساءل بينه وبين نفسه، هل هناك من غير الإنسان من يشيخ؟ وهل الإنسان الوحيد الّذي يشعر بوطأة الزّمن عليه؟ وهل الأشياء والجمادات عطل من الأحاسيس والمشاعر؟ أم أنّ لها دورة تنضبط بها من الحسّيّات الغير المرئيّة، لا يدركها سواها؟ وإن بدت متماسكة شامخة، فإنّ فيها من الإشارات ما يحيل على موتها وإن ظلّت في مكانها لا تريم؟ هذا السّقف، كم عمره؟ من بناه؟ كم مرّ عليه من سني أهل الدّنيا؟ وهل أنّ التّاريخ الوحيد ما يكتبه الإنسان أم أنّ هناك في عالم الجمادات من يكتب أيضا بلسان غير اللّسان وعلى رقاع غير الرّقاع؟ وهو يكتب لكائنات غير منظورة؟ فيعرف متى كانت الأشياء؟ ومتى انتهت؟ ويعرف الزّمان الغير المرئيّ الّذي هو نقيض للزّمان الفيزيائي؟ ويعرف خارج عالم الإنسان عوالم لا يمكن أن يحيط بها اللّسان؟ وتطرّق إلى الحكاية

المنسيّة، حكاية شهرزاد الّتي ادّخرتها ولم تحدّث بها أحدا حتّى تطاول عليها الزّمان وانبعثت من جديد لتحكي، لتقول لمن يريد أن يسمع، ولمن لا يريد على حدّ سواء؛ فالحكايات متعلّقات ستبقى، ولا يضير بعد ذلك أن تعرف أو لا تعرف. سيقول قائل إنّ الحكايات لوثات تتلبّس بالفكر، وإنّها حالات تصيب الإنسان حين تطيف به هلوسات الجنون، وإنّها خارج تاريخ الإنسان وخارج التّاريخ البشريّ، وإنّها عقّار النّسيان، وهي سلوى يهرب بها كاتبها إلى تخوم قصوى حيث يتصوّر نفسه النّاجي الوحيد بعد مهلكة أتت على كلّ شيء. ويقول طاجيك لنفسه، وهو يصّعد الزّفرات، وينسى لحين أنّه يحمل قلما وأنّ أمامه رقعة يجب عليه أن يملأها بما تناهى إليه من حكاية شهرزاد: «طيّب لنفرض أنّ الحكايات أشياء غير معقولة، بمعنى أنّها أشياء غير تاريخيّة، ولا تمتّ بوشيجة قربى إلى الزّمان أو المكان، وهي لغو من اللّغو، فكيف توصّل إليها الإنسان إذن وسبكها على ذلك النِّسق العقلانيّ، وأحسن إخراجها في أحسن مظهر؟...» قال طاجيك: «اللّغو ليس له منطق، وهو الوحيد غير التّاريخي، بمعنى أنّه ليس فعلا في الواقع، وأنّه ليس إخراجا من عدم الأشياء إلى نور المحسوسات؛ فكيف انوجد إذن إذا لم يكن حقيقيّا؟» قال طاجيك: «ما دام الإنسان الّذي أوجد، وأنّ الإنسان هو الّذي قال، ومادام الإنسان واقع حال وهو حقيقة، فإنّ ما قاله أو سيقوله لا بدّ أن يكون من جنسه؛ بمعنى أنّه حقيقيّ!!» وقال: «لنضرب على ذلك مثلا، فنقول، إنّ هناك من الأشياء ما كان يعتبر خرافة وتجديفا، أو خترفة، وتوصّل الإنسان بعد ذلك إلى إثبات أنّ ذلك التّجديف أو الخترفة لم تكن سوى كمونا في حالة وجود بالقوّة لم يفعل ذلك الإنسان إلاّ أن أخرجها إلى حيّز الوجود بالفعل؛ فإذن ليس هناك خطّ فاصل بين ما هو عقل وما ليس بعقل، وبين وهم وخيال وبين حقيقة، وبين ما هو موجود فعلا وما هو غير موجود، مادام في النهاية سيوجد كلّ شيء، وما لم يوجد في عصره سيوجد في عصر غيره... إذن الحقيقة مطلقة وغير

مطلقة، والمنطق واحد وغير واحد، والإنسان كمون وفعل، والإنسان وهم وحقيقة، والوجود وجودات، والذّات ذوات؛ وحتّى في الإنسان الواحد، لا توجد هناك ذات واحدة، وقد يكون الإنسان منطويا على عشرات الذّوات الّتي تعبّر عنه في كلّ طور من أطوار حياته!!»

ينوء بالفكرة، ترهقه العبارة، يهمّ بالقيام ثمّ يجلس، ويهمّ ثمّ يجلس من جديد، كان إلى جانبه كأس القرفة، قرّبه من فمه، وتمنّى للمرّة الأولى في ذلك النّهار لو كان في القهوة. حنّ إلى رائحة التّمباك؛ وإلى تلك الجلبة المحبّبة في الداخل. وكان يقلّب في نفسه أمر ذلك الرّجل صاحب القهوة، الحاضر الغائب دوما. لم يره يوما يتكلّم؛ وهو إن اشرأبّ عنقه إلى حلقة الجلاّس وامتدّ بصره إلى الأمام، فلا ليرى من هو أمامه أو بإزائه، وإنّما يتطلّع (كان طاجيك يرى أنّ عينيه فيهما حسرة وشجى) إلى كائنات غير مرئيّة كان يحاورها أو ربّما يتعاطى معها في صمت. طاجيك ارتدّ إلى نفسه. قال، هل أنا أختلف عن ذلك الرّجل الّذي لم يكن يعرف حتّى اسمه؟ هل أنا سعيد بمقامي في بخارى، حتّى وإن كانت بخارى أجمل من كلّ ما رأيت من البلدان والدّساكر والقصبات؟! ودّ لو كان في القهوة، ودّ لو اقترب، لو لمّح، وأبدى رغبة في القرب، يقولون إنّ الأرواح تتقارب مثلما يتقارب قطبا المغناطيس؛ والرّجل يبدو أنّه من طينته، وأنّه غريب مثله، وإن بدا مقيما... ارتدّ إلى قلمه وأوراقه ورقاعه، وقد أضمر في نفسه أن يكون شجاعا في المرّة القادمة، وأن يقدم، إن لم يكن لأجل قربى رجل من رجل، فلأجل الفضول والبحث عن حكاية جديدة يملأ بها فراغ الأيّام. كانت بين الحين والحين، تتردّد في أذنه مقاطع حييّة من أغنية لم يكن قادرا على تبيّن كلماتها، ولكن ما كان يشدّه منها نغمها الحزين، نبرها الّذي كان يحمل في طيّاته حزنا وشجى؛ ويبدو أنّها لم تكن المرّة الأولى الّتي يسمع فيها الأغنية؛ فأين سمعها؟ ومن يكون غنّاها؟ ما هو متأكّد منه الآن أنّ ذاك الجمال وهو يغزو كلّ ذرّات بدنه ومسامّه كان وخزا يحمل في طيّاته وخزا أنثويّا؛ كان

شيئا مثل الأثير الّذي يرفّ فجأة كجناحي طائر ليحمله إلى عوالم لم ير مثلها في حياته، وهو الحيران، وهو المستهام، وهو الرّجل الّذي كان قلبه يتكلّم بكلّ لسان... قرّب القلم من رقعته، وتخيّل، أو رأى يرفغ يجلس على مبعدة من سيّده وسيّدته، وقد كان يحجم أن يبوح، بعد أن أبدى في البداية رغبة في الكلام: كانت نفسه تنازعه أن يتأبّى، أن يدلّ قليلا، قبل أن يقول كلّ ما لديه. لقد كان يظنّ أنّ الأمر أهون من أن يتحدّث فيه، ولكن سيماطل قليلا حتّى يعطي لنفسه وقتا يكون فيه مهمّا للمرّة الثّانية على التّوالي في حياته: المرّة الأولى حين طلع على شهرزاد من خاتمه، وقال لها بكلّ فخر واعتزاز: «شبّيك لبّيك، عبدك يرفغ بين يديك! اطلبي وتمنّي.» والمرّة الثّانية، في مقامه ذاك، بين السّيّد والسّيّدة، وهو يستعدّ في البداية ليخبرهما كيف استولى السّودان على بغداد، ثمّ ليحملهما بعد ذلك في رحلة لاسترجاع أمجاد أجدادهما، وصلب السّودان على الخوازيق، وجذوع النّخل، وعرضهم للرّائح والغادي في شوارع دار السّلام... في لحظة ما، كان طاجيك متحيّرا في أمره: هل يصرّح؟ هل يقول كلّ شيء؟ هل يكشف نفسه بالكلّيّة أمام من سيقدّر له أن يقرأ الحكاية المنسيّة؟ أم يكتفي بالتّلميح؟ أن يقتضب قدر المستطاع؟ ولا يدري لماذا طرأت عليه في لحظته تلك مملكة العروض، وذكر أنّ في بحوره بحرا باسم المقتضب، وقد قال فيه صفيّ الدّين الحلّي: «اقتضب إذا سألوا**مفعلات مفتعل» آثر أن يسترسل، أن يقول كلّ شيء، فهو قد أزمع من البداية أن تكون حكايته حكاية فعلا، وليس مجرّد جمل منزوعة من حشاشة نفسه: «كانت شهرزاد تنظر إلى شهريار، ورغم إحساسها بالغيرة الّتي لم ترد لها أن تعبّر عن نفسها في ملامح وجهها، فقد هنّأته بالسّلامة؛ وكان شهريار يقلّب طرفه بينها وبين يرفغ، وبين كائنات غير منظورة كان الوحيد الّذي يراها؛ وكان بعيدا... بعيدا جدّا بخياله وبكلّ جوارحه... قالت شهرزاد مخاطبة يرفغ، بصوت يعلو حينا ويخفت أحيانا أخرى، ربّما لجلب انتباه الملك:

«هيه، يا يرفغ، هات ما عندك!» نظر يرفغ إليها ثمّ إلى الملك، وقال: «اعلمي، أيّتها الملكة السّعيدة، أنّه بلغني أنّ ابن زبيبة قد أخذ المدينة بحدّ السّيف، وأنّه قتل الرّجال، وسبى النّساء ووضع الأطفال في براميل من الصّفيح وألقاهم في عرض البحر ليقضوا غرقا...» وصمت برهة، وكان يتلاعب بعثنونه الصّغير، وكانت ترفّ على شفتيه ابتسامة صغيرة كان من الصّعب تفسيرها، ثمّ واصل قائلا: «ولو كنت هناك، لمنعت على الأقلّ أن يموت الولدان بتلك الطّريقة الفظيعة... إنّه عبد، يا سيّدتي، وإنّه ابن زبيبة، وإنّه لا عهد له ولا ميثاق، ولو كان الأمر لي لجرّعته غصص الموت ولم أسقه التّرياق؛ وقد بلغني أيّتها السّعيدة أنّ شاعرا مفلقا من شعراء الزّمان كان بمصر...» وانتظر قليلا، ليس لأنّه شعر بقيمته في تلك اللّحظة، وأنّه أراد لشهرزاد أن تدرك قيمته، ولكنّه كان يدير في ذهنه اسم ذلك الشّاعر المفلق الّذي سمع عنه ولم يره؛ ورفّ أخيرا اسمه على ذهنه، فارتسمت على شفتيه ابتسامة الظّفر، وقال: «لمّا أراد المتنبّي السّفر عن مصر، ومنعه كافور بعد أن كان وعده بتوليته أحد الأمصار التّابعة إليه ثمّ عاد عن ذلك، تمكّن أحمد بن الحسين الجعفيّ، وكان ذلك اسمه، من الهرب بعد ذلك، وقد هجاه بقصيدة لم ير تاريخ الأدب العربيّ أقذع منها ففيها يقول:

عيدٌ بِأيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عِيـــــد
بِما مَضَى أم لأَمْرٍ فِيكَ تجدِيـدُ
أَما الأَحِبةُ فالبَيَداءُ دُونَهُـــــمُ
فَلَيتَ دُونَكَ بَيْدًا دونَها بِيـــدُ
لَولا العُلَى لم تجِبْ بِي ما أَجُوبُ بِها
وَجناءُ حَرْفٌ وَلا جَرْداءُ قَيـدُودُ
وَكانَ أطْيَبَ مِنْ سيفِي مَعانَقَــة
أَشْباهُ رَونَقه الغِيدُ الأَمالِيـدُ

لم يَتْرُكِ الدَهْرُ مِنْ قَلبي وَلا كَبِـدي
شَيْئاً تُتَيِّمهُ عَيْنٌ وَلا جِيـــــــد
يا ساقِيَيَّ أَخَمرٌ في كُؤوسِكمــــا
أم في كُؤُوسِكُما هَمٌّ وتَسْهِيــــدُ
أَصَخْرَةٌ أَنا ما لي لا تُحرِّكُنـــــي
هذي المُدامُ وَلا هذي الأَغارَيــدُ
إذا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صافِيَـــةً
وَجَدْتُها وحَبِيبُ النَفْسِ مَفقُـودُ
ماذا لَقِيْتُ مِنَ الدُنْيا وأَعْجَبُــــه
أنّي بِما أَنا شاكٍ مِنْهُ مَحسُـــود
أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثرٍ خازِنًا ويَـــدًا
أَنا الغَنِيُّ وأَموالِي المَواعِيـــدُ
إِنّي نَزلتُ بِكَذّابِينَ ضَيفُهُـــــم
عَنِ القِرَى وعَنِ التّرحالِ مَحدُودُ
جُودُ الرّجالِ منَ الأَيْدِي وَجُودُهُـمُ
منَ اللّسانِ فَلا كَانُوا وَلا الجـوُدُ
ما يَقبِضُ المَوتُ نَفسًا مِن نفوسِهِمُ
إِلاّ وفي يدِهِ مِن نَتْنِها عُــــود
أَكُلّما اغْتَالَ عَبدُ السُوءِ سيــدَهُ
وخانَه فَلَهُ في مصرَ تَمهيـــــد
صار الخَصِيّ إمامَ الآبِقين بِهـــا
فالحُرّ مستعبَد والعَبدُ مَعبُــودُ
نامَت نواطِيرُ مِصرٍ عَن ثَعالِبِهـــا
فقد بَشِمْنَ وما تَفْنى العناقيــدُ
العَبد ليسَ لِحُرٍّ صالحٍ بــــأخٍ
لَو أنَّهُ في ثيابِ الحرِّ مولـــود

لا تشتَرِ العَبد إلا والعَصَا معـــه
إِن العَبِيدَ لأنجاسٌ مَناكيــــــد
ما كُنتُ أَحسَبُني أَحيا إلى زَمَـــنٍ
يُسيء بي فيهِ عَبد وَهْوَ مَحمـــودُ
وَلا تَوهّمتُ أَنّ النّاس قَدْ فُقِــدُوا
وأَنّ مِثْلَ أَبي البيضاءِ مَوجـــودُ
وأَنَّ ذَا الأَسْوَدَ المَثْقوبَ مشْفَـــرُهُ
تطِيعُهُ ذي العَضارِيطُ الرّعادِيـد
جَوعانُ يأكلُ مِن زادي ويُمِسكُنــي
لِكَي يُقالَ عَظِيمُ القدرِ مَقصُــودُ
وَيلُمُّها خُطَّةً وَيلُمّ قابلِهـــــا
لِمِثْلِها خُلِقَ المهريَّةُ القُـــودُ
وعِندَها لَذَّ طَعْم الموتِ شارِبُـــهُ
إِن المَنِيَّةَ عِنْدَ الذُلّ قِنديـــــدُ
مَن علَّم الأسودَ المَخْصِيَّ مكرُمـــة
أَقَومُهُ البِيضُ أَمْ آباؤهُ الصّيـــدُ
أم أُذْنُه في يدِ النّخَّاسِ دامِيـــةً
أَم قَدْرهُ وَهوَ بِالفِلسَيْنِ مَـــردُودُ
أولَى اللّئام كُوَيفيرٌ بِمَعــــــذِرَة
في كُلِّ لُؤْم وبَعض العُذْرِ تَفنِيدُ.»

كانت شهرزاد تضحك في نفسها، وتتعجّب من هذه المصادفات الّتي وضعتها في طريق هذا الجنّيّ الغريب؛ وكانت تقول: «جنّيّ يغنّي ويقول «يا لا لنّي.» ويروي عن الشّعراء، وهو الّذي ربّما كان في قمقم لعشرات الآلاف من السّنوات دون أن يختلط بأحد أو يختلط به أحد؛ ومع ذلك فقد كانت حريصة أن تتابعه إلى النّهاية. فهو أملها الوحيد

في أن يسترجع شهريار مملكته؛ فقالت تمازحه: «وتروي أيضا عن الشّعراء، يا يرفغ؟ إنّي ما سمعت في الزّمان عن جنّيّ يغنّي، ويروي عن الشّعراء، ويتأدّب بآداب الأدباء؛ ولكن سأهنّئك على كلّ حال، وأهنّئ نفسي لأنّ الله تعالى وضعك في طريقي ولم يضعك في طريق أحد آخر من النّاس؛ وأنا الآن أحوج إليك من أيّ وقت مضى...» وسكتت، ولكن ليس عن الكلام المباح في هذه المرّة، لأنّه لم يكن في المكان الّذي هم فيه أيّ ديك ليصيح رغم أنّ الوقت أشرف على الفجر أو كاد؛ ثمّ تأمّلت المكان من حولها، وكان السّكون مخيّما، وكانت النّجوم تترامق كأنّها تتغامز، وكانت السّماء دانية، والقطوف جانية، وكانت كلّ الكائنات تسبّح باسم الرّحمان الذّي علّم القراءان، وخلق الإنسان، علّمه البيان. ومن حين لآخر تسترق النّظر إلى شهريار، الّذي كان قد غادر الدّيار، ديار الملكة، الّتي ربأت به عن الموت، ولكنّها آثرت طرده، ربّما لتنتظر قدوم رجل آخر أكثر وفاء لينكحها، ويولدها بنات وبنين... وكان يرفغ ينظر إلى كليهما، وعندما خيّم الصّمت، قال ليكسره: «سيّدتي، علينا أن ننطلق الآن، ونفاجئ ذلك العبد اللّعين ابن زبيبة قبل الفجر، وأن نورده موارد الهلاك، ونستعيد بغداد، ونطلق سراح العباد.» وبسط يديه، فصعد عليهما الملك والملكة، وانطلق بهما يرفغ في أجواز الفضاء، يخوّض خلل سحب شهباء، وبيضاء، وسوداء، ووصل بهما إلى بغداد، قبل الفجر، وكان يعمل نيرانه وحرائقه، وحرابه، وسيوفه الكثيرة في رقاب كلّ من اعترض سبيله، حتّى انتهى إلى مخبأ الزّنيم ابن الزّنيمة، وكان يريد فتاة جميلة من الصّقالبة على نفسها، وكانت تصرخ من علياء خوفها، وهو يحاصرها، ويضيّق عليها تضييق السّوار على المعصم؛ فعاجله يرفغ بضربة من يده فأرداه أرضا، ثمّ ثنّى عليه بضربة من سيفه، فأرداه قتيلا، فخلّص الجارية وكلّ بغداد من شرّه؛ وفي الصّباح كانت كلّ المدينة تنثر الرياحين والزّهور والنّسرين والآس على الملك والملكة ويرفغ، وكان النّاس يقولون بصوت واحد بعد أن

زيّنوا الشّوارع والميادين بأعلام الزّينة من مختلف الألوان والأحجام: «يعيش الملك... تعيش الملكة... عاش السّلطان... عاشت السّلطانة.» وقال طاجيك: «لقد عادت المياه إلى مجاريها؛ واختفت فجأة شهرزاد، لأنّه لم يعد هناك بعد ما يقال لأنّ الحكاية الثّانية بعد الألف وواحد من ألف ليلة وليلتين قد انتهت، دون أن يؤذّن لها ديك فصيح، وأتمّها العبد الفقير إلى ربّه طاجيك بن لامار القفقاسي، في خان من خانات بخارى، في الخامس والعشرين من شهر رجب، رجب اللّه تعالى، في السّنة (...) للهجرة الشّريفة على صاحبها المطهّر أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم.» انتهت الحكاية، ويبدأ. إن شاء الله تعالى. الفصل الموسوم بـ «التّكوين».

٢- التّكويـن

حيران، أيّها الرّجل؛ الصّمت والوقت، وذكريات الأمس الرّاحل، وكلّ شيء يهدأ من حولك، تختفي فجأة كلّ المعالم، ما كان مؤسّسا للمكان، وما كان يتشكّل مع الوقت، كلّ ذلك يمضي كخاطرة، وكأنّ الكون بطمّ طميمه يعود إلى حالته الأولى، حالة الفراغ والخواء؛ انظر، يا ولدي، ماذا ترى من حولك؟ وقلّب الطّرف مرارا. هل أنت نفس الرّجل؛ ونفس الأشياء من حولك هي نفس الأشياء؟ أم أنّ ألسنة اللّهب الغير المرئيّة قد أخذت القصور والعصور، بعد أن أخذت الوجوه والملامح، ولم تترك غير ذاكرة النّسيان الحزينة؟! في أوّل السّفر كان يقرأ، ومن قبل السّفر سمع من ثقات من أهل الكتاب، لم يكونوا، هؤلاء، مثل أولئك الّذين حرّفوا وزيّفوا، وأوردوا وأصدروا، حتّى يثبتوا للهيكل وجودا، وللحائط عمودا، ولكن كان هؤلاء جوّابة بالنّهار، بحّاثة باللّيل، لا يغفل لهم جفن، حتّى يروا بأعينهم قيامة من قام، وانبعاث من سيبعث في قادم الزّمان... كان السّفر أمامه مفتوحا، وكانت الأسطر تقرأ نفسها بنفسها، وكان يكفيه أن يمرّر عينيه حتّى ينطبع كلّ شيء بذهنه، ويرى بعيني ذاكرته ميلاد الأشياء من السّديم، وتشكّل الأعضاء حتّى من قبل أن تكون رميما: «[١]فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. [٢]وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. [٣]وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. [٤]وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. [٥]وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا. [٦]وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ». [٧]فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ

الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ. [8] وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.» كان يريد، عند هذا الحدّ أن يعلّق، أن يقول شيئا ليكون قولا على القول، وما أصعب ذلك: كان التّوحيدي – رحمه اللّه تعالى – يقول: «إنّ القول على القول صعب.» وهو يريد أن يقول، ولكن ليس أيّ قول، ولكنّه قول على قول سماويّ، القول في البدايات، ومنشأ الكون من عدم، لذلك قرّب قلمه من الحاشية، في الجهة العليا من الجانب الأيمن، وراح يكتب: «والبدء لا يعلمه إلّا الله، وهو بدء لا يمكن أن يحيط به عقل الإنسان ولو حاول؛ لأنّه، أي الإنسان، محدود في معمعة المكان والزّمان؛ ولأنّه واحد ممّن خلق الله تعالى وأبدع؛ فلذلك لم يكن من الممكن لمن هو محدود في الزّمانين والمكانين أن يصل فهمه إلى ما هو مطلق وسرمد. ثمّ كان القول في الخراب، والخلوّ، واللاّشيئيّة، والعدم، ما خلا وجود الله تعالى القادر؛ وهو إن بدا هناك تمييز في البداية بين السّماء والأرض، إلاّ أنّه لم يكن هناك بادئ ذي بدء لا سماء ولا أرض، ولكن كان. والله تعالى أعلم . سديم؛ والأرض من الخراب، وإلى الخراب، وهي ظلمة، بمعنى أنّ ماهيتها لم تكن سوى تلك الظّلمة، فالظّلمة ليست وصفا، وإنّما هي تعريف شديد اللّصوق بالأرض؛ وما كان يمكن أن يقال ويقال في الأرض يمكن أن يقال أيضا في السّموات، وإن أستعيض على ذكرها بالأرض فقط... ثمّ قال الله تعالى، حسب ما ذكر في السّفر، لأنّه من غير المقطوع به أن يكون الله قد قال ذلك فعلا، لما طرأ على السّفر من التّحريف والتّبديل: «ليكن نور.» لسائل أن يسأل: «فلماذا النّور؟ وهل كان الله تعالى فعلا في حاجة إلى النّور وهو النّور الذّي تنجلي به الظّلمات؟» قال الشّرّاح والمفسّرون، والأحبار، وبعض ممّن اشتغل على أسفار التّوراة: «إنّ الله لم يكن في حاجة إلى النّور لنفسه؛ لأنّه كان غنيّا عن كلّ شيء بنفسه، وكان مكتفيا بذاته عمّن سواه؛ وإنّما كان في علمه السّابق ظهور الإنسان الّذي لم يكن قد خلق بعد وكان سبحانه

وتعالى يهيّئه لعمارة الكون: فالأرض أرض الله، والله سيجعلها لخليفته في الأرض؛ والسّموات سماوات الله، وإن لم يكن في حاجة إلى خلقها، لو لم يكن في علمه السّابق أن سيكون هناك إنسان، ويكون هناك حيوان، ويكون هناك نبات، ويكون هناك تسخير، ويكون هناك موت وحياة وبعث، فسبحان الّذي قدّر فأحسن التّقدير، وسبحان الّذي أعطى فأجزل، وتفضّل ومنح، وصوّر فأبدع، هو الله الواحد القهّار، فتبارك الله أحسن الخالقين.» ثمّ يقول، وهكذا قرأ، بعد ذلك: «[٩]وَقَالَ اللهُ: «لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ». وَكَانَ كَذلِكَ. [١٠]وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. [١١]وَقَالَ اللهُ: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. [١٢]فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. [١٣]وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا.

[١٤]وَقَالَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. [١٥]وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. [١٦]فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. [١٧]وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ، [١٨]وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. [١٩]وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا.» استرعت انتباهه، عند هذا الحدّ، عبارة «ورأى الله ذلك أنّه حسن.» لم تكن لتفوته الإشارة في ذلك، وإن لم تكن من غير تصريح، فقد رأى فيها شيئا يتنافى مع كلّية العلم لله تعالى، وأنّ الله كان يخلق ما لم يكن في سابق علمه، وإنّما كان . وتعالى الله على ذلك . يرتجل، وبمحض الصّدفة كان ما يخلقه جميلا... ثمّ توقّف قليلا عن الكتابة، ونازعته نفسه إلى شيء من التّمباك في زاوية من زوايا تلك القهوة؛ كما

نازعته نفسه إلى كوب كبير من القرفة في ذلك اليوم الّذي كان يبدو أنّه سيكون ماطرا... وقف ببطء، مستندا بيده على النّضد، ومشى بضع خطوات إلى النّافذة ونظر من خلالها إلى السّماء. كانت السّماء تختفي وراء جزز السّحاب الكبيرة، وكان لا يبدو من كلّ بخارى سوى معالم مطموسة لا تفصح؛ ومن عجب أنّه لم ير من السّابلة أحدا، كأنّ الأمر قد صدر بإغلاق المنافذ في ذلك اليوم... لم يتوقّف كثيرا عند تلك الأفكار، وكان يبدو أنّه يعيش في عالم مفرد، منفصلا بنفسه عن كلّ شيء... نعم عن كلّ شيء؛ وبقدر ما كانت نفسه تنازعه إلى كتابة ما تخفّ به الوطأة، ويبعث على الفكاهة والطّمأنينة كحكايات شهرزاد، أو السّيرة الهلاليّة، أو رأس الغول وحكايته مع سيّدنا عليّ، إلاّ أنّه يجد نفسه يغرق في الأصول، في البدايات؛ تتعاوره الأسئلة، ولا يملك لها ردّا، وقد كانت أسفار التّوراة أمامه، وكان ما كتبه المؤرّخون العرب من كتب وصحائف تختبئ في مخلاتيه في ركن من أركان الغرفة، وقد حمل معه قبل الخروج من بغداد، تاريخ الطّبريّ، وتاريخ ابن الصّيرفيّ، وتاريخ قائممقام شاه، وتاريخ ابن الشّاهنشاه، وتاريخ رجل لم يذكر اسمه، لأنّ الورقة الأولى، أو الغلاف الّذي كان مفروضا فيه أن يحمل كلّ ما يدلّ على كاتبه وعنوان الكتاب قد أتلف... ولكنّه كان يضمر في نفسه أن يكتفي في البداية بكتابة الحواشي على الأسفار، أن يكتب شيئا يسيرا قد يكون مفتتحا لكتابة تاريخه هو، وسيكون تاريخه شيئا لم تعرف الإنسانيّة مثله من قبل، سيكون شيئا بين ما هو جماعيّ إنسانيّ، وشخصيّ فرديّ... عاد إلى مكانه وأخذ القلم مرّة أخرى، وراح يكتب، وهو يكدّ ذهنه ليقرأ ما وراء تلك السّطور الّتي كانت مكتوبة في نفور: «في الظّاهر تناقض، وقد يكون في الباطن كذلك؛ فما كنّا قلناه عن احتمال ما أشار إليه كاتبو التّوراة من أن يكون الله. تعالى عن ذلك علوّا كبيرا. يرتجل إنّما لا يتّفق مع ما ورد بعد ذلك؛ فكون الله تعالى قد فصل الماء عن اليابسة، وأنشأ زرعا وضرعا، يشير، بما لا يدع مجالا

للشكّ، أنّ الله كان يعلم علم اليقين، شكل هذا الكون الّذي كان مزمعا خلقه؛ فاليابسة ضروريّة حتّى يجد الإنسان موطئ قدم يبني فيه بيته الّذي سيحتمي به من العاصفة والزّمهرير، ومن حوادث الطّبيعة المفاجئة؛ وكذلك المحيطات والبحار، والأنهار أيضا، فلولا الماء لما قامت حياة، ولما كان هناك إنسان على وجه الأرض؛ ثمّ كان الله يعلم أنّ الإنسان لا بدّ له من قوت حتّى يحافظ على وجوده في بادئ أمره، ثمّ مواصلة نسله بعد ذلك . فكان هناك ثمر وبقل... وإنّما ذكر البقل والشّجر في عمومه ليحيل على حقيقة أنّ الله خلق شجرا كثيرا وبقلا كثيرا؛ ولم يفته، وهو العالم بكلّ شيء، أن يجعل في كلّ ذلك بذورا؛ لأنّ الإنسان المناط به عمارة الكون ما كان لتكفيه أكلة واحدة من كلّ بقلة أو ثمرة، وإنّما، حتّى تتواصل مسيرته في الحياة، كان لا بدّ له أن تكون له بقلتان وشجرتان، وأن تكون له ثلاث بقلات وثلاث شجرات، وأربع بقلات وأربع شجرات وهكذا؛ فكانت البذور ضروريّة لتزوّد الإنسان بما يكفيه لمعاشه...» أراد أن يطابق، بين ما هو موجود في التّوراة، وما كتبه المؤرّخون العرب، رغم أنّه كان يعلم أنّه سوف لن يكون هناك فرق كبير، فالمصادر تقريبا واحدة، وقد أضافت إليها الإسرائيليّات الشّيء الكثير؛ وكان يعلم أنّ من أحبار يهود من أسلم، وكان يروي عن الأسفار القديمة وكان المسلمون يأخذون منهم دون تحرّج؛ فقد كان هناك الصّحابيّ عبد الله بن سلام، وكان هناك التّابعيّ كعب الأحبار، وكان هناك أيضا وهب بن منبّه... امتدّت يده إلى إحدى المخلاتين، وأخرج «تاريخ الأمم والملوك»، وراح يقلّب أوراقه الأولى، وعيناه، في أثناء ذلك، لا تنيان عن قراءة السّطور واستكناه ما وراءها، كانت شفتاه تتحرّكان، وكان يزمع أن يكتب على حواشي الأسفار ما سيظفر به من مواطن الاختلاف أو مواطن المشابهة: « (القول في الزّمان ما هو) قال أبو جعفر فالزّمان هو ساعات اللّيل والنّهار وقد يقال ذلك للطّويل من المدّة والقصير منها والعرب تقول أتيتك زمان الحجّاج أمير وزمن

الحجّاج أمير تعني به إذ الحجّاج أمير وتقول أتيتك زمان الصّرام وزمن الصّرام تعني به وقت الصّرام ويقولون أيضا أتيتك أزمان الحجّاج أمير فيجمعون الزّمان يريدون بذلك أن يجعلوا كلّ وقت من أوقات إمارته زمانا من الأزمنة كما قال الرّاجز ... جاء الشّتاء وقميصي أخلاق ... شراذم يضحك منه التّواق ...

فجعل القميص أخلاقا يريد بذلك وصف كل قطعة منه بالإخلاق كما يقولون أرض سباسب ونحو ذلك ومن قولهم للزّمان زمن قول أعشى بني قيس بن ثعلبة

... وكنت امرأ زمنا بالعراق ... عفيف المناخ طويل التّغن ...

يريد بقوله زمنا زمانا فالزّمان اسم لما ذكرت من ساعات اللّيل والنّهار على ما قد بينت ووصفت...» هنا يتوقّف طاجيك قليلا، ويتفكّر في أمره، ويضرب أخماسا بأسداس، ويقول: «ما كان العرب ليغفلوا عن أهميّة الزّمان، الّذي أجملوه في اللّيل والنّهار، لأنّ من مجموع اللّيل والنّهار يتراكم الزّمان ليعطي لنا السّنوات والشّهور والأيّام والقرون؛ وبالزّمان أيضا يتحدّد عمر الإنسان؛ والإنسان يشيخ مع الزّمان، ويكبر مع الزّمان، وقد لا يتطاول به زمانه، فيموت وهو ما يزال صغيرا، أو قد يموت وهو ما يزال في الرّحم؛ وإذا كان المسلمون قد اهتدوا إلى قيمة الزّمان، فلأنّ الله تعالى شأنه هو الّذي ذكر ذلك في القرءان، وكون التّوراة قد بدأت بالخلق معزولا عن الزّمان فقد يكون مردّ ذلك، والله تعالى أعلم، أنّ مصادر التّوراة، ليست كالقرءان، موحّدة، وأنّ التّوراة لم تكن ربانيّة المنبع كالقرءان، وإنّما من كتب التّوراة هم الأحبار وعلماء الكنّيسات الكثيرة المنتشرة في الأصقاع، والّتي كانت تختلف في ميولها ومشاربها باختلاف المشرفين عليها؛ وقد يكون كذلك، والله أعلم، أنّ التّوراة كانت في الأصل حكاية عن الأعمال والأشخاص، ولم يكن القصد من ذلك إثبات تلك الأعمال بتاريخ وقوعها؛ فقد اكتفى اليهود بما هو متعلّق باللاّهوت، وما يقع في مجال الفلسفة، بينما كان

من المسلمين من اشتغل بالمعرفة في كلّ فرع فرعا فرعا وفي كلّ مجال مجالا مجالا. فكان منهم الفقهاء الّذين يشتغلون بالحلال والحرام، والأصوليّون الّذين ينظرون في الأدلّة الشّرعيّة من حيث موافقتها للأحكام والتّكاليف. وكان منهم المحدّثون الّذين كانوا يعنون بسيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وكان منهم المؤرّخون الّذين كانوا لا يدعون شاردة ولا واردة إلاّ أثبتوها في الزّمان بأعيانها وتواريخها. أي باليوم والشّهروالسّنة. فكنّا نرى كلّ الكتب في التّاريخ الوسيط تبتدئ بعبارات: «وفي سنة كذا حدث كذا...» ثمّ يؤشّر طاجيك بعد ذلك بإصبعه على الأسطر الموالية. وتتحرّك شفتاه لاإرديّا. كأنّه يريد أن يثبت في ذاكرته. بقيّة الحديث عن الزّمان:(القول في كم قدر جميع الزّمان من ابتدائه إلى انتهائه وأوّله إلى آخره)

اختلف السّلف قبلنا من أهل العلم في ذلك فقال بعضهم قدر جميع ذلك سبعة آلاف سنة.

(ذكر من قال ذلك)

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا يحيى بن واضح قال حدّثنا يحيى بن يعقوب عن حمّاد عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال الدّنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة فقد مضى ستّة آلاف سنة ومائتا سنة وليأتينّ عليها مئون من سنين ليس عليها موحّد وقال آخرون قدر جميع ذلك ستّة آلاف سنة ذكر من قال ذلك:

حدّثنا أبو هشام قال حدّثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن الأعمش عن أبي صالح قال قال كعب الدّنيا ستّة آلاف سنة.

حدّثنا محمّد بن سهل بن عسكر قال حدّثنا إسماعيل بن عبدالكريم قال حدّثني عبدالصّمد بن معقل أنّه سمع وهبا يقول قد خلا من الدّنيا خمسة آلاف سنة وستّمائة سنة وإنّي لأعرف كلّ زمان منها ما كان فيه من الملوك والأنبياء قلت لوهب بن منبّه كم الدّنيا

قال ستّة آلاف سنة قال أبو جعفر والصّواب من القول في ذلك ما دلّ على صحّته الخبر الوارد عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم وذلك ما حدّثنا به محمّد بن بشّار وعليّ بن سهل قالا حدّثنا مؤمّل قال حدّثنا سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشّمس.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة قال حدّثني محمّد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال سمعت النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم يقول ألا إنّما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشّمس.

حدّثنا الحسن بن عرفة قال حدّثني عمّار بن محمّد ابن أخت سفيان الثّوريّ أبو اليقظان عن ليث بن أبي سليم عن مغيرة بن حكيم عن عبدالله بن عمر قال قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم ما بقي لأمّتي من الدّنيا إلا كمقدار الشّمس إذا صلّيت العصر...»هنا، في هذا الموضع، إشارات إلى البدايات والنّهايات، وكلّها محصورة في حيّز الزّمان، فالبداية مبتدأ ومفتتحها الزّمان، والنّهاية خاتمة سيحدّدها الزّمان؛ وربّما كان المسلمون مهتمّين بكم كان من السّنين من لدن أن خلق الكون إلى نهايته متأثّرين في ذلك آثار من سبقهم، وسيّما اليهود؛ وطاجيك، إن لم يكن يجد لذلك من سبب واضح فيما يتعلّق باليهود، الّذين منهم الفريسيّون ومنهم الصّدوقيّون، ومنهم جمّ كثير لا يؤمنون بالبعث، فتكون بالنّسبة إليهم بداية الزّمان كنهايته لا تعني شيئا خارج حدود المناقشة، ففي حال المسلمين، تعني النّهاية الشّيء الكثير، لأنّهم يؤمنون بما لا يدع مجالا للشّكّ أنّ هناك دنيا، هي مزرعة الاخرة، وأنّ هناك الآخرة الّتي سيكون فيها حساب وعقاب؛ وبذلك يكون في معرفة نهاية الزّمان حثّ الإنسان على اغتنام فعل الخيرات وترك المنكرات حتّى يكون قد حقّق الغاية من وجوده على الأرض واستخلافه... ويرجع

طاجيك إلى التّكوين، إلى الأصول، وقد تطاول به الوقت، وهو يقرأ، ولم يشعر إلاّ ومسعود يدخل عليه بطبق الطّعام وقد ظهرت فوقه صحفة الشّوربة ونصف قرص من خبز الشّعير، وكان هناك بعض اللّحم المقدّد، من العام الفائت، لندرة اللّحم في ذلك العام، لما كان ألمّ بماشية البلد من داء حار البياطرة في تشخيصه، فماتت لذلك آلاف من رؤوس الأغنام والأبقار والمعزى... كان طاجيك يريد أن يتبلّغ ببعض الطّعام، وكانت نفسه تنازعه إلى مواصلة القراءة؛ ثمّ قرّ قراره أن يستبقي مسعود لبعض الوقت، وأن يتناولا الطّعام سويّا، وأن يستغلّ تلك الفرصة لمحادثته. قال لمسعود:

-اجلس، يا ولدي، وتناول معي الطّعام حتّى يكون خبزا وملحا.

أراد مسعود أن يعتذر، لما كان ينتظره من عمل كثير في الخان، ولأنّ طاجيك لم تعد له حاجة به بعد أن أنهى حكاية شهرزاد؛ ثمّ تطلّع إلى وجه الرّجل فلمس في وجهه حزنا، وربّما رأى آثار الوحدة بادية في هيئته المهلهلة وعينيه المتعبتين، فرضي أن يجلس معه لبعض الوقت. جلسا سويّا حول النّضد وراحا يأكلان في صمت. قال طاجيك، من باب فتح الحديث:

- يبدو لي أنّك لست من هذا البلد أنت الآخر؟ يبدو أنّك غريب مثلي!

كان مسعود على وشك أن يرسل لقمة إلى فمه، فتجمّدت يده في منتصف المسافة وكأنّه ذكر تاريخا قديما يريد أن ينساه. لمح طاجيك بدايات دموع بدأت تترقرق في عينيه، فأغضى قليلا، واكتفى بتحريك الشّوربة في الصّحفة دون أن تكون له الرّغبة في الأكل.

قال مسعود، بعد لأي:

-أنا، يا سيّدي، من سجستان...

ثمّ توقّف قليلا، وقد زايله تأثّره فرام إرسال اللّقمة أخيرا إلى فمه، ثمّ واصل:

. وقد صحبت عائلتي سنة كذا، وكان والدي تاجرا، وكانت أمّي

مريضة، ولم يكن لي إخوة أو أخوات؛ وكان عمري آنذاك خمس سنين؛ وماتت والدتي، ولم يزل والدي معي حتّى مات هو الآخر، وبقيت وحيدا...

قال طاجيك، وقد بدا عليه الحزن والتّأثّر:

-وكم كان عمرك حين توفيّ أبوك؟

-كان عمري سبع سنين.

سأل طاجيك مرّة أخرى:

-وكيف تدبّرت أمرك، بعد ذلك.

ردّ مسعود بكلّ هدوء وهو يلوك قطعة الخبز في فمه:

-لقد قيّض الله لي سيّدي بهرام صاحب الخان الّذي رعاني وشغّلني عنده.

قال طاجيك، من كلّ قلبه:

-جازاه الله خيرا. يبدو أنّه رجل طيّب. فمنذ أن سكنت بالخان لم أر منه ما يشين... وهو فوق ذلك خدوم.

انسحب مسعود إلى الخارج، بعد أن أتمّ طعامه، ولبث طاجيك وحيدا، تلفّه وحدة الغرفة، ومتفكّرا في أمر العمل الّذي بين يديه، والّذي غدا حملا آخر ثقيلا عليه أن ينجزه، إن لم يكن من باب الواجب الّذي ليس له مردّ، فمن باب تزجية الوقت وشغل نفسه بشيء يذهب عنه رتابة أيّامه وقلقه الّذي ما فتئ يتزايد يوما بعد يوم... في الخارج، كان يسمع أصواتا، وقد كان يصغي بانتباه رغم شروده؛ وبدأت الأصوات تقترب شيئا فشيئا من نافذته، وبدأ يميّز أصوات طبلة كان يدُقّها منادي الوالي؛ وقد كان متأكّدا من ذلك، لأنّه لم يكن مسموحا لغير عمّال الدّولة أن يستعملوا الطّبلة؛ وحتّى في الأعراس، ومناسبات الفرح، كان الرّجال يكتفون بالرّقص والبخاريّات بالزّغاريد... كان المنادي يدقّ، ويصيح، ويقول: «يا أهل بخارى، اسمعوا وعوا، وليبلغ حاضركم غائبكم، أنّه بأمر سيّدنا الوالي، منصور بن المازيار، ستفرض حالة الحظر من بعد صلاة المغرب إلى ما بعد صلاة الصّبح، وارتفاع

الشّمس في كبد السّماء؛ وذلك للضّرورة القصوى، وتحسّبا من هجوم الأعداء الّذين يتربّصون بنا من كلّ جانب... ويعتبر هذا النّداء فرمانا رسميّا، يعرّض مخالفه إلى الجلد والسّجن، وقد أعذر من أنذر...» وراح النّداء يبتعد ويختفي شيئا فشيئا إلى أن تلاشى؛ وظلّ طاجيك يتفكّر في هذا الأمر الطّارئ الّذي ربّما حرمه القيام بالكثير من مهمّاته في سوق المدينة أو حوالي الخان... أخذ السّفر، وتأمّل في الحواشي الجديدة الّتي كتبها، وقد شعر بالرّضا إزاء العمل الّذي قام به، والاستنتاجات الّتي انتهى إليها؛ وباتت نفسه تنازعه إلى التّمباك، وإلى القهوة في زاويته المفضّلة أمامه كأس القرفة والصّمت، وصاحب القهوة الّذي كان يبتعد يوما بعد يوم، متدثّرا في جوف عزلة ما يزال لا يعلم من أمرها شيئا؛ وقد قرّ عزمه هذه المرّة أن يقترب منه؛ وأن يسأله. يبدو أنّ همّه كهمّه، وأن الدّنيا، على رحابتها، تنكمش وترتدّ إلى الدّاخل وتظلّ حبيسة صدر لا يملك غير الألم والصّبر... وأرسل شملته على كتفه، وخرج ثمّ أغلق الباب وراءه، ومشى في اتّجاه القهوة الّتي كانت تقوم في ناصية الشّارع لصق الحائط الخارجيّ للخان؛ وقد آثر هذه المرّة أن ينطلق رأسا إلى المعلّم، وحين داناه، أطلق التّحيّة، وقد ملآت وجهه ابتسامة كبيرة تفيض بشاشة وحبورا. التفت إليه المعلّم وكأنّه يؤوب من سفر طويل، وفي عينيه آي الاستفهام مردّه أنّه ربّما لم يكن رآه من قبل البتّة؛ ورغم ذلك فقد جهد أن يبدو ودودا، وقد أجبر نفسه على رسم ابتسامة على شفتيه، حتّى يكون ودّا بودّ، وأشار في حياء إلى كرسيّ بجانبه، وصاح مناديا غلامه قنبر الّذي جاء يسعى وكأنّه يمتطي بساط الرّيح الّذي تحفل بذكره القصص والرّوايات. قال لطاجيك:

-أنت ضيفي اليوم أيّها الغريب. فماذا تريد ان تشرب؟

قال طاجيك، ولم يزايله ودّه:

-بل ستكون أنت ضيفي، أيّها االمعلّم؛ وستشرّفني إذا قبلت

عزومتي على أيّ شيء...

أراد المعلّم أن يعترض، ولكنّ طاجيك كان أسبق إلى الكلام، فقال لقنبر:

- ايتنا بأراكيل...

ثمّ التفت إلى المعلّم وقال:

-هل تشرب قرفة مثلي، أم تريد ان تأمر بشيء آخر؟

فنظر المعلّم إلى قنبر قائلا:

-أمّا أنا فاتني بكأس كبير من اليانسون.

بقي الرّجلان متقابلين بعد ذهاب الغلام، وقد كان طاجيك يدبّر في رأسه بداية للحديث، فقال:

-أهلا... يا معلّم؛ والله تشرّفنا.

فردّ المعلّم:

-والله نحن الّذين تشرّفنا....

ثمّ مضيفا، بعد أن لوى خرطوم الأركيلة الّتي انتهى تمباكها:

-يبدو لي، إن لم أكن مخطئا، أنّك لست من بخارى...

فابتدره طاجيك مغتنما لهذه الفرصة الّتي سنحت دون تخطيط:

أنا من بغداد، يا سيّدي...

نظر إليه المعلّم مدقّقا مجيلا بصره في وجهه المشرب بحمرة، وشعره الأشقر الّذي كانت خصلات منه تظهر من تحت عمامته الصّغيرة، ثمّ قال وقد علت شفتيه هذه المرّة ابتسامة ذاوية، ربّما كانت تحمل وراءها همّا كبيرا واغترابا ما له حدود:

-بغداد... دار السّلام... حاضرة الخلافة؛ يبدو لي أنّك لست من بغداد، وأنّك لست عربيّا.

قال طاجيك:

-صدق حدسك، يا سيّدي؛ فأنا قد جلبت إليها رقيقا، واشتراني أحد سراتها واتّخذني ولدا... واسمي طاجيك بن لامار من القفقاس...

قال المعلّم:

-أمّا أنا فعلاء الدّين... وأنا من بغداد...

شعر طاجيك لوهلة بصدمة، رغم أنّ ظنّه صدق في الرّجل الّذي لم يكن من أهل البلد، ولكن ما أهمّه في الأمر أن يكون من بغداد: هو يعلم أنّ أهل بغداد لا يغادرونها إلاّ إذا خرجوا تجّارا، وأنّ غالبيّتهم لا يتركونها إلى سواها، اللّهمّ إلاّ إذا كان الرّجل مطاردا أو مطلوبا للدّولة؛ وقد خشي أشدّ الخشية أن يسأله مخافة أن يهيج همومه؛ وقال في نفسه: «فلأنتظر قليلا عساه يجلّي خبيئة نفسه ويخبرني عن سبب وجوده في هذه البلاد.» جاء قنبر أخيرا، ووضع الأراكيل في أماكنها، ووضع الطّبق على النّضد، وانصرف؛ وترك الرّجلين لمفتتح جلسة كان يبدو أنّها ستطول... انعقد دخان التّمباك في المكان، وقد كان يعلو ويغلّف كلّ شيء، حتّى غدا وجها الرّجلين كأنّهما آثار تظهر وتختفي في السّراب... وكان طاجيك وعلاء الدّين، في تلك اللّحظات اليسيرة من الانسجام، راضيين عن نفسيهما، كلّ في عالمه الخاصّ، ينهنه أطيافا وذكريات بعيدة لأماكن وأشخاص كانت تبدو في المدى ثمّ تختفي، ثمّ تظهر وتختفي من جديد؛ وقد كان علاء الدّين أسبق إلى الكلام هذه المرّة، فقال دون أن يبدو عليه شيء من الحزن أو الأسف:

-لعلّك تستغرب، يا سيّدي، كيف غادرت بغداد؛ وكيف رضيت عنها بدلا؛ وهي حاضرة الخلافة، ولي فيها أهل وزوجات وعيال...

قال طاجيك يجسّ النّبض:

إي والله، لقد خامرني السّؤال؛ وخشيت أن أزعجك به وآثرت أن تتكلّم من تلقاء نفسك؛ فإن كان ذلك يسوءك، فيمكنك أن تحتفظ بالإجابة لنفسك...

قاطعه:

-لا عليك، فيبدو أنّ كلينا يحملان من الهموم أوزانا، وفي القلوب أشجانا... اعلم، يا سيّدي، أنّي رجل من سراة القوم؛ وقد كنت مقرّبا

من قصور الخلافة، وكان الخلفاء يدعونني في مسامراتهم وأوقات لهوهم؛ ورغم أنّي كنت أتحرّج من مجالسهم، إلاّ أنّه لم يكن لي بدّ من مسايرتهم مخافة عقابهم أو بطشهم بي...

وأخذ أنفاسا من أركيلته، وحسا من اليانسون على دفعات يسيرة، ثمّ قال مواصلا:

-وقد علقت بي إحدى بنات الخليفة، ورامت إغرائي، فتمنّعت في البداية، ليس استنكافا من حبّها، ولكن من افتضاح أمرنا وانتقام أبيها؛ فداريت ما أمكنتني المداراة، ثمّ تزلزلت حصون صمودي، فغدوت لا أفارقها في ليل أو نهار؛ ثمّ بالأمر المقدّر كشف أحد الخدم أمرنا، وكان يضمر لي شرّا، فأخبر الخليفة أخاها...

كان طاجيك مستثارا أثناء الحديث، ولم يكن يتصوّر أنّ معلّم قهوة، في هيأته وسمته، يمكن أن تطمح نفسه إلى علية القوم، أو أن يكون في يوم من الأيّام نديما للخليفة وجلاّسه وسمّاره. سأل:

فماذا فعل الخليفة؟

أجاب علاء الدّين في هدوء، وكأنّه لم يكن في يوم من الأيّام، مهدّدا بالموت أو بقطع رأسه على النّطع:

-لم يكن للخليفة الوقت الكافي ليفعل لأنّي فررت من وجهه في كلّ البلاد، وانتهى بي المطاف في بخارى...

سأل طاجيك مرّة أخرى:

أو ليست بخارى بلدا من بلدان الخلافة؟

بلى، ولكنّي امرؤ، كما ترى، لا أخرج، ولا أرى ولا أُرى: أظلّ قابعا في القهوة، لا أريم عنها؛ فهي بيتي، وهي بلدي، وهي كلّ عالمي الّذي بقي لي من الدّنيا؛ وأخاف أن أخرج فتتناوشني السّيوف والرّماح؛ ولو قدّر لي من مبدإ حياتي أن أختار لما اخترت غير هذا المكان؛ ففيه عرفت، وفيه انتهيت إلى أسرار الوجود...

-أيّ أسرار تعني؟ وماذا عن أهلك؟ ماذا عن أموالك؟ وماذا عن

عيالك؟

قال علاء الدّين وقد بدأ الحزن يغشّي وجهه:

لقد أخذوا كلّهم بجريرتي؛ واستصفى الخليفة كلّ أموالي؛ وقتل كلّ أهلي وعيالي... أمّا عن أسرار الوجود، فأولاها أنّك تبقى وحيدا، وأنّ الوحدة أصل، وأنّ ما عداها قشور؛ وثانيها، فلا تجزع وإن غشيك الحزن، لأنّ كلّ شيء مقدّر عليك منذ البداية؛ وإنّ جزعك نقيض الإيمان وأن الله تعالى هو المصرّف؛ فاقنع من حياتك بالقليل، وتزوّد لآخرتك زاد متخفّف من الدّنيا وانتظر الرّحيل؛ وثالثها، ابحث لك عن زاوية في خلاء الحياة، ولا تركن لنفسك، وابك ما أمكنك البكاء...

سأل طاجيك متحيّرا... من هذا الكلام الّذي يسمعه ربّما لأوّل مرّة في حياته:

-ولماذا البكاء؟!!

. البكاء مجلاة للنّفس، يذهب عنها سوادها وأدرانها الّتي ما تفتأ تتراكم يوما بعد يوم... البكاء، أيّها الغريب، هو السّبيل إلى سعادة لا يعلمها إلاّ المنقطعون...

وصمت فجأة، وكان واضحا أنّه قد قال كلّ شيء وأنّه لن يفوه بكلمة بعد ذلك... وكان طاجيك ينظر إليه، ويجيل نظراته في كلّ المكان، والزّبائن في المكان، وهو يحاول أن يجد خيطا يربط كلّ شيء بكلّ شيء، ويوفّق بين هذه المتناقضات الّتي لا يمكنها أن تجتمع إلاّ في عالم غير العالم وزمان غير الزّمان...

عندما خرج، لم يكن يقدّر أنّ الوقت قد تأخّر وأنّ المغرب قد صلّيت منذ زمن ليس باليسير؛ وقد كان مزمعا الرّجوع إلى غرفته واستكمال ما كان بدأه على حواشي سفر التّكوين بالرّجوع إلى ما فيه، والاستزادة . إذا أعوزت بعض الشّروح بين الفجوات . من «تاريخ الرّسل والأمم والملوك»؛ ولم يكن يقدّر أنّه سيصطدم فجأة بجنود دار الإمارة الّذين أمره أحدهم في غلظة أن يتوقّف. كان ينظر ولا يبصر، ليس فقط لأنّ

الظّلمة كانت تنشر أرداءها في المكان وتمنع من الرّؤية، بل لأنّه أيضا قد ابتعد كثيرا وراء خيوط كانت تشدّه إلى بدايات الخلق... توقّف لا إراديّا بدافع الصوّت، ولبث في مكانه مليّا حتّى اقترب منه جنديّان.

قال له أحدهما، وهو يمسك بلبّته في عنف:

ماذا تفعل في هذا الوقت؟ ألم تسمع النّداء هذا الصّباح؟

لم يشأ أن يكذب. قال في وجل:

- بلى سمعت.

كان الجنديّ يدفعه إلى الأمام، وكان الجنديّ الثّاني يسايرهما دون أن يقول شيئا؛ وقد كان يبدو، على عكس زميله، هادئا رصينا ولم يشأ أن يتدخّل أو يعلّق بكلمة...

- ستذهب معنا الآن إلى كبير الشّرطة؛ وهو الّذي سيبتّ في أمرك...

أراد أن يقاطع... أن يقول شيئا؛ غير أنّ الجنديّ لم يترك له فرصة للكلام. بعد لأي وصلوا إلى دار الإمارة، عبر السّور، وانحدروا ناحية اليسار حيث يقوم ديوان الشّرطة؛ وما أن دخلوا حتّى قال الجنديّ لرجل لحيم جسيم، ذو شارب كثّ ولحية تصل إلى صدره، وكان يبدو عليه الوقار والجلال:

- هذا، يا سيّدي، مخالف جديد لأوامر الحظر، وقد وجدناه على مقربة من خان بهرام...

نظر إليه كبير الشّرطة بإمعان، وكان يصعّد فيه نظراته كالمتّهم؛ ولكنّه لم يكن غاضبا تماما، أو ناقما، أو شرسا، على عادة أصحاب الشّرطة في كلّ مكان. ربّما قد اطمأنّ إلى هيئته؛ وبفراسته وخبرته، لم ير في وجهه ما يدلّ أنّه من أصحاب السّوابق وأرباب الجرائم؛ أشار له إلى كرسيّ بجانبه فجلس في صمت، لم يكن ليخفي اضطرابه وخوفه. إنّها المرّة الأولى الّتي يتعرّض فيها إلى مثل هذا الموقف؛ وحتّى في بغداد الّتي كانت تكتظّ، من أقصاها إلى أدناها، بالجنود الأتراك الّذين كان منهم من يتعدّى على العامّة، ويغصب التّجّار الكثير من بضائعهم في

سوق الصّيارفة، أو سوق النّحّاسين، أو البزّازين، أو القمّاشين، فإنّ الله كان يستر عليه دائما، ويمرّون به فلا يرومون إيذاءه أو السّخرية منه؛ ربّما شكله، منظره، كان يوحي لهم أنّه ليس مثل غيره، ليس رجلا من العامّة، أو أهل البلد. أمّا اليوم، فقد شاء له سوء طالعه أن يقع في فخّ نسيانه، وأن يعرّض نفسه لسلطة قانون مازال لا يعلم عنه شيئا.

قال كبير الشّرطة:

- لقد كان أمرنا صريحا هذا الصّباح، لكن...

ثمّ صمت قليلا، وهو يتفرّس فيه ثانية ليرى مدى براءته أو ربّما استحقاقه للتّهمة الّتي ستسند إليه؛ واطمأن أخيرا إلى أنّ الرّجل لا يمكن أن يكون عينا أو مدسوسا من الأعداء.

-سأعتبر أنّ ما وقع لك لم يكن بمحض إرادتك؛ وأنّك ربّما نسيت...

استغلّ طاجيك هذه الفرصة فقال مقاطعا في رجاء وإعوال:

-هو ذاك، يا سيّدي، وأقسم على ذلك... لقد نسيت فعلا، ولم أكن أظنّ أنّي لبثت في القهوة كلّ ذلك الوقت.

قال كبير الشّرطة:

-إنّي أصدّقك؛ ولكن اعلم أنّي لو رفعت الأمر إلى سيّدي الوالي لأمر بضرب عنقك على الفور...

أراد طاجيك ان يتدخّل ثانية، ولكنّ الرّجل أوقفه بإشارة من يده، قائلا:

-إنّي أربأ بك عن الموت؛ وإنّي أحسبك من أصحاب المهن الرّفيعة، وربّما تكون من أرباب القلم. أليس ذلك صحيحا؟!!

أخذ طاجيك على حين غرّة. ما هذا الرّجل؟ كيف حدس؟ كيف عرف؟ قال:

-صدق حدسك، يا سيّدي؛ فكيف عرفت أنّني من أصحاب القلم؟ هل تنظر بظهر الغيب إلى ما لا ينظر إليه غيرك؟

فردّ كبير الشّرطة والبسمة بادية على شفتيه الغليظتين:

-ليس إلى هذا الحدّ؛ ولكنّي امرؤ ذو فراسة. لقد علمت ذلك من سمتك ومن يديك النّاعمتين؛ فهما تقولان إنّك لست تشقى كغيرك بحمل الأثقال، أو شدّ الحبال في مراكب البحر، أو غيرها من الأشغال الّتي يقوم بها غيرك من العامّة...

ثمّ، وقد طغا يقينه على شكّه، وصار كلّه ودّا وأنسا وشفقة:

-هل لي بسؤال؟

قال طاجيك، وقد تأكّد أخيرا أنّه نجا من الموت بأعجوبة:

-تفضّل، يا سيّدي؛ فكلّي آذان صاغية.

تحرّك كبير الشّرطة في مكانه فسمع لتحرّكه أطيط تحت وطأة جسمه الممتلئ، وسأل ثانية:

-فماذا تعمل على وجه التّحديد؟

قال طاجيك:

-إنّي، يا سيّدي، أكتب في كلّ شيء... أكتب الحكايات، وأكتب التّواريخ، وأعلّق على الكتب، وأكتب الحواشي؛ وقد درست في مطلع شبابي الكثير من كتب الفقه على أيدي فقهاء بغداد، والكثير من كتب الأصول والسّير، والنّحو والصّرف، والحساب، والفلسفة، وأحيانا أكتب الشّعر...

قال كبير الشّرطة، وهو يكاد يطير فرحا:

-فلمن تحفظ من الشّعراء؟

- لأغلبهم تقريبا؛ ويعجبني أحمد بن الحسين الجعفيّ، ولا أتعصّب له، ولأبي العلاء، والعتاهيّ، ولبشّار...

قاطعه كبير الشّرطة:

-فما دمت تحفظ لأحمد بن الحسين، فلا أراك إلاّ تتذكّر قصيدته الّتي ودّع بها سيف الدّولة الحمدانيّ، وهي قصيدته الميميّة الشّهيرة!!

قال طاجيك:

-ومن لا يحفظها من أدباء جيلي؛ وهي الّتي يبدأها بـ:

واحرّ قلبــاه ممّن قلبــه شبـــــم
ومن بجسمـي وحالي عنده سقـــم
مالي أكتّم حبّا قد بـــرى جســـدي
وتدّعي حبّ ســيف الدّولة الأمـــم
إن كان يجمعنا حبّـــا لغرتّـــــه
فليت أنّا بقدر الحبّ نقتســـــم
قد زرته وســـيوف الهند مغمـــدة
وقد نظرت إليه والسّيــــوف دم
فكان أحسن خلـــق الله كلّهـــم
وكان أحسن ما في الأحســن الشّيـم
فوت العـــــدوّ الّذي يمّمته ظفـــر
في طيّه أســـف في طيّه نعـــم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت
لك المهابة ما لا تصنع البهـــــم
ألزمت نفســـك شيئا ليس يلزمهـــا
أن لا يواريهـــم أرض ولا علـــم
أكلّما رمت جيشا فانثنى هربـــــا
تصرّفت بك في آثاره الهمـــــم
عليك هزمهم في كلّ معتــــــرك
وما عليك بهم عــار إذا انهزمـــوا
أما ترى ظفرا خلوا سوى ظفـــــر
تصافحت فيه بيض الهند واللّمـــم
يا أعدل النّاس إلاّ في مخاصمتـــي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظـــرات منك صادقـــة
أن تحسب الشّحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدّنيـــا بناظـــره
إذا استوت عنده الأنــورا والظّلم
سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنـــا
بأنّني خيرمن تسعى به قـــــدم
أنا الّذي نظرالأعمــى إلى أدبـــي
وأسمعت كلماتي من به صمـــم
أنام ملء جفوني عن شــواردهـــا
ويسهر الخلق جرّاهــا ويختصـــم
وجاهــل مـــدّه في جهله ضحكي
حتّى أتته يد فرّاســـة وفـــم
إذا رأيت نيـــوب اللّيث بـــارزة
فلا تظنّن أنّ اللّيث يبتســـــم
ومهجة مهجتي من همّ صاحبهـــا
أدركتها بجواد ظهـــره حـــرم
رجلاه في الرّكض رجل واليدان يـــد
وفعله ما تريد الكـــفّ والقـــدم
ومرهف سرت بين الجحفلين بــــه
حتّى ضربت وموج البحريلتطــــم
الخيل واللّيل والبيـــداء تعرفنـــي
والسّيف والرّمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا
حتّى تعجّب منّي القور والأكـــم
يا من يعزّعلينـــا أن نفارقهـــم
وجداننا كلّ شيء بعدكم عـــدم
ما كان أخلقنا منكـــم بتكرمـــة
لو أنّ أمرنا من أمركـــم أمـــم

إن كان سرّكـــم ما قال حاسدنـــــا
فما لجرح إذا أرضاكـم ألـــــم
وبيننا لو رعيتـــــم ذاك معرفـــــة
إنّ المعارف في أهل النّهى ذمـــــم
كم تطلبون لنا عيبا فتعجزكـــــم
ويأبى الله ما تأتـــون والكـــرم
ما أبعد العيب والنّقصان من شرفي
أنا الثّريّا وذان الشّيـب والهـــرم
ليت الغمام الّذي عندي صواعقـه
يزيلهنّ إلى من عنده الدّيـــــــم
أرى النّـــــوى يقتضيني كلّ مرحلـة
لا تستقلّ بها الوخّـــادة الرّســم
لئن تركن ضمـــيرا عن ميامننـــــا
ليحدثنّ لمـــن ودّعتـــم نـــدم
إذا ترحّلت عن قوم وقد قـــــدروا
أن لا تفارقهم فالرّاحلـــون هـم
شرّ البلاد مكان لا صديـــق بـــه
وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصم
وشرّ ما قنصتـــــه راحتي قنـــص
شهب البزاة سواء فيه والرّخـــم
بأيّ لفظ تقول الشّعـــر زعنفـــــة
تجوز عند لا عـــرب ولا عجـــم
هذا عتابـــــك إلاّ أنّـــه مقـــة
قد ضمّن الــــدّرّ إلاّ أنّه كلـــم

كان كبير الشّرطة، طوال الوقت الّذي استغرقه طاجيك في إنشاد القصيدة، يدقّ بأصابعه على الطّاولة الّتي كانت عليها أضابيره ودفاتره وأقلامه، وكان يوقّع الوزن بصوته من حين لآخر، وقد شرد مع الكلمات، وتاه مع الموسيقى والنّغم؛ ولم يكن طاجيك يعلم أنّه قبل انخراطه في شرطة الوالي، كان هو الآخر كاتبا في ديوان الرّسائل، وقد تعرّف على الكثير من الكتّاب من كلّ الطّوائف، وكان يقتبس أيضا من الرّسائل الّتي كانت تأتي من الأمصار، وقد قرأ الكثير من رسائل سهل بن هارون وعبد الحميد الكاتب، ورسائل الجاحظ... علم طاجيك ذلك فيما بعد؛ وقد تمنّى صادقا من كلّ قلبه أن يتّصل ما بينهما من الودّ. قال كبير الشّرطة:

- اعذرني، أيّها الغريب؛ سأكون مضطرّا إلى الاحتفاظ بك لبعض الوقت عندنا مخافة أن يتعرّض لك بعض الزّعّار، سيّما وقد تقدّم بنا اللّيل؛ ولا أضمن ألاّ يقع لك مكروه؛ ولذلك سآمر لك بطعام، وآمر بعض الجنود أن يعدّوا لك مكانا للمبيت عندنا؛ فهل تأمر بشيء، أو ترغب في شيء قبل أن تنصرف... ذكر طاجيك ما كان أزمع عليه في ذلك اليوم من أن يستكمل حواشيه على سفر التّكوين، كما ذكر أنّه لم يحمل معه شيئا لتدوين أفكاره، وكان يدير في نفسه أن يسأل كبير الشّرطة أن يرسل أحدا إلى الخان ليأتيه بمخلاتيه، ثمّ يحجم مخافة أن يثقل عليه؛ وقد لاحظ صاحبه عليه ذلك، ورام أن يدخل عليه بعض السّكينة وأن يريه أنّه بات لديه بمكان مكين من قلبه. قال:

-أراك تدير شيئا في نفسك. قل ولا تخف... إذا كانت لديك حاجة يمكن أن نقضيها لك... ربّما تريد أن تكتب... أو تدوّن شيئا...

شعر طاجيك أنّ الرّجل قد مسّ وترا فيه، وأنّ فراسته لم تخب أيضا هذه المرّة، فأراد أن يستغلّ هذه الفرصة لصالحه، فقال في أدب جمّ يحمل في طيّاته امتنانا وشكرا:

- والله، يا سيّدي، لقد كنت بدأت شيئا؛ وكنت مزمعا هذا اليوم أن

أكمله، ولكن للأسف حدث ما حدث، وتركت أوراقي وكتبي بالخان؛ وأنا اللّيلة في حاجة للكتابة قبل أن يذهب ما كنت أدرته في رأسي منذ مدّة.

نظر كبير الشّرطة إلى أحد الجنود وأمره أن يذهب إلى الخان ليأتيه بما يريده من الكتب والأقلام والأوراق، وأوصله بنفسه إلى مكان مبيته، ولم يغادره إلاّ حين اطمأنّ أنّ كلّ شيء على ما يرام وأنّه أكل كفايته واستقرّ به المقام على حشيّة كانت كافية أن تقيه برد تلك اللّيلة الليّلاء... لم يتأخر الجنديّ عليه بأشيائه، وما عتم أن جاءه بما طلبه؛ ولم يمض وقت طويل حتّى كان قد نشر أوراقه وراح يكتب على الحاشية من جديد، بعد أن قرأ مليّا: «[20]وَقَالَ اللهُ: «لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلَدِ السَّمَاءِ». [21]فَخَلَقَ اللهُ التَّنَانِينَ الْعِظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَّابَةِ الْتِى فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. [22]وَبَارَكَهَا اللهُ قَائِلاً: «أَثْمِرِي وَاكْثُرِي وَامْلإِي الْمِيَاهَ فِي الْبِحَارِ. وَلْيَكْثُرِ الطَّيْرُ عَلَى الأَرْضِ». [23]وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا خَامِسًا.» قرّب طاجيك قلمه من الحاشية وكتب: «هناك تفصيل في كلّ المواطن، وذكر لمجمل الأيّام السّتّة وما خلق فيها منذ البداية؛ وهناك أيضا دقّة في التّحديد. فالتّوراة تورد لنا كلّ ما خلق في كلّ يوم يوما يوما. وقد بلغنا اليوم الخامس وما خلق الله تعالى فيه من زحّافات الماء. وإذا أخذنا هذه العبارة على علاّتها اعتبرنا أنّ الزّحّافات هي كلّ ما وجد في البحر من السّمك وغيره من الحنكليس والثّعبان والحيتان الكبار والدّلافين والحيتان الصّغار، ولا يبعد أن تكون كذلك الزّحافات الّتي تعيش بين الأرض والبحر مشمولة مع غيرها من زحّافات الماء... وخلق الله تعالى أيضا الطّير؛ ولم تذكر التّوراة العلّة من وراء خلق الله للخلق إلاّ أنّ ذلك كان جميلا في عينه؛ وإذا كان ذلك كذلك فلا يعدو الأمر أن يكون مسألة ذوقيّة إذا قارنّاه بما هو مثبت بالقرءان أو ما أورده أهل العلم من المسلمين بأنّ غاية الخلق هي الاستخلاف. وإذا محّصنا ذلك وضح

لنا جانب الخلاف في زوايا النّظريين أحبار أهل الكتاب وبين غيرهم من أصحاب الكتب السّماويّة. ثمّ إنّ الله ـ على زعمهم ـ خلق التّنانين، فما هي التّنانين الّتي يقصدون، يا ترى؟ وهل وجدت كائنات بهذه الصّفة؟ أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون أنّ أهل الكتاب قد استعاضوا على كائن معروف بآخر غير معروف؛ كما أجملوا في باقي كائنات الأرض؛ ولم يذكروا ـ تحديدا ـ غير الطّير. فهل يمكن أن نعتبر (وهو كذلك) أنّ الله قد خلق كلّ شيء على وجه الأرض؟ فما نراه من كلّ شيء حولنا هو صنع الله وخلقه؛ فكلّ ما نراه نشير به إليه، ونقول في ثقة: «هو صنع الله، أو من صنع الله.» وهناك نسق، وهناك منطق، يحكم السّرد؛ إذا اعتبرنا أنّ ما يذكره السّفر هو سرد كباقي السّرد؛ فكون الله خلق كلّ هذا الخلق فلا بدّ لهذا الخلق من شيء يقيمه ويحفظ عليه حياته، فأصدر الله أمره أن يكون هناك شجر وثمر، أي أن يكون هناك طعام، ستستفيد منه هذه الكائنات، ثمّ يستفيد منه، بعد ذلك الإنسان، الّذي هو نسل أبينا آدم عليه السّلام...» كان مرتاحا إلى ما يكتبه، وهو يشعر بأريحيّة وزهو. إنّ ما يكتبه على الحاشية، إن لم يرق إلى الشّروح المستوفاة والكتب المستقلّة، فسيكون على الأقلّ إضافة من الإضافات، الّتي من شأنها أن تجلّي ما يمكن أن يعرض من الغموض في بعض المواطن. وقد نسي، في خضمّ ما حصل له في ذلك النّهار، أن يذكر حاجته إلى التّمباك، كما نسي أن يذكر لكبير الشّرطة حاجته إليه، وأنّه قد صار إدمانا مقيما لا غنى له عنه؛ غير أنّه وطّن النّفس على الصّبر إلى الصّباح؛ وأنّ يركّز همّه على ما هو بين يديه. وطافت عيناه على السّفر من جديد، وقرأ: «[٢٤] وَقَالَ اللهُ: «لِتُخْرِجِ الأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا». وَكَانَ كَذلِكَ. [٢٥] فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. [٢٦] وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ

السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ». [٢٧] فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. [٢٨] وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ». [٢٩] وَقَالَ اللهُ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْل يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا. [٣٠] وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا». وَكَانَ كَذلِكَ.

[٣١] وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا سَادِسًا.» وكتب طاجيك: «إنّ الله لمّا هيّأ كلّ شيء على أحسن ما يكون، وخلق كلّ شيء لا تقوم السّماء ولا الأرض إلاّ به، قرّر أن يخلق الإنسان، ولم يكن هذا الإنسان إلاّ آدم عليه السّلام: وقد خلقه على صورته، وذلك غاية في التّشريف، ولقرب الإنسان من الله؛ فلولا ذلك لما كان أنعم عليه بما أنعم، وأسبغ عليه من النّعماء ما لا يستطيع اللّسان إجماله. وقد سبق أن ذكرنا نتفا ممّا ذكره المسلمون في الخلق، وذكرنا أنّ أغلب ما ذكروه كان مستقى ممّا حدّث به أحبار يهود كوهب بن منبّه وكعب الأحبار وغيرهم؛ ولكن هذا لا يعني أنّ كلّ ما عرفه المسلمون عن الخلق كان محصورا في بني إسرائيل. لقد كان الصّحابة الكرام غالبا ما يسألون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان مجملا في القرءان، فيفصّله لهم على مقتضى ما يأتي به الوحي من الله تعالى عن طريق جبريل عليه السّلام؛ ولم أشأ أن آتي بكلّ ما ذكر في كلّ كتب التّاريخ وإنّما ذكرت نتفا من الطّبريّ لأنّ أغلب المؤرّخين من بعده قد أخذوا عنه؛ وحينما نعود إلى ما قيل في الخلق في كتابه، نقرأ: «(القول فيما خلق الله في كلّ يوم من الأيّام السّتّة الّتي ذكر الله في كتابه أنّه خلق فيهنّ السّموات والأرض وما بينهما)

اختلف السّلف من أهل العلم في ذلك.

فقال بعضهم ما حدّثني به المثنّى بن إبراهيم قال حدّثنا عبدالله بن صالح حدّثني أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد عن عبد الله بن سلام أنّه قال إنّ الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والإثنين وخلق الأقوات والرّواسي في الثّلاثاء والأربعاء وخلق السّموات في الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك السّاعة الّتي تقوم فيها السّاعة.

حدّثني موسى بن هارون حدّثنا عمرو بن حمّاد حدّثنا أسباط عن السّدّيّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالوا جعل يعنون ربّنا تبارك وتعالى سبع أرضين في يومين الأحد والإثنين وجعل فيها رواسي أن تميد بكم وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين في الثّلاثاء والأربعاء ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخان فجعلها سماء واحدة ثمّ فتقها فجعلها سبع سموات في يومين الخميس والجمعة.

حدّثنا تميم بن المنتصر قال أخبرنا إسحاق عن شريك عن غالب بن غلاّب عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عبّاس قال خلق الله الأرض في يومين الأحد والإثنين.

ففي قول هؤلاء خلقت الأرض قبل السّماء لأنّها خلقت عندهم في الأحد والإثنين وقال آخرون خلق الله عزّ وجلّ الأرض قبل السّماء بأقواتها من غير أن يدحوها ثمّ استوى إلى السّماء فسواهنّ سبع سموات ثمّ دحا الأرض بعد ذلك.

ذكر من قال ذلك.

حدّثني علي بن داود قال حدّثنا أبو صالح قال حدّثني معاوية عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس قوله عزّ وجلّ حيث ذكر خلق الأرض قبل السّماء ثمّ ذكر السّماء قبل الأرض وذلك أنّ الله خلق

الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السّماء ثمّ استوى إلى السّماء فسواهنّ سبع سموات ثمّ دحا الأرض بعد ذلك فذلك قوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها.

حدّثني محمّد بن سعد قال حدّثني أبي قال حدّثني عمّي قال حدّثني أبي عن أبيه عن ابن عبّاس والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها [1] يعني أنّه خلق السّموات والأرض فلمّا فرغ من السّماء قبل أن يخلق أقوات الأرض بثّ أقوات الأرض فيها بعد خلق السّماء وأرسى الجبال يعني ذلك دحوها ولم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلاّ باللّيل والنّهار فذلك قوله عزّوجلّ والأرض بعد ذلك دحاها ألم تسمع أنّه قال أخرج منها ماءها ومرعاها.

قال أبو جعفر والصّواب من القول في ذلك عندنا ما قاله الّذين قالوا إنّ الله خلق الآرض يوم الأحد وخلق السّماء يوم الخميس وخلق النّجوم والشّمس والقمر يوم الجمعة لصحّة الخبر الّذي ذكرنا قبل عن ابن عبّاس عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك وغير مستحيل ما روينا في ذلك عن ابن عبّاس من القول وهو أن يكون الله تعالى ذكره خلق الأرض ولم يدحها ثمّ خلق السّموات فسواهنّ ثمّ دحا الأرض بعد ذلك فأخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها بل ذلك عندي هو الصّواب من القول في ذلك وذلك أنّ معنى الدّحو غير معنى الخلق وقد قال الله عزّو جل: « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) » فإن قال قائل فإنّك قد علمت أنّ جماعة من أهل التّأويل قد رجعت قول الله والأرض بعد ذلك دحاها إلى معنى مع ذلك دحاها فما برهانك على صحّة ما قلت من أنّ ذلك بمعنى بعد الّتي هي خلاف قبل، قيل المعروف من معنى بعد في كلام العرب هو الّذي قلنا من أنّها بخلاف معنى قبل لا بمعنى مع وإنّما توجّه معاني الكلام إلى الأغلب عليه من

معانيه المعروفة في أهله لا إلى غير ذلك.

وقد قيل إنّ الله خلق البيت العتيق على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدّنيا بألفي عام ثم دحيت الأرض من تحته.» ومعلوم أنّ أهل التّوراة لم يسمّوا الأيّام وإنّما ذكروا أعدادها وموقعها من الأسبوع، وهم لم يحدّدوا كما حدّد المؤرّخون العرب الّذين كانوا أكثر حرصا على ذكر ما خلق في كلّ يوم؛ وإنّما كان اختلاف المؤرّخين العرب في قبليّة أو بعديّة خلق الله تعالى للسّماوات والأرضين؛ فمنهم من قال بأنّ الله تعالى خلق السّموات قبل الأرض، ومنهم من قال عكس ذلك بأنّ الله جلّ ذكره قد خلق الأرض قبل السّموات؛ والكلّ يستدلّ بالسّورة الشّريفة الّتي هي سورة «التّكوير»؛ ومعلوم أيضا أنّ العرب على خلاف اليهود إنّما تلجأ إلى اللّغة العربيّة الّتي نزل بها القرءان؛ ولا يفسّر الكثير من مسائله إلاّ بالرّجوع إليها؛ وشيء آخر على غاية الأهميّة، كون المخاطب في سفر التّكوين مجهولا، ولا تعدّد للأصوات كما هو الحال في كتب تاريخ العرب الكثيرة؛ ولذلك تفاسير وتآويل، منها أنّه قد يؤخذ في حال الكتب والإصحاحات التّوراتيّة أنّ المخاطب، وإن كان مجهولا فهو معلوم بالضّرورة لأنّه هو من نزّل التّوراة، وهو في نظرهم الله الواحد؛ وما دام ذلك كذلك، فهو ليس في حاجة إلى تعدّد كي يصل بنا إلى القول الأخير في مسألة الخلق وإنّما ما يقوله هو عين الحقيقة؛ أي أنّ كلامه لا يحتمل التّعديل أو التّرجيج أو التّجريح. وهذا يطرح إشكالا فيما يتعلّق بكتب التّاريخ الكثيرة في الحضارة العربيّة؛ وليس مردّ ذلك إلى القرءان، الّذي فيه ما هو مفصّل وما هو مجمل في حاجة إلى تفصيل من الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بأمر الوحي. وفي الحقيقة ما يبدو مشكلا في البداية ليس في حقيقة أمره إلاّ ضرورة من ضرورات اتّصال الصّحابة رضوان الله عليهم بالرّسول؛ فمنهم من يسمع منه شيئا ولا يسمع الشّيء الآخر، ومنهم من يسمع وقد يغيب عنه معنى ما يقال، ومنهم سريع الحفظ، ومتوّسطه، وضعيفه. فهنا نرى أنّه لو اتّصل

كلّ الصّحابة بالرّسول عليه الصّلاة والسّلام في وقت واحد، لما كان هناك اختلاف في الأقوال؛ ثمّ إنّ الصّحابة قد اتّصل بهم التّابعون، والتّابعون أيضا ليسوا على قلب رجل واحد في الرّواية، فما قيل عن الصّحابة قد يقال كذلك في التّابعين؛ ثمّ إنّه في بعض الأزمان ظهر من النّاس من يتقوّلون على النّبيّ ويزيدون في كلامه؛ ولكنّ أصحاب الحديث قد اشتغلوا بنقد أحاديث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ودقّقوا ومحّصوا، وأمكنهم إخراج ما هو مثبت من أقوال الحضرة الشّريفة وترك ما هو محض كذب وتدليس بالرّجوع إلى الميزان الّذي أوجدوه، ونعني بذلك الجرح والتّعديل؛ فكانت هناك سلسلة الذّهب المتّصلة إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وسلسلة الكذب الّتي رأسها أبو مخنف لوط بن يحي.

وأمر آخر اعتنى به المؤرّخون المسلمون لما له من الأهميّة في حياتهم لارتباطه بركن من أركان الإسلام (الحجّ)، ألا وهو البيت العتيق، الّذي لم يرد له ذكر، بمعنى قداسته، لا في العهد القديم، ولا العهد الجديد؛ واجتهد المؤرّخون في إثبات وجوده في الزّمان، لما يعتقدونه من بركته، ولما يجمعه من شعائر أخرى لا تقلّ أهميّة كالوقوف بعرفة، ويوم الحجّ الأكبر، والسّعي بين الصّفا والمروة، والطّواف بالبيت العتيق... وحتّى في ذكر ذلك هناك اختلاف للأسباب الّتي ذكرنا آنفا؛ فهناك من يقول بأنّ بيت الله العتيق خلقه الله جلّ ذكره على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدّنيا بألفي عام ثم دحيت الأرض من تحته.

ذكر من قال ذلك.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا يعقوب القميّ عن جعفر عن عكرمة عن ابن عبّاس قال وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدّنيا بألفي عام ثمّ دحيت الأرض من تحت البيت.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا مهران عن سفيان عن الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبدالله بن عمر قال خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة ومنه دحيت الأرض وإذا كان الأمر كذلك كان خلق الأرض قبل خلق السّموات ودحو الأرض وهو بسطها بأقواتها ومراعيها ونباتها بعد خلق السّموات كما ذكرنا عن ابن عبّاس.

وقد حدّثنا ابن حميد قال حدّثني مهران عن أبي سنان عن أبي بكر قال جاء اليهود إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا يا محمّد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيّام السّتّة فقال خلق الأرض يوم الأحد والإثنين وخلق الجبال يوم الثّلاثاء وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء وخلق السّموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات بقين من يوم الجمعة وخلق في أول الثّلاث ساعات الآجال وفي الثّانية الآفة وفي الثّالثة آدم قالوا صدقت إن أتممت فعرف النّبي صلّى الله عليه وسلّم ما يريدون فغضب فأنزل الله تعالى: «وما مسّنا من لغوب فاصبر على ما يقولون.»

فإن قال قائل فإن كان الأمر كما وصفت من أنّ الله تعالى خلق الآرض قبل السّماء فما معنى قول ابن عبّاس الّذي حدثّكموه واصل بن عبد الأعلى الأسديّ قال حدّثنا محمّد بن فضيل عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عبّاس قال أوّل ما خلق الله تعالى من شيء القلم قال له اكتب فقال وما أكتب يا ربّ قال اكتب القدر قال فجرى القلم بما هو كائن من ذلك إلى قيام السّاعة ثمّ رفع بخار الماء ففتق منه السّموات ثمّ خلق النّون فدحيت الأرض على ظهره فاضطرب النّون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فإنّها لتفخر على الأرض.

حدّثني واصل قال حدّثنا وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عبّاس نحوه.

حدّثنا ابن المثنّى قال حدّثنا ابن أبي عديّ عن شعبة عن سليمان عن أبي ظبيان عن ابن عبّاس قال أوّل ما خلق الله تعالى القلم فجرى

بما هو كائن ثمّ رفع بخار الماء فخلقت منه السّموات ثمّ خلق النّون فبسطت الأرض على ظهر النّون فتحرّك النّون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فإنّ الجبال لتفخر على الأرض قال وقرأ: «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ [1].»

حدّثني تميم بن المنتصر قال أخبرنا إسحاق عن شريك عن الأعمش عن أبي ظبيان أو مجاهد عن ابن عبّاس بنحوه إلا أنّه قال ففتقت منه السّموات.

حدّثنا ابن بشّار قال حدّثنا يحيى قال حدّثنا سفيان قال حدّثني سليمان عن أبي ظبيان عن ابن عبّاس قال أوّل ما خلق الله تعالى القلم فقال اكتب فقال ما أكتب قال اكتب القدر قال فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام السّاعة ثمّ خلق النّون ورفع بخار الماء ففتقت منه السّماء وبسطت الأرض على ظهر النّون فاضطرب النّون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال قال فإنّها لتفخر على الأرض.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا جرير عن عطاء بن السّائب عن أبي الضّحى مسلم بن صبيح عن ابن عبّاس قال أوّل شيء خلق الله تعالى القلم قال له اكتب فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم السّاعة ثمّ خلق النّون فوق الماء ثمّ كبس الأرض عليه.

قيل ذلك صحيح على ما روي عنه وعن غيره من معنى ذلك مشروحا مفسّرا غير مخالف شيئا ممّا رويناه عنه في ذلك.

فإن قال وما الّذي روي عنه وعن غيره من شرح ذلك الدّالّ على صحّة كلّ ما رويت لنا في هذا المعنى عنه.

قيل له حدّثني موسى بن هارون الهمدانيّ وغيره قالوا حدّثنا عمرو بن حمّاد حدّثنا أسباط بن نصر عن السّدّيّ عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمدانيّ عن عبدالله بن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هو الّذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثمّ استوى إلى السّماء فسواهنّ سبع سموات.»

قال إنّ الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء فلمّا أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسمّاه سماء ثمّ أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والإثنين فخلق الأرض على حوت والحوت هو النّون الّذي ذكر الله عزوجلّ في القرآن «ن وَالْقَلَمِ » والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصّفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصّخرة على الرّيح وهي الصّخرة الّتي ذكر لقمان ليست في السّماء ولا في الأرض فتحرّك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرّت فالجبال تفخر على الأرض فذلك قوله تعالى: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ.» قال أبو جعفر فقد أنبأ قول هؤلاء الّذين ذكرت إنّ الله تعالى أخرج من الماء دخانا حين أراد أن يخلق السّموات والأرض فسما عليه يعنون بقولهم فسما عليه علا على الماء وكلّ شيء كان فوق شيء عاليا عليه فهو له سماء ثم أيبس بعد ذلك الماء فجعله أرضا واحدة.»

كانت عيناه تجولان، وقد بدا عليهما التّعب، فصارتا ترفّان دون انقطاع، فعلم أنّه عليه أن يتوقّف عند ذلك الحدّ وأن يخلد للرّاحة. نعم، سيرتاح إلى حين، وسيواصل في الأيّام المقبلة كتابته على الحواشي. لا يعلم لماذا كان مسكونا بالبدء، الطّفوّ من عدم، الانبثاق، السّريان الأبديّ من اللاّشيء، حتّى ولا ذاكرة تحيل، وإنّما انبعاث، كما في لحظة تجلّ، يشمل كلّ شيء ويفيض على كلّ شيء. سينام إلى حين. سيغمض عينيه أخيرا، وسيؤمّل أن يغطّ في نوم عميق. لحسن حظّه لن تكون هناك كوابيس، فهو يعلم ذلك، فمتى كان يكتب ومسكونا بهذه الأسرار، ستنأى عنه الكوابيس وتتركه في حال سبيله. أمّا إذا كانت العطالة أخيرا، وهربت من دماغه كلّ الأفكار الكبيرة، وغادره شيطان الكتابة، فستنبعث في كيانه كلّ الجنّة الّتي كانت إلى حين مكبّلة بأصفادها الثّقيلة، وستحلّ الأحلام المزعجة، وسيبدأ قلقه

وخوفه من أنّ ثمّة في الأفق مخاطر لا بدّ أن تتجسّد في شتّى أشكال الموت، وسيشعر حيالها بالخوف، ليس لأنّه يريد أن يعمّر لأطول وقت ممكن، ولكن لأنّه لا بدّ أن ينهي ما بدأه... لأنّه بدأ يرى أشياء لم يكن غيره قادرا على رؤيتها، ولأنّه بات يدرك أنّ شخصا ما، في مكان ما، يرنو إليه، يتطلّع إليه، ربّما يريد أن يبثّه شيئا، أن يطلعه على شيء ما، سرّ ما، أو حكاية ما لا يجب عليه أن يدعها تفرّ منه... لا يذكر متّى كحّلت عينيه أطياف النّوم أخيرا، كما لا يذكر أنّه رأى شيئا مميّزا تلك اللّيلة رغم أنّه ينام في مكان غير مكانه المعتاد، ويتمدّد على حشيّة ليست هي نفس الحشيّة الّتي اعتادها جنبه في خان بهرام. كان تنفّسه منتظما، ولم يتقلّب إلاّ لماما؛ والطّريف في الأمر، أو الغريب، هو لا يعرف تحديدا، أنّ ما كان كتبه، كانت تندسّ فيه أشياء كثيرة لم يكتبها، أشياء كانت تنسرب بين السّطور؛ كان يرى مخايل، وظلالا، وأطيافا، ليست لأشخاص بأعيانهم، ولكن تنويعات لطيف واحد كانت تتكرّر، ويذكر أنّه كان يريد أن يعرف من هذا الغريب الّذي يقتحم عليه ذاكرته؛ لم يبد عليه أنّه يريد أن يخيفه أو يربكه، ولكن فقط كان يذهب ويجيء، كأنّما يروم أن يشدّ انتباهه، كنقطة سوداء في مرمى خياله تبدأ صغيرة ثمّ تبدا في التّضخّم شيئا فشيئا. كان كلّ شيء سديميّا، دون أصوات تذكر، أو حتّى همهمات؛ وكان وهو نائم، نائم وليس بنائم، واعيا وليس بواع تماما، يرى ولا يرى، ينظر ولا ينظر، ويريد أن يكون واقعا في عالمه الآخر، عالم نومه، وأن يتتبّع ذلك الّذي يراه، ولكن ليس إلى ذلك سبيل. كان مطمئنّا، وكان مكتفيا بذاته، وفي ذاته؛ ولكن قبل كلّ شيء وبعده، لماذا يعجل؟ لماذا تنازعه نفسه إلى القرب؟ أو إلى أيّ حالة من حالات التّجلّي؟ والموقف واحد والمواقف متعدّدة، وفي المخاطبات، لا يكون سوى مخاطب واحد، وهو المخاطب؛ ومن الأعالي، كانت تأتيه الأصوات، أو هو صوت واحد، لا يعرف على وجه التّحديد... «أوقفني»، و«كنت أنا الموقف»، ولم يشعر أنّه عليه أن يوقف، أو أن يقاطع، ما

دام جاء إلى هنا كي يكون شاهدا، وما دام هو الشّاهد فقد أريد له كذلك أن يكون مبلّغا... في الصّباح، قبل بزوغ الشّمس بقليل، كان رسول كبير الشّرطة، ينتظره ليقوده إلى ديوان سيّده مرّة أخرى، وما أن رآه حتّى ابتدره بالسّؤال:

-كيف أصبح ضيفنا اليوم؟

ردّ طاجيك، وهو ما يزال تحت تأثير ما كان رآه، وكان يشعر أنّه خفيف لا تكاد تحمله الأرض من تحته:

- على أحسن حال بفضل سيّدي كبير الشّرطة.

وسأله كبير الشّرطة مرّة أخرى:

- وهل توفّقت في الكتابة؟ وفيما كتبت؟

كان طاجيك يريد أن يخفي عنه، أن يستأثر بهذا الشّيء لنفسه، لأنّه لم يكن من عادته أن يفصح عن أشيائه الحميمة قبل أن تخرج إلى النّور بنفسها فيقرأها الجميع ويثنون عليه بعد ذلك، لأنّه جنّبهم الكثير من الخوض في ثنايا أضابير لا تنتهي أبدا، ولا يستنفدها وقت أغلب النّاس الّذين كانت تشدّهم إلى غير العلم مشاغل وشؤون بيوت، والقيام بأمر أزواج وبنين؛ ولكنّه أيضا لم يكن يرغب أن يقطع الأسباب بينه وبين هذا الرّجل الّذي بلغ النّهاية في الإحسان إليه ومساعدته، فقال فيما يشبه الحياء:

-لقد توفّقت بحمد الله كثيرا... ورغم أنّي لم أكتب إلاّ ما تيسّر، فإنّي راض مع ذلك كلّ الرّضى...

وسكت قليلا، كأنّه أراد أن يغفل الشّطر الثّاني من السّؤال؛ وقد لمس كبير الشّرطة ذلك، فأراد أن يبيّن له أنّ فراسته الّتي لم تخب في بداية لقائهما، لا يمكن لها كذلك أن تخيب هذه المرّة، فقال وهو يداعب ذوائب لحيته الّتي بدأ يوخّطها الشّيب:

-يبدو أنّ لك كلفا ببدايات الأشياء؛ ويظهر لي أنّ طول انقطاعك عن النّاس كان يشدّك إلى الماضي... إلى الخلف؛ وأنت تريد أن تعرف...

ترك كلّ شيء معلّقا، ولم يرد أن ينظر إليه في عينيه، ليعرف تأثير كلامه في تقاطيع وجهه، لأنّه كان يعلم أنّ كلامه قد أحدث تأثيره في ملامحه الّتي كان يعلم أنّه قد اكتنفها ما يشبه الذّهول والانصعاق، وكان يضحك في داخله، ولو ترك لنفسه العنان لانطلقت ضحكته مدويّة لتفرقع في أجواز الدّيوان. استغرق طاجيك وقتا حتّى يثوب إلى نفسه، وحينما همّ أن يتكلم وجد أنّ الرّجل قد سبقه مرّة أخرى إلى الكلام:

-أيّها الغريب، إنّ هناك شخصا يهمّه أمرك، وإن لم تكن تعرفه أو تكون قد رأيته من قبل، فهو...

قاطعه طاجيك في إعوال:

أيّ رجل تعني، يا سيّدي؟

ثمّ بعد أن أسعفه وعيه تماما:

-ثمّ من الذّي أعلمك بما أكتبه هذه الأيّام؟

كان كبير الشّرطة ما يزال خافضا رأسه، وقد استكانت أنامله على لحيته الّتي كانت تضطرب بهدوء تحت تأثير نسمات عذاب كانت تنتشر في الدّيوان من حين لآخر. لم يشأ أن يدكّ حصون كيانه دفعة واحدة، فقد كان به رفيقا، وعليه حادبا، وإنّما رفع رأسه بهدوء حتّى التقت عيونهما في لحظة كانت أقلّ من الثّانية، ولكنّها كانت كافية لتقول لطاجيك أنّ كبير الشّرطة هذا هو لغز من الألغاز الّتي لا يمكنه أن يفهمها أو يستسيغها بسهولة.

قال كبير الشّرطة:

يا ولدي، عليك أن تعلم شيئا الآن... أهل الطّريق تكون الحجب لهم مكشوفة؛ وما يبدو لغيرهم مغاليق مختومة، تكون بأيديهم مفاتيحها؛ وأنا لا أريد أن أبلبل ذهنك الآن، ولكن سأكتفي بالقول إنّ أحدا يهمّه أمرك قد جاءني البارحة واستوصى بك خيرا...

أراد طاجيك أن يقاطعه، أن يستفسر منه، أن يجلّي له الغموض

الذّي في كلامه، أن يكشف المعمّيات الّتي لفّه في أحابيلها، ولكنّ الرّجل أشار إليه أن يتوقّف، وواصل قائلا:

-ولم أجد خيرا من استيصائه بك خيرا أن أصحبك إلى منزلي... ستكون في البداية ضيافة، وسنتكلّم بعد ذلك... لا تراع، يا ولدي، ولكن كن على ثقة أنّي لا أريد بك شرّا... أنت الآن في مقام ولدي، والرّجل الّذي جاءني، ويعرفك حقّ المعرفة، ليس غريبا عنّي كذلك.

وبعد أن استقرّ بهما المقام في منزله الّذي كان بظاهر المدينة ولا يبتعد كثيرا عن قصور الوالي وبقيّة موظّفي الدولة، والّذي كان منزلا حسن الهيئة، كثير الرّياش، وافر الأثاث، قد وضع كلّ شيء فيه في موضعه الصّحيح، وكان يبدو أنّ يدا صنّاعا كانت تتعهّده في كثير من الرّعاية والحنان. وكان طاجيك طوال الوقت يتساءل، ويعيد طرح السّؤال على نفسه، هل في الدّار من نساء، لأنّه طوال الوقت الّذي قضاه مع كبير الشّرطة، كان الخدم من الرّجال هم الّذين يقومون بخدمتهما. ومن غريب أنّ كبير الشّرطة كان على علم بما يختلج في صدره، ولكنّه أراد أن يؤجّل الكلام إلى حين الفروغ من طعامهما ومن إتمام واجب الضّيافة الّتي هي للضّيف على المضيف. وبينما كانا يشربان اليانسون سويّا، وقد استقرّ بهما المقام في المجلس الّذي هو في صدر المنزل، قال:

-يا ولدي، إنّ لك دربا سيتّضح في مستقبل أيّامك، وسيكون لك شأن عظيم... وأرجو أن لا تسألني الآن عن ذلك؛ لأنّه سيكون معلوما لديك بعد لأي. وقد أدرت شيئا في رأسي، وأريد أن أطرحه عليك رغم علمي بغربتك؛ وأنا مخيّرك، ولن أجبرك على شيء لا تحبّه...

وصمت.

قال طاجيك، وقد بدأت تساوره بعض الشّكوك:

-خيرا إن شاء الله.

تنحنح كبير الشّرطة كأنّما أراد أن يذهب شبيه العكمة في حلقه،

ثمّ قال:

-هل لك في نصف دينك، يا ولدي.

ونظر إليه هذه المرّة في تحديد من يريد أن يعرف الجواب في وجهه قبل أن ينطق به لسانه. لم يكن طاجيك يعرف تحديدا ماذا يجب عليه أن يقول؛ ولمّا طال الصّمت وأدرك أنّ عليه أن يقول شيئا، انطلق لسانه في النّهاية واهنا وهنا يشي باضطرابه وحيرته:

- إنّه لمن دواعي سروري، يا سيّدي؛ ولكن لا يخفى عليك وضعي وأنا غريب في ديار غربة، فكيف لي أن أقوم بشؤون زوجة وبيت...؟

ولكنّ الرّجل استوقفه:

-فكيف إذا كان هناك من سيكفيك كلّ ذلك؟

لم يكن طاجيك يعلم إلى حدّ تلك اللّحظة أنّ مضيفه يعرض عليه ابنته الّتي لم يكن قد رآها بعد وأنّه ينوي، أكثر من ذلك، أن يكفيه مؤونة كلّ شيء، وأن يستقبله في داره معزّزا مكرّما.

قال:

-وإنّه، يا سيّدي، زيادة على شؤون الزّوجة والبيت، والعيال إن قدّر الله مجيئهم، هناك سعيي وراء العلم؛ وأنا رجل كما تعلم لا يستقرّ بي المقام في مكان. ومازلت لا أعلم شيئا عن حال والدي ومن هي لي بمقام الوالدة.

كان كبير الشّرطة يستمع إليه في اهتمام، ولم يشأ أن يقاطعه أو يشعره أنّه يريد التّأثير عليه، لأنّ القرار سيكون قراره في النّهاية، رغم أنّه كان يعلم كلّ أحواله، وكان يرغب من أعماق نفسه لو يكون الزّوج لابنته الّتي كان يحبّها أكثر من كلّ شيء في دنياه؛ كما كان يعلم أيضا أنّ الرّجل منذور لشيء آخر أكثر من الزّواج ومن المقام؛ ولكن، فليحاول على الأقلّ... وربّما وجد كلّ هذا الاقتراح هوى في نفس ضيفه...

قال:

-يا ولدي، لقد أعجبتني خلالك، رغم أنّنا لم نتعارف إلاّ منذ حين:

وأنا الآن أقدّم لك ابنتي. إن أردت. زوجة ومعينة لك على هموم الحياة؛ وإذا قبلت فلن تكون في حاجة إلى سعي أو جهد، ومنزلي هو منزلك، وكلّ ما أملكه سينتقل إليك بعد موتي؛ وإنّي وإن كنت أسال الله من كلّ قلبي أن يتمّ هذا الزّواج، فلن أكرهك على شيء لا تحبّه؛ وابنتي هي كلّ شيء بقي لي في هذه الدّنيا بعد وفاة والدتها، وليس لها إخوة أو أخوات؛ وأنا أريد الاطمئنان عليها قبل أن أموت؛ وقد قلت في نفسي لن أجد لها خيرا منك؛ فإن قبلت سيكون ذلك غاية المراد، وسأكون لك ممتنّا ما حييت، وإن كان غير ذلك فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم...

أراد طاجيك أن يتكلّم. كان يشعر أنّ حلقه تتازحمه العبرات، وأنّ قلبه قد تألبّت عليه مشاعر من كلّ حدب وصوب، ومن كلّ عمق وفجّ، مشاعر غاية في التّناقض، حبّ ما له حدود لهذا الرّجل الّذي وثق فيه إلى الحدّ الّذي عرض عليه فيه ابنته قرّة عينه، وتبكيت لنفسه لعدم قدرته على اتّخاذ القرار المناسب، رغبة تشدّه إلى بخارى والمكوث بها، وشعوره أنّه يجب عليه أن يغادر، ليس بالضّرورة إلى بغداد حيث والده وبوران، ولكن لشيء آخر أو سرّ آخر ما زال لا يعلمه حقّ العلم، رغبته في الأنس، أن يكون له في هذه الدّنيا من يمنحه العطف والحنان والسّكن، وإلفته الوحدة والعزلة بعيدا عن النّاس ودنيا النّاس؛ فماذا عليه أن يفعل إذن؟!! ربّما سيكون عليه أن لا يفعل شيئا، وأن يدع أمره للأقدار تصرّفه كيف تشاء!! ربّما سيكون عليه أن يطلب مهلة للتّفكير وأن لا يتسرّع!! ربّما سيندم فيما بعد إذا قال لا، وفورا، والرّجل يعرض عليه ليس ابنته فقط، ولكن المال والبيت، والإرث من بعد موته!! ولكن ماذا يفعل في هذه الأصوات الّتي تلاحقه؟ وهذه الصّورة الّتي باتت تصاحبه كلّما أخلد إلى النّوم؟ يريد أن يعرف تلك الصّورة ويريد أن يعرف صاحبها. تململ قليلا في مكانه، ولاحظ كبير الشّرطة منه ذلك؛ فأدرك بدوره أنّ أمرا كهذا لا يحلّ في ثواني معدودات، وأنّ بعض الوقت قد يمنحه وضوح رؤية وصواب قرار، فقال يهوّن عليه

بعض الشّيء:

-اسمع، يا ولدي. امنح نفسك وقتا للتّفكير قبل أن تقدم؛ وإنّي لأعلم حقّا أنّ الأمر ليس بهيّن. ولكن، حتّى - لا قدّر الله - لم يكن هناك نصيب، فلا يمنع ذلك أن نظلّ أصدقاء، ويمكن أن تطلبني كلّما احتجت إليّ.

فشكره من قلبه واستأذن ليعود إلى غرفته بالخان. كان الوقت ما يزال ضحى حين فتح باب الغرفة ودخل. لم يكن لديه في ذلك اليوم شيء محدّد ليفعله، ولكنّه وجد رأسه تكاد تنفجر ممّا حصل له في اليوم السّابق، وانضاف إلى مشاغله همّ جديد كان عليه أن يبتّ فيه وبسرعة. أراد أن يتمدّد على حشيّته، وأن يغمض عينيه، وينسى للحظات كلّ شيء، وأن يخلو لنفسه لبعض الوقت. تلفّه عطالة المكان والزّمان، ولكن باءت محاولته بالفشل، ووجد أنّ خير حلّ كي يتخفّف من حمله أن يكتب من جديد. أخرج السّفر من مخلاته، وتاريخ الأمم والرّسل، ونشر دفاتره، وقد مرّ أمام عينيه آخر ما كتبه. كانت الأشياء إلى حدّ تلك اللّحظة واضحة في ذهنه، وكانت مسائل الخلق قد أخذت حظّها من التّعليق، وكان يعي أنّه قد وصل إلى الجانب المهمّ من المسالة، خلق الله تعالى لآدم، وعصيان إبليس؛ وقلّب السّفر، تصفّح أوراقه، ودقّق، كان يريد أن يتأكّد فيما إذا كانت التّوراة قد تحدّثت عن إبليس كما فعل المؤرّخون العرب أم أنّها اكتفت بالمرور عليه مرورا عابرا. وشدّ انتباهه شيء في الإصحاح الثّاني، وما ذكر عن اليوم السّابع: «[1]فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. [2]وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. [3]وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا.» لم يعجب كثيرا، ولم يصب بالدّهشة جرّاء ما قرأه لأنّه يعلم أنّ يهود لا يبالون كثيرا بقداسة الرّبّ وأنّهم يتعاملون معه على أنّه يد ورجل وجوارح ومشاعر كمشاعر النّاس لأنّ غالبيّتهم

الغالبة من المجسّمة والمشبّهة؛ وهو يعلم أنّهم متّسقون مع أفكارهم، لأنّه في عرفهم إذا كان أيّ شخص لا يعلمون عنه إلاّ ما يعلمون عن أنفسهم، وأنّهم بشر يتعبون، ويجري عليهم ما يجري على غيرهم من بني جنسهم، فإنّ من كان مثلهم لا بدّ أن يجري عليه ما يجري عليهم؛ فجعلوا الله - تعالى عمّا يصفون – كائنا من جملة الكائنات، وهو يجري عليه التّعب كما يجري عليهم فجعلوا له يوما يرتاح فيه، وهو اليوم السّابع. كتب ذلك على الحاشية، وأخذ مؤلّف الطبريّ وتصفحّه في عناية لينظر إلى الرّوايات وجملة الرّواة الّذين نقلوا ما ذكر عن إبليس في الأبواب المخصّصة له في المؤلّف؛ وقد اختلف السّلف في نسبته وما كان عليه أمره، وهل هو ملك من الملائكة، أم من نسل قوم من الجنّ أو الجانّ، على اختلاف الأقوال في ذلك- وما كانت مهامّه، وهل كان مقدّما في السّموات، أم كان مجرّد ملك على قبيل من الجنّ.

«ذكر الأخبار الواردة بأنّ إبليس كان له ملك السّماء الدّنيا والأرض وما بين ذلك.

حدّثنا القاسم بن الحسن قال حدّثنا الحسين بن داود قال حدّثني حجّاج عن ابن جريج قال: قال ابن عبّاس كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان الدّنيا وكان له سلطان الأرض.

حدّثنا القاسم قال حدّثنا الحسين قال حدّثني حجّاج عن ابن جريج عن صالح مولى التوءمة وشريك بن أبي نمر أحدهما أو كلاهما عن ابن عبّاس قال إنّ من الملائكة قبيلة من الجنّ وكان إبليس منها وكان يسوس ما بين السّماء والأرض.

حدّثنا موسى بن هارون الهمدانيّ قال حدّثنا عمرو بن حمّاد قال حدّثنا أسباط عن السّدّيّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن مسعود وعن ناس من

أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم جعل إبليس على سماء الدّنيا وكان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجنّ وإنّما سمّوا الجنّ لأنّهم خزّان الجنّة وكان إبليس مع ملكه خازنا.

حدّثني عبدان المروزيّ حدّثني الحسين بن الفرج قال سمعت أبا معاذ الفضل بن خالد قال أخبرنا عبيد الله بن سليمان قال سمعت الضّحّاك بن مزاحم يقول في قوله عزّوجلّ فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ [1] قال كان ابن عبّاس يقول إنّ إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان سماء الدّنيا وكان له سلطان الأرض.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة قال حدّثنا المبارك بن مجاهد أبو الأزهر عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن صالح مولى التوءمة عن ابن عبّاس قال إنّ من الملائكة قبيلا يقال لهم الجنّ فكان إبليس منهم وكان يسوس ما بين السّماء والأرض فعصى فمسخه الله شيطانا رجيما» وكتب معلّقا: «وهذه الأقوال، على اختلافها الطّفيف في ملفوظاتها، إنّما تجمع على نبل محتد عدوّ الله إبليس قبل عصيانه، وأنّه كان مقدّما على الملائكة، وكان فوق ذلك خازنا من خزّان الجنان؛ وقد عصى الله تعالى الّذي أمره بالسّجود لآدم، فأبى، فمسخه الله شيطانا رجيما.»

«ذكر الخبر عن غمط عدوّ الله نعمة ربّه واستكباره عليه وادّعائه الرّبوبيّة»

حدّثنا القاسم قال حدّثنا الحسين قال حدّثني حجّاج عن ابن جريج: «ومن يقل منهم إنّي إله من دونه.» قال: قال ابن جريج من يقل من الملائكة إنّي إله من دونه فلم يقله إلاّ إبليس دعا إلى عبادة نفسه فنزلت هذه الآية في إبليس.

حدّثنا بشر بن معاذ قال حدّثنا يزيد قال حدّثنا سعيد عن قتادة:

«ومن يقل منهم إنّي إله من دونه فذلك نجزيه جهنّم كذلك نجزي الظّالمين.» وإنّما كانت هذه الآية خاصّة لعدوّ الله إبليس لمّا قال ما قال لعنه الله وجعله رجيما فقال: «فذلك نجزيه جهنّم كذلك نجزي الظّالمين.»

حدّثنا محمّد بن عبد الأعلى قال حدّثنا محمّد بن ثور عن معمر عن قتادة: «ومن يقل منهم إنّي إله من دونه فذلك نجزيه جهنّم.» قال هي خاصّة لإبليس.» وكتب: «والآية المشار إليها في الرّوايات هي الآية التّاسعة والعشرون من سورة الأنبياء الشّريفة؛ وقد تحدّث الرّواة وقالوا في تأويل هذه الآية بالرّجوع إلى أقوال من قال إنّ اللّعين إبليس قد ادّعى الرّبوبيّة من دون الله تعالى، والرّواية الأولى ممّا تناقله الرّواة عن ابن جريج؛ والثّانية عن قتادة الّذي يأخذ عنه في الغالب شعبة، وقتادة يروي عن أنس رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وفي العهد القديم، في إصحاحه الثّالث لا نجد ذكرا لإبليس، بل نجد ذكرا للحيّة الّتي أغوت أمّنا حوّاء وأبانا آدم عليه السّلام: «[١]وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» [٢]فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، [٣]وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». [٤]فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! [٥]بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». [٦]فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. [٧]فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ.

[٨]وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. [٩]فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». [١٠]فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي

الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». [11] فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» [12] فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». [13] فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». [14] فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. [15] وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». [16] وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ». [17] وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. [18] وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. [19] بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

[20] وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. [21] وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا.

[22] وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». [23] فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. [24] فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.» وفي الحاشية كتب: «هناك أمور يجب التّنبيه إليها فيما ورد في الإصحاح الرّابع، وهي مسائل غاية في الدّقّة، وتفرّد بها العهد القديم؛ وأولها أنّ ما ورد في الإصحاح هو أشبه برواية، أو حكاية، واحدة بلا سند؛ وهي في أغلبها محاورة، في البداية بين الحيّة وأمّنا حوّاء المكنّى عنها بالمرأة لاعتقاد أهل التّوراة أنّها سبب اللعنة وهي من أغوت «رجلها»، أي أبانا آدم بالأكل من الشّجرة

المحرّمة. والمقطوع به، وهو ثاني الأمور، أنّ يهود ينظرون إلى الله تعالى على أنّه كائن يغضب ويفرح، ويحسّ بالتّعب والرّاحة، وأنّه يحقد ويحسد، ويخاف؛ وقد خاف أن يأكل الرّجل والمرأة من شجرة الحياة فيصبحا مثله يعرفان الخير والشّرّ؛ وهذا من فساد العقائد، والكلام بالجهل في مسائل الدّين، وإنّما الصّواب ما جاء به القرءان، وما حدّث به عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فليس ما هناك سند له كمن لا سند له؛ وفي القرءان الكريم ليس هناك ذكر للحيّة، والغواية أيضا لم تختصّ بها أمّنا حوّاء دون أبينا آدم وإنّما الغواية مشتركة، والله تعالى، رغم ذلك، لم ينتقص من قدر أمّنا حوّاء الّتي وإن لم يشر إليها القرءان باسمها فإنّما ذكرها بأجمل نعوتها وهي «زوجك». فتبارك الله وتعالى عمّا يقولون علوّا كبيرا.»

«القول في الأحداث الّتي كانت في أيّام ملك إبليس وسلطانه والسّبب الّذي به هلك وادّعى الرّبوبيّة.

فمن الأحداث الّتي كانت في ملك عدوّ الله إذ كان لله مطيعا ما ذكر لنا عن ابن عبّاس في الخبر الّذي حدّثناه أبو كريب قال حدّثنا عثمان بن سعيد قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضّحاك عن ابن عبّاس قال كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خلقوا من نار السّموم من بين الملائكة. قال وكان اسمه الحارث قال وكان خازنا من خزّان الجنّة قال وخلقت الملائكة كلّهم من نور غير هذا الحيّ قال وخلقت الجنّ الّذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وهو لسان النّار الّذي يكون في طرفها إذا ألهبت قال وخلق الإنسان من طين فأوّل من سكن الأرض الجنّ فأفسدوا فيها وسفكوا الدّماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحيّ الّذين يقال لهم الجنّ فقتلهم إبليس ومن معه حتّى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلمّا فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه

وقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد قال فاطّلع الله على ذلك من قلبه ولم تطّلع عليه الملائكة الّذين كانوا معه.

حدّثني المثنّى قال حدّثنا إسحاق بن الحجّاج قال حدّثنا عبدالله بن أبي جعفر عن أبيه عن الرّبيع بن أنس قال إنّ الله خلق الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجنّ يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة قال فكفر قوم من الجنّ فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقتلهم فكانت الدّماء وكان الفساد في الأرض.» وهو يتأمّل فيما تناقله الرّواة عن إبليس جنحت به نفسه قليلا، وتفكّر في أمر العباد كيف يرفع الله تعالى مقامهم ويعلي من شأنهم ويعطيهم من كلّ ما يسألون ومن كلّ ما لا يسألون، فيتمرّدون عليه بعد ذلك، وهو بهم عليم، وهو بهم رحيم، وهو فوق ذلك يمهلهم ولا يعجّل لهم في العقوبة؛ ولو كان عجّل لهم في العقوبة، لما ترك على ظهرها ديّارا ولا نافخ نار. وما أمر إبليس إلاّ مبدأ أمر العصاة وهو رأسهم، وهو مبدأ الشّرّ والفساد في الأرض، ومن قبل ذلك في السّماء حينما أغرته نفسه بعصيان ربّ العباد، ليس لشيء إلاّ أنّه استكبر على السّجود لآدم زعما منه أنّ معدنه أفضل من معدنه وأنّ النّار أرفع من الطّين، وهو لا يعلم أنّ أساس التّفاضل بين النّاس إنّما هو التّقوى والإيمان للحديث المذكور عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: حدّثنا إسماعيل قال: حدّثني مالك عن عمرو بن يحي المازنيّ عن أبيه عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «يدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار، ثمّ يقول الله تعالى أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد اسودّوا فيلقون في نهر الحيا . أو الحياة، شكّ مالك . فينبتون كما تنبت الحبّة في جانب السّيل، ألم تر أنّها تخرج صفراء ملتوية.» قال وهيب حدّثنا عمرو: «الحياة.»وقال: «خردل من خير.» وفي الحديث الآخر من صحيح البخاريّ رحمه الله ما حدّث به محمّد بن عبيد الله قال: حدّثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل أنّه

سمع أبا سعيد الخدريّ يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بينا أنا نائم رأيت النّاس يعرضون عليّ، وعليهم قمص منها ما يبلغ الثّديّ، ومنها ما دون ذلك، وعرض عليّ عمر بن الخطّاب وعليه قميص يجرّه.» قالوا: فما أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: «الدّين.» ثمّ جالت عيناه وهو ما يزال تحت تأثير خواطره على السّبب الّذي من أجله هلك عدوّ الله إبليس لمّا سوّلت له نفسه الاستكبار على ربّ العالمين عزّوجلّ، حيث يقول الإمام أبو جعفر الطّبريّ: «اختلف السّلف من الصّحابة والتّابعين في ذلك وقد ذكرنا أحد الأقوال الّتي رويت في ذلك عن ابن عبّاس وذلك ما ذكر الضّحّاك عنه أنّه لمّا قتل الجنّ الّذين عصوا الله وأفسدوا في الأرض وشرّدهم أعجبته نفسه ورأى في نفسه أنّ له بذلك من الفضيلة ما ليس لغيره والقول الثّاني من الأقوال المرويّة في ذلك عن ابن عبّاس أنّه كان ملك سماء الدّنيا وسائسها وسائس ما بينها وبين الأرض وخازن الجنّة مع اجتهاده في العبادة فأعجب بنفسه ورأى أنّ له بذلك الفضل فاستكبر على ربّه عزوجلّ.

ذكر الرّواية عنه بذلك:

حدّثنا موسى بن هارون الهمدانيّ قال حدّثنا عمرو بن حمّاد قال حدّثنا أسباط عن السّدّيّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لمّا فرغ الله عزوجلّ من خلق ما أحبّ استوى على العرش فجعل إبليس على ملك سماء الدّنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ وإنّما سمّوا الجنّ لأنّهم خزّان الجنّة وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع في صدره كبر وقال ما أعطاني الله هذا إلا لمزيّة هكذا حدّثني موسى بن هارون.

وحدّثني به أحمد بن أبي خيثمة عن عمرو بن حمّاد قال لمزيّة لي على الملائكة فلمّا وقع ذلك الكبر في نفسه اطّلع الله عزوجلّ على ذلك

منه فقال الله للملائكة: « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .»

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عبّاس قال كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكّان الأرض وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما فذلك الّذي دعاه إلى الكبروكان من حيّ يسمّون جنّا.

وحدّثنا به ابن حميد مرّة أخرى قال حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس أو مجاهد أبي الحجّاج عن ابن عبّاس وغيره بنحوه إلاّ أنّه قال كان ملكا من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكّان الأرض وعمّارها وكان سكّان الأرض فيهم يسمّون الجنّ من بين الملائكة.

حدّثنا ابن المثنّى قال حدّثنا شيبان قال حدّثنا سلام بن مسكين عن قتادة عن سعيد بن المسيّب قال كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدّنيا.

والقول الثّالث من الأقوال المرويّة عنه أنّه كان يقول السّبب في ذلك أنّه كان من بقايا خلق خلقهم الله عز وجلّ فأمرهم بأمر فأبوا طاعته.

ذكر الرواية عنه بذلك:

حدّثني محمّد بن سنان القزّاز قال حدّثنا أبو عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عبّاس قال إنّ الله خلق خلقا فقال اسجدوا لآدم فقالوا لا نفعل قال فبعث الله عليهم نارا تحرقهم ثمّ خلق خلقا آخر فقال إنّي خالق بشرا من طين فاسجدوا لآدم فأبوا فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم قال ثمّ خلق هؤلاء فقال ألا تسجدوا لآدم قالوا نعم قال وكان إبليس من أولئك الّذين أبوا أن يسجدوا لآدم.

وقال آخرون بل السّبب في ذلك أنّه كان من بقايا الجن الّذين كانوا

في الأرض فسفكوا فيها الدّماء وأفسدوا فيها وعصوا ربّهم فقاتلتهم الملائكة.

ذكر من قال ذلك:

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا يحيى بن واضح قال حدّثنا أبو سعيد اليحمديّ إسماعيل بن إبراهيم قال حدّثني سوار بن الجعد اليحمديّ عن شهر بن حوشب قوله: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ.» قال كان إبليس من الجنّ الّذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السّماء.

حدّثني عليّ بن الحسن قال حدّثني أبو نصر أحمد بن محمّد الخلاّل قال حدّثني سنيد بن داود قال حدّثنا هشيم قال أخبرنا عبدالرّحمن بن يحيى عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل عن سعد بن مسعود قال كانت الملائكة تقاتل الجنّ فسبي إبليس وكان صغيرا وكان مع الملائكة يتعبّد معهم فلمّا أمروا أن يسجدوا لآدم سجدوا وأبى إبليس فلذلك قال الله عزوجل: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ.»

قال أبو جعفر وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصّواب أن يقال كما قال الله عزّوجل: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » وجائز أن يكون فسوقه عن أمر ربّه كان من أجل أنّه كان من الجنّ وجائز أن يكون من أجل إعجابه بنفسه لشدّة اجتهاده كان في عبادة ربّه وكثرة علمه وما كان أوتي من ملك السّماء الدّنيا والأرض وخزن الجنان وجائز أن يكون كان لغير ذلك من الأمور ولا يدرك علم ذلك إلاّ بخبر تقوم به الحجّة ولا خبر في ذلك عندنا كذلك والاختلاف في أمره على ما حكينا ورويناه.

وقد قيل إنّ سبب هلاكه كان من أجل أنّ الأرض كان فيها قبل آدم الجنّ فبعث الله إبليس قاضيا يقضي بينهم فلم يزل يقضي بينهم بالحقّ ألف سنة حتىّ سمّي حكما وسمّاه الله به وأوحى إليه اسمه فعند ذلك دخله الكبر فتعظّم وتكبّر وألقى بين الّذين كان الله بعثه

إليهم حكما البأس والعداوة والبغضاء فاقتتلوا عند ذلك في الأرض ألفي سنة فيما زعموا حتّى أنّ خيولهم تخوض في دمائهم قالوا وذلك قول الله تبارك وتعالى: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) .» وقول الملائكة: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ .» فبعث الله تعالى عند ذلك نارا فأحرقهم قالوا فلمّا رأى إبليس ما نزل بقومه من العذاب عرج إلى السّماء فأقام عند الملائكة يعبد الله في السّماء مجتهدا لم يعبده بشيء من خلقه مثل عبادته فلم يزل مجتهدا في العبادة حتى خلق الله آدم فكان من أمره ومعصيته ربّه ما كان.» وهو يقرأ، قبل أن يكتب، أراد أن يردّ الآيات المذكروة في الرّوايات إلى سورها، ومنها ما ذكر في البداية جزء منها، ثمّ أثبتت بعد ذلك الآية كاملة، من مثل « كَانَ مِنَ الْجِنّ»، الّتي تقع في: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) .» وهي الآية الخمسون من سورة الكهف. ومثلها الآية من سورة البقرة، وهي ثاني سور القرءان العظيم، وقد ذكر في البداية شطر منها: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .» وذكرت بعد ذلك بتمامها: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠).» وهي الاية الثّلاثون من السّورة المذكورة آنفا. ومثلها أيضا الآية من سورة «ق»، وهي: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) .» وهي الآية الخامسة عشر. ثمّ هنالك أمور لا بدّ من الإشارة إليها والتّنبيه عليها؛ من ذلك مثلا أنّه ليس هناك قول واحد في مذمّة إبليس واستكباره وسبب أبوقه، وإنّما هناك أقوال متعدّدة أوردها جميعها أبو جعفر، ثمّ هو بعد ذلك يرجّح أصوبها بما صحّ من الأقوال من أحاديث يمكن أن تكون قد رويت عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فما يروى عنه صلّى الله عليه وسلّم هو المقطوع به دون

شكّ، والباقي اجتهادات وإن وردت عن أجلاّء الصّحابة الذين منهم من يكون قد استمع إلى أطراف ممّا حدّث به عبد الله بن سلام رضي الله عنه، أو وهب بن منبّه، أو كعب الأحبار الّذي هو من التّابعين. وإذا تأمّلنا هذه الرّوايات، على اختلافها، يمكن أن يكون لها رابط، وقد يوفّق بين جميعها على تباينها. فأولى هذه الأقوال أنّ إبليس كان ملك السّماء الدّنيا؛ وهو في هذه الرّواية، وإن كان ملكا، لم يحدّد جنسه أو المعدن الّذي منه خلق، إذ هناك من الرّواة من يعتبر أنّ من الملائكة من يمكن أن يكون قد خلق من نار وليس من نور؛ ثمّ تعتبر الرّواية الثّانية أنّه كان من نسل قبيل من الجنّ عصوا الله تعالى فانتقم منهم وأبادهم. وفي نفس هذه الرّواية، نجد أنّ الله تعالى قد خلق آدم وكان يخلق في كلّ مرّة فريقا من الجنّ فيأمرهم بالسّجود له فيأبون ذلك فيحرقهم، حتّى خلق خلقا ثالثا وأمرهم بالسّجود فأطاعوه إلاّ ما كان من أمر إبليس فإنّه أبى واستكبر، فكان من أمره ما هو مذكور في القرءان الكريم. وذهبت طوائف أخرى من الرّواة مذاهب أخرى، فرجّح بعضهم أنّه من قوم كانت أسرتهم الملائكة، وكان إبليس من بينهم، فرفعته الملائكة إلى السّماء؛ ونراه في هذه الرّواية صغيرا قد شبّ مع الملائكة يعبد الله عزّ وجلّ ويجتهد في عبادته حتّى كان خلق آدم الّذي أمر بالسّجود له فأبى ذلك وعزّ عليه أن يسجد لخلق خلقه الله من طين في حين كان هو مخلوقا من نار. ويرجّح أنّ اسمه كان عزازيل. ويختم الإمام محمّد بن جرير رحمه الله بترجيح أقرب هذه الأقوال إلى الصّواب، فينتهي إلى ما هو مثبت في الآية الكريمة المذكورة سلفا من سورة البقرة.

٣- الخروج

وهو يراه، الآن، كما يرى شيء على البعد، على شحط، حيث ما تزال لا جهات ولا علامات، ولا ما يشير إلى بدايات معلومة أو نهايات محتومة؛ والتّكوين الّذي كان اكتمل يعود مرّة أخرى ليلتئم على نفسه؛ وكأنّ ما قرأه وكان كتبه على الحواشي طيلة أيّام من التّعب والضّنى كان مجرّد احتمال من جملة احتمالات أخرى قد تصدق أو تخيب؛ وهو يراه، لا يدري في أيّ زمان أو أيّ مكان، أفي اليقظة أم في المنام، أم في تلك الحالة الّتي تكون بين بين، لا هي نوم كلّه أو يقظة كلّها، ولكن شيئا تكون فيه العينان شبه مغمضتين كأنّهما تريان أشياء من وراء ستار، كذلك السّتار الّذي يتّخذ في مقاصير الخلفاء حيث تكون هناك الجواري والنّساء يستمعن إلى موسيقى المغنّين والدّفّافين والعازفين على العيدان والمزاهروالبرابط؛ وهو يرى، إنّه سير إلى الأمام، إنّه خروج، وليس عود على بدء، أو استئناس بالمكان، استئناس من يعلم أنّه عائد لا محالة إلى مرابع صبا، أو أمكنة اعتيد عليها، غدا صاحبها يعرفها كمعرفته لظاهريده، وهو يريد أن يعرف على الأقلّ من هذا الّذي يخرج... كلّ ما كان يعلمه أنّ الوقت كان يقترب من العتمة، وأنّ شمسا كانت قد أفلت منذ حين؛ وهو وإن لم تكن هناك معالم واضحة، فقد كان يبدو في المحيطات الحافّة والنّهايات مخايل لعظم وكبر، لشيء لا يمكن أن تحيط به العين لأنّه كبير كبير، جدّا؛ في مثل هذه الحالات لا يكون ذلك الكبر إلاّ لمدائن كبيرة، مدائن يكثر فيها البيع والشّراء، وتكثر فيها البنايات، وتكثر فيها الدّور والقصور، وأحواض الماء، والمقاصير وكلّ شيء ترتاح إليه العين؛ ولكن أيمكن أن تكون

تلك بغداد، وأن يكون ذلك الّذي يخرج الآن هو أحد التّجّار أو أحد الرّحّالة، أو صاحب سرّ من الأسرار، أو أحد الّذين اضطرّتهم الظّروف إلى الالتحاق بشعاف الجبال لينضمّ إلى أولئك المنقطعين إلى الله، كما كان فعل التّوحيديّ رحمه الله في مبدإ شبابه، أم أنّ ذلك الخارج رجل من نوع آخر ومن زمان آخر... بات قريبا منه وهو ينظر إليه، ولم يكن عليه ما يشير إلى أنّه مثله أو مثل غيره من أهل زمانه؛ وكانت ملابسه الّتي يلبسها، على بساطتها، لا تمتّ إلى ما كان يعرفه من ملابس القوم، ليس في بغداد وحدها، ولكن في البصرة والكوفة وواسط وخراسان وبلاد ما وراء النّهر؛ وهذا الّذي يخرج، ولم يتحقّق في البداية إلاّ ملابسه، كان يبدو له كما لو أنّه كان حاسر الرّأس، خفيف الملابس، لا يلبس شملة أو قفطانا، أو سراويل كالّتي يرتديها أهل الزّمان، ولا نعاله كنعالهم، وكان يمشي خافض الرّأس...

سمع صوتا، كان خفيضا، وكانت فيه سلطة ولكن فيه رقّة أيضا؛ وكان الصّوت قريبا جدّا، فالتفت، لابت عيناه في كلّ المكان، ولم ير شيئا؛ ودقّق جيّدا، وقام، قال في نفسه لعلّ الصّوت يكو آتيا من الخارج، أو لعلّه مناد يناديه؛ كانت العتمة مطبقة، والشّارع من وراء نافذته خاليا تماما، وكان ما يسمعه مجرّد أصوات لهوامّ اللّيل تأتي من جهات مختلفة.

قال الصّوت:

-لا تراع، يا ولدي، فلن تراني الآن على الأقلّ؛ ولكن اعلم أنّي لست في أيّ مكان بالخارج، وأنا معك حيث أنت، في الغرفة، فتعال واجلس، ولا تخف.

كان خائفا، وكان مضطربا لا تكاد تحمله رجلاه؛ وذكر فجأة، كأنّما بفعل إلهام أو وحي طارئ، ما ذكره له كبير الشّرطة وربط ما كان قاله بما يراه الآن، فعرف أنّ هناك سرّا ما، وأنّ عليه أن يصبر، وأن يتأنّى، ليدرك جليّة الأمر؛ قال في حياء، وقد بدأ يزايله بعض ما ألمّ به:

من أنت، أيّها الصّوت؟

أجاب الصّوت، وبدا له أنّه بات قريبا جدّا منه، قريبا من النّضد الّذي كانت عليه أوراقه وكتبه وأضابيره:

أنا شيخك، يا ولدي.

كان محتارا؛ ولم يتحقّق معنى هذه الكلمة، الّتي لم يكن يسمعها لأوّل مرّة، فقد كان له شيوخ كثر، شيوخه في النّحووالصّرف، وشيوخه في الفقه والأصول، وشيوخه في كلّ شيء كان درسه؛ ولكنّه، وهو يسمعها الآن، هذه الكلمة، يدرك أنّ لها وقعا جديدا، أنّ معناها يختلف، وأنّ هذا الرّجل الّذي يتكلّم الآن لم يجىء ليعلّمه أيّ شيء من العلوم الّتي كان ذكرها، وإنّما جاء لشيء آخر... لسرّآخر ربّما... أو شيء أكبر من السّرّ... وربّما أيضا تكون له علاقة بهذا الخارج... هذا الطّارئ الّذي بات يراه، ليس في نومه فقط، بل في كلّ طور من أطوار حياته.

قال، وكان يشعر بعكمة تسدّ حلقه وتمنعه من الكلام، وجهد أن يخرج صوته متأنيّا وهادئا:

سيّدي، هل لي أن أسألك؟

ردّ عليه الصّوت:

-أنا، يا ولدي، لم أجىء إلى هنا إلاّ لتسألني وأجيبك.

سأل طاجيك:

-فايّ شيوخي أنت؟!

أجاب:

-إذا كنت تعتقد أنّي أحد الشّيوخ الّذين كانوا درّسوك في بغداد أو في غيرها، فاعلم أنّي لست أحدا منهم. أنا، يا ولدي، شيخ الأسرار... أنا شيخ هذا الطّور الجديد من حياتك الّذي سترى فيه وتعرف...

كانت تلك بداية غريبة، في نظر طاجيك، وقد كان يعتريها الكثير من الغموض والإلغاز، غير أنّه أصبح متحقّقا أنّه مقدم على شيء عليه من الآن فصاعدا أن يستعدّ له؛ إنّ لكلّ طور أسراره، وإنّ لكلّ طور

ما يوافقه من الاستعداد، والتّزوّد له بالمؤونة الّتي ستؤمّن له نهاية شوطه، وإنّ لكلّ طور رياضة، وعليه أن يكون متهيّئا لاتّخاذ القرار، إن كان هناك قرار سيكون عليه أن يتّخذه؛ ونطّت فجأة في ذهنه صورة صاحب الشّرطة وابنته الّتي لم يكن قد رآها بعد، والّتي كان مفروضا أن تصبح زوجته؛ وشعر لبعض لحظات أنّه يميل بكلّ قلبه المتعب إلى ما كان عرضه عليه الرّجل؛ وتخيّل نفسه في لحظة من الزّمان في ذلك البيت الفخم تسير به الحياة في هينة إلى جانب زوج جميلة وهادئة ورصينة؛ وتخيّل نفسه إلى جانب أبناء أنجبهم فصاروا قرّة عينه وملء سمعه وبصره؛ ويرتّد ثانية إلى واقعه، وإلى الصّوت من حوله، فيسأل، وهو ما يزال يجهل الشّيء الكثير عن هذه الأسرار وصاحب الأسرار:

-أيّ أسرار، يا سيّدي؟ وهل لهذه الأسرار من شيوخ؟

قال الصّوت:

-يا ولدي، الحياة كلّها أسرار، وأجمل هذه الأسرار ما يوصلك من طريق إلى طريق؛ وطرق الأسرار محفوفة بالشّوق والمكابدة، وعليك أن تكون مستعدّا دائما...

ثمّ صمت فجأة... طال الصّمت كثيرا، وظنّ طاجيك أنّه لن يتكلّم بعدها أبدا، غير أنّه سمعه يتكلّم مرّة أخرى:

-سأكون معك، يا ولدي؛ ستجدني حيث ذهبت؛ وإنّي وإن كنت لست مخوّلا في مرافقتك، فإنّ عينيّ سترعيانك...

قاطعه طاجيك:

-إنّي لا أفهم شيئا، يا سيّدي.

قال:

-أنت لست مضطرّا للفهم الآن؛ كلّ ما عليك أن تفعله أن تواصل ما كنت بدأت فيه، ولكن اترك لقلبك أيضا أن يرى... افتح عينيك جيّدا، وليكن قلبك يقظا حين تنام... إنّ من تراه، على البعد، قد يكون أنت، وقد لا يكون عليك أن تخرج مثله... إنّ من الأسفار، يا ولدي،

من يقوم بها صاحبها وهو مقيم، وقد تكون أنت ذلك المسافر المقيم...
ورحل الصّوت.

كان يشعر أنّ عليه أن يتخفّف قليلا من أحماله الّتي باتت ثقيلة؛ وكان يشعر أيضا بالتّعب جرّاء ما قام به من جهد في يومه من الكتابة على الحواشي؛ وقد كان في داخله يشعر بالرّضا للجهد الّذي بذله؛ لا يذكر أنّ أحدا من المتقدّمين أو المتأخّرين كان يهمّه كثيرا أن يقوم بهذه الحواشي في شكل مقارنات بين أسفار العهد القديم وكتب المؤرّخين العرب. نعم، كان يقرأ شروحا ضافية، وبعض التّحقيقات الّتي كان يراها من حين لآخر في سوق الورّاقين في كلّ المدن الّتي مرّ بها؛ غير أنّه لم ير حقّا شيئا كالّذي يفعله هو اليوم؛ وهو وإن كان قد بدأ هذا العمل من باب التّرفيه وقتل الوقت، فقد جدّ في حياته جديد؛ وما هذا الخارج الّذي يراه، وهذا الصّوت الّذي نبع فجأة من العدم، وكلام صاحب الشّرطة من قبل ذلك إلاّ إشارات لشيء لا يعلمه وربّما تكون له علاقة بما يكتبه. فقرّر أخيرا أن لا يتوقّف... سيترك لخياله العنان، وسيرى ما يمكن أن تؤدّي إليه كلّ هذه الرّحلة الّتي يبدو أنّه مقدّر لها أن لا تنتهي أبدا؛ ولكن قبل ذلك عليه أن يستجمّ، أن يأخذ نصيبا من الرّاحة، وأن يضطرب قليلا في خضمّ حياة النّاس، وأن يرى ما يرونه، قبل أن تأخذه مرائيه إلى عوالم غير العوالم وأسرار غير الأسرار. في القهوة، كان يجلس مرّة أخرى إلى صاحبها، علاء الدّين، وقد أضمر هذه المرّة أن يلتزم بمواعيد الحظر، وأن يمرّ على كبير الشّرطة في ديوانه للاطمئنان عليه... جاء الصّبيّ بالأراكيل وأكؤس القرفة واليانسون، ووضعها بكلّ تأنّ وأدب على النّضد القائم بين الرّجلين ورحل تلفّه جهمة ذلك اليوم الّذي كانت تبدو سحائبه في الأفق البعيد المتوشّح ببداية دكنة كانت تخفت وتكثف دون انقطاع.

قال علاء الدّين:

-يبدو أنّها ستمطر اليوم... هنا الطّقس لا يقارن بطقس بغداد،

خصوصا في هذا الوقت من السّنة.

ومدّ يده إلى خرطوم الأركيلة، وراح يسحب الدّخان إلى صدره، وهو يتأمّل الجوّ في الخارج وينظر إلى جزز السّحاب الّتي كانت تتكاثف من جهة الشّرق.

قال طاجيك، وهو يجاريه، وقد حسا حسوة كبيرة من كأس اليانسون السّاخن، وامتدّت يده إلى الأركيلة، فوضع خرطومها في فمه وراح يسحب الدّخان بعمق، وكأنّه يريد أن يطرد كلّ الأفكار الغير المرغوبة الّتي كانت انتابته في الأيّام القليلة الماضية:

-صدقت. هنا الأيّام تمرّ بسرعة والطّقس دائم التّقلّب؛ والحياة، على رتابتها والعزلة الّتي نحياها، رائقة وجميلة...

ثمّ صمت فجأة وبدا له أن يسأل الرّجل، ولكنّه كان متهيّبا؛ ربّما لا يريد علاء الدّين لشخص، وإن كان قريبا، أن يسأله، أن يتدخّل في حياته، فقد كان يبدو عليه أنّه راض بوحدته، مطمئنّا إلى رتابة حياته. غير أنّه في الأخير، قرّر أن يكسر حاجز الصّمت بينهما، فقال سائلا:

-اعذرني، يا سيّد علاء الدّين، على تطفّلي. هل لك زوجة في هذه البلاد وأبناء؟

كان علاء الدّين شاردا بعض الشّيء؛ وقد انتبه أخيرا كمن ينتبه من حلم طويل كان غارقا فيه؛ أخذ نفسا طويلا من أركيلته، وقال وقد علت وجهه غلالة طفيفة من الحزن:

-لم يقدّر لي أن أتزوّج بعد الّذي كان... إنّ نفسي قد عافت الزّواج مرّة أخرى؛ وقد كنت دائما أقول لنفسي مذ وطئت قدماي هذه الدّيار، وكنت دائم التّفكير في الزّواج وبناء بيت كبقيّة خلق الله: ماذا لو تزوّجت وحصل لي مثل الّذي حصل في بغداد؟ ومن يضمن لي أنّ الّذي حصل هناك لا يحصل هنا؟ فأجدني أحسّ بالفتور، وأقول، لا عليك، يا علاء الدّين، فقد كتب عليك أن تحيا وحيدا وتموت وحيدا... وهكذا كان. أنا الآن راض بحياتي، لست سائلا ولا مسؤولا؛ وحياتي أعيشها كفافا؛

فماذا أطلب غير ذلك؟

قال طاجيك، وقد ارتاح أخيرا، إلى اعتراف صاحبه:

-وهل تجد متعة في حياة العزوبة الّتي تحياها؟

قال علاء الدّين في اقتضاب:

-الحمد لله على كلّ حال.

كان هناك شيء ينغل في ذهن طاجيك، وكان متحرّجا منه، لأنّه لم يكن من جنس الأسئلة الّتي يطرحها عادة من يلتقون صدفة، ولم تكن بينهم سابق صداقة أو معرفة؛ ولكنّه كان يجد من علاء الدّين إقبالا كان يدفعه هو الآخر إلى الإلقاء بما بدخيلة نفسه من الهموم والأشجان. سأل:

-ألا تحنّ...

وصمت فجأة، وهو يتأمّل جلسيه بطرف عينه، في الوقت الّذي كان يحسو من كأس اليانسون، ويسحب الدّخان بلطف إلى صدره...

لم يبد على علاء الدّين ما يشي بأنّه حزر ما يدور في خلده، فقد كان ملتئما على نفسه في جلسته ما يزال ينظر إلى جزز السّحاب في الخارج؛ وكان صوت طاجيك وهو يتكلّم كأنّما يأتيه من وراء ساتر رقيق لا يسمح إلاّ بمثل الرّجع من ورائه، ولكنّه كان كافيا أن يسمعه وأن يفهم معناه. قال سائلا:

-ماذا تقصد؟!

قال طاجيك في مواربة يسعى بها إلى إخفاء ما أضمر:

-ألا ترى إلى الله تعالى حين يقول في سورة الرّوم: «وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [٢١]»؟

قال علاء الدّين:

-بلى.

قال طاجيك:

-فإنّ الله تعالى خلق النّساء للرّجال والرّجال للنّساء؛ ولا بدّ للرّجال أن يحـ...

أدرك علاء الدّين مقصده، فقال دون بالغ اهتمام:

-لقد فهمت مقصدك، وما ترمي إليه؛ إنّ من هو في مثل وضعي لا يحقّ له التّفكير في النّساء...

قاطعه طاجيك:

-ولماذا كلّ هذا التّشاؤم؟ أرى أنّه لا ينقصك شيء؛ وأنت، والحمد لله، رجل قادر على إعالة نفسك وإعالة من يمكن أن تكون لك حليلة؛ وأمر الأولاد سوف لن يكون عقبة في سبيل سعادتكما.

قال علاء الدّين كمن ضاق بهذا الحديث وأراد أن يضع له حدّا، ولكن بطريقة فيها من الأدب بقدر ما فيها من الدّماثة:

-لقد فات الأوان، يا سيّدي. والإنسان لا يعيش عمره وعمر غيره؛ ويكفيني من الحياة أنّي تزوّجت وأنّ من أحببتها وكانت أمّ عيالي قد قضت هي وأبناؤها دون جريرة اقترفوها سوى أنّي كنت رجلا سيّئ الحظّ رمته المقادير في طريق من لا يرحم.

كان طاجيك يريد أن يواسيه. قال له بعض كلمات رقاق، وتهيّأ للخروج وقد تعمّد هذه المرّة أن يعانقه ليشعره أنّ الدّنيا ما تزال بخير وأنّه، بالرّغم من قساوة الحياة، ما يزال هناك من يهتمّ لشأنه، وغادره على أمل اللّقاء به قريبا.

حينما خرج كان المؤذّن يؤذّن لصلاة الظّهر، وكان قريبا من المسجد الجامع، فاغتنم الفرصة ليصلّي مع باقي المصلّين قبل أن يلتحق بديوان الشّرطة في قصر الوالي. لم يكن هناك الكثير من المصلّين، ولكنّه رأى في الجهة اليمنى قريبا من النّافذة الكبيرة الّتي كانت تفتح على الشّارع من الخلف رجلا كان يغرق في البياض، وما كان يظهر منه جانبه الأيسر، وكان وجهه مواربا؛ غير أنّه لا يعلم لماذا شعر بانجذاب لا يقاوم نحوه... كان ذلك الرّجل غارقا في السّكون، وكأنّه التّمثال لا يريم، وكان كلّ ما

فيه يوحي بخشية وخشوع، وشيء أقرب إلى القداسة؛ ولا يعلم أيضا لماذا طفت على ذاكرته في تلك اللّحظة بالذّات آثار ذلك الصّوت الّذي كان سمعه في غرفته هذا الصّباح؛ وقد وجد نفسه يستغرق في ظنونه وهواجسه لولا أنّ سمع الإمام يكبّر استعدادا للدّخول في الصّلاة. كبّر هو الآخر، وكان يحاول أن يتوارب في حالة من الخشوع لم تكن لتدوم إلاّ قليلا، ودعا الله في سرّه أن يخلّصه ممّا هو فيه إلى حين الانتهاء من فرضه... كان باله مشغولا بالرّجل ومن يكون، وهل لذلك علاقة بالصّوت الّذي كان سمعه...قال له إنّه سيكون معه... قال له إنّ عينيه ستحرسانه حيثما كان... وقال شيئا عن الأسرار والأشواق والمكابدة... حينما سلّم الإمام تطلّع إلى الجهة الّتي حسب أنّه أثبت الرّجل فيها فلم يجد شيئا، وبدلا من ذلك رأى حلقة لأحد الشّيوخ وكان يتحدّث في الفلسفة عن الماهية والعوارض والجواهر، والفساد والفناء، والخلق.

استعاذ في سرّه من الشّيطان الرّجيم؛ وخرج وقد أزمع أن يكون لقاؤه بصاحب الشّرطة خاليا من كلّ ما يمكنه أن ينغّص عليه فرصة من الفرص النّادرة الّتي كان يلتقي فيها بمن عرفهم في بخارى... كان صاحب الشّرطة يقف بالباب وكأنّه كان يتوقّعه، وبشّ في وجهه لمّا رآه، وقاده إلى متّكأ ليس ببعيد عن ديوانه؛ وقال له وهو يرتاح باطمئنان في مجلسه:

-انتظرني، يا ولدي، لبعض الوقت، ريثما أنهي بعض الأشغال العالقة، ثمّ سنذهب سويّا إلى البيت، فقد أمرت قوت القلوب قبل الذّهاب إلى الدّيوان هذا الصّباح أن تعدّ لنا هي والجواري غداء يليق بالمناسبة...

شعر طاجيك بقليل من البلبلة، واستعاد في ذهنه آخر لقاء بينهما، علّه يتذكّر إن كان أخبره أنّه سيأتي لزيارته في هذا اليوم؛ ولكنّ الذّاكرة لم تسعفه بطائل، وانتهى به الأمر إلى التّسليم، ولكن، وهو يتحرّك في مكانه ليعدّل جلسته عاوده شيطان المشاكسة، فقال سائلا في حياء

وتردّد في نفس الوقت:

-هل كنت أخبرتك آخر مرّة أنّي سآتي هذا اليوم، أم أنّك حدست مجيئي كعادتك مع كلّ ما يتعلّق بي؟!

فضحك كبير الشّرطة ملء فيه، وكان قد أخذ مكانه وراء الدّيوان، ثمّ قال، وكأنّه يريد أن يمازحه ويحطّم جدار الكلفة بينهما مرّة وإلى الأبد:

من الآن فصاعدا، لا تراع كثيرا، واقبل صداقتنا على علاّتها... إنّ هناك الكثير من الأشياء الّتي ستعرفها في حينها، فلاّ تتعجّل؛ واعلم، يا ولدي، أن الله تعالى أثنى على الصّابرين.

ثمّ نهض، وهو يقول:

-حان الوقت للذّهاب إلى البيت، وأرجو أن تكون ابنتي قد انتهت مع الجواري من الغداء...

وانطلقا سويّا في اتّجاه البيت الذّي لم يكن يبعد كثيرا عن الدّيوان؛ وبمجرّد أن دخلا استقبلتهما روائح لم يشمّ طاجيك أشهى ولا ألذّ منها في حياته؛ وجعله ذلك يتخيّل المرأة الّتي كانت وراء كلّ تلك الرّوائح؛ وقال في نفسه: «إنّ امرأة لها من القدرة على أن تؤلّف بين هذه الرّوائح العجيبة، لا بدّ أن يكون اعتناؤها فيما يخصّ روائحها أرقى بكثير.» وراح يتصوّر، ويبني صورة في خياله لهذه المرأة الّتي مازال لا يعرف عنها شيئا غير اسمها... وقوت القلوب هو اسمها، وما أجمله من اسم؛ فهل تكون جميلة كإسمها، يا ترى؟! كان لا يشكّ في ذلك بينه وبين نفسه، وكان يحاول أن يهدّئ من جيشانها بتحريك أصابعه بين الفينة والفينة ورفعها إلى إلى مستوى لحيته مرّة، ثمّ تظاهره بتسوية ثنية أو عطفة في قفطانه مرّة أخرى؛ وكان كبير الشّرطة ينظر إليه، ويكتم ضحكة صغيرة كانت تحاول أن تغافله لتنطلق في فضاء المكان... كان يعلم - ليس مجرّد حدس، ولكن يقينا - أنّ طاجيك يفكّر في ابنته، وأنّه بدأ يهمّه أمرها؛ كما كان يعلم أنّ ضيفه اليوم قد جاء ليعلمه بقراره قبول

الزّواج منها... إنّ هناك أطيافا تأتيه... أصواتا... وهواتف؛ ولم يكن كلّ ذلك وليد اللّحظة، ولكنّه شيء تربّى معه مذ كان في سنّ العاشرة من عمره، حين كان أبوه يأخذه معه إلى حلقات بعض الصّوفيّة في ظاهر البلد، وحين رآه شيخه قال له في مساررة مناجاة، بعيدا عن الغلام: «اسمع، يا بسطام، إنّ لولدك ضياء الدّين هذا لشأنا، فاعتن به، ولا تغفلنّ عنه؛ فسيكون إن شاء الله من الواصلين.» ونشأ الغلام، كما تنبّأ له الشّيخ، وهو ينمو مع الأسرار والهواتف والأصوات؛ وهو وإن كان يرى أنّ القدر وحده هو الّذي وضع طاجيك في طريقه؛ وأن ليس من هواتفه من جاءه مسبقا ليعلمه بهذا اللّقاء المفاجئ، فقد كان يهجس داخله إيحاء بأنّ شيئا سيقع... بأنّ حدثا ما، سيّغيّر حياته؛ غير أنّه، مع ذلك، ما يزال لا يعلم شيئا عن طبيعة هذا التّغيير؛ وحينما طرح على طاجيك مسألة الزّواج من ابنته إنّما كان ذلك بمبادرة منه، ولم يكن ذلك بأيّ تدخّل من هاتف أو صوت. كان سعيدا، ليس فقط لنفسه، ولكن لابنته أيضا الّتي ستضمن زوجا قد خبر الحياة، وهو وإن كان رقيق الحال في بخارى، فقد يكون موسرا حيث كان، وهو إلى كلّ ذلك عالم من العلماء، فكيف لا يسعد؟!

كان الغلمان في أثناء استغراقهما، كلّ في أفكاره وهواجسه، يدخلون محمّلين بالصّحون والصّواني وصحاف بمختلف الألوان والأحجام، جعلت طاجيك يتخيّل نفسه في لحظة من اللّحظات، مواربا بين ثنايا جنان الخلد، حيث المخلّدون: «يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون.» وحمد الله في سرّه، ليس على الأكل، ولكن على هذه الرّفقة الّتي لا يجود بها الزّمان إلاّ لماما... كانت هناك أطعمة يعرفها، وأخرى لا يعرفها؛ كان هناك لحم محشوّ بشتّى أنواع التّوابل، وكانت هناك رقائق خبز بالعسل، وأخرى محشوّة بشتّى أنواع المكسّرات، وكان هناك ثريد لم يذق مثله في بغداد رغم أنّ بوران كانت من المعدودات

القليلات المتقنات لكلّ ما يصنع من طعام طيّب، وكانت هناك فواكه الصّيف وفواكه الخريف، وكانت هناك مشروبات لم يذق مثلها في حياته؛ ورغم كلّ تلك الوفرة، ورغم جوعه، ليس في ذلك اليوم فقط، ولكن في كلّ الايّام الّتي مرّت عليه في بخارى، فلم يأكل كثيرا، وكان طوال الوقت شاردا بعض الشّيء كأنّ هناك شيئا محّددا كان يشغله... لم يكن ضياء الدّين يريد أن يقطع عليه تلك الحالة من حالاته، ولم يخش عليه قلّة شهيّته لأنّه كان يعلم أنّ ابنته ستقوم بواجبها تجاهه على أحسن وجه بعد الزّواج؛ ولكن، على الرّغم من كلّ ذلك، كان لا بدّ لتلك الجلسة من شيء يذهب رتابتها، ولم يكن هناك خير من الحديث؛ فبعد أن عاد الغلمان ليرفعوا ما كانوا جلبوه، وبعد أن جهّزوا المكان من جديد بآلات التّمباك وأكواب اليانسون والقرفة، قال ضياء الدّين مخاطبا طاجيك:

-دعك من التّفكير الآن، فلا شيء يستأهل أن يشغلك على الإطلاق؛ واعلم أنّ الأمور يسيّرها مدبّر الأسباب...

كان طاجيك قد آب أخيرا من شروده، وبدأ يعاوده مزاجه الرّائق، وهو يتناول خرطوم الأركيلة ويقرّبه من فمه، ثمّ وهو يسحب الدّخان إلى صدره. قال:

-صدقت، يا سيّدي. إنّه لتنتابني أحيانا حالات كانت تأخذني تماما إلى عوالم لم أكن أتصوّر في يوم من الأيّام أنّي أرى مثلها، ثمّ حين أعود أقول لنفسي: «لماذا تحمّل نفسك فوق ما لاتطيق، يا طاجيك؟ دعها على الله؛ ولكن...

كان ضياء الدّين هو الآخر قد بدأ يطمئنّ إلى جوّ الإلفة الّذي بدأ ينشر أرداءه على أرجاء المكان، وكان يشعر أنّه منسجم تماما، في مجلسه وفي مقامه بهذا البيت الّذي كان كلّ عالمه، لا يشعر بالسّعادة إلاّ فيه، ولا الاستئناس إلاّ مواربا بين ثنايا جهاته. قال:

-ولكن... إلى متى ستظلّ تستدرك على نفسك، وعلى الحياة، وعلى

كلّ ما حولك؟ سأقول لك شيئا، ولا تعتبر ذلك تدخّلا منّي في حياتك: ابنتي قوت القلوب سأوثرك بها على نفسي، ولو كان لي غيرها، أو لو كان لها إخوة، لما رضيت أن أبذلها لأحد بمال الدّنيا، ولكن ما يعزّيني أنّها ستكون لك من دون كلّ العباد...

وتمهّل قليلا، وسحب نفسا من أركيلته، وهو يروزه بحبّ وعطف؛ وشعر طاجيك أنّه يجب عليه أن يقول شيئا، فالتفت إلى مضيفه قائلا:

-لقد خشيت أنّ إمكان ارتباطي بكريمتكم يمكن أن يشقيها أو يتعبها، سيّما وأن أمر مقامي مازال يكتنفه شيء من الغموض؛ وفي الآونة الأخيرة...

وسكت قليلا، فقال ضياء الدّين بدلا عنه:

-وفي الآونة الأخيرة سمعت صوتا...

نطّ طاجيك في مجلسه من أثر المفاجأة كمن لدغ أو كمن لسع، فسقط خرطوم الأركيلة واصطدم بحافّة النضّد الكبير الّذي كانت عليه صواني القرفة واليانسون، وكاد يسقط كلّ شيء لولا أن تداركه ضياء الدّين في آخر لحظة؛ وقال مهوّنا:

-لا عليك، يا ولدي...

وحتّى يذهب عنه كلّ خوفه ومفاجأته الطّارئة قصّ عليه كلّ شيء... أخبره عن الهواتف الّتي تأتيه، والأصوات، والأسرار الّتي كانت تملأ حياته، وعن مبدإ حكايته مع والده وشيخه. ثمّ استأذنه قليلا، ولم يلبث أن عاد ووراءه صبيّة ما تزال في مقتبل عمرها، وهي تضع على رأسها وشاحا أرجوانيّا ذا تخاريم، وتمشي على استحياء وخفر؛ ولم يستطع طاجيك أن يرى وجهها لأنّها، من فرط حيائها، كانت تنظر إلى الأرض... حينما جلس والدها ثانية، كانت ما تزال واقفة فأمرها بالجلوس فجلست وهي تضع يدها اليمنى على يدها اليسرى خافضة رأسها... لم يخب ظنّ طاجيك، بل إنّه رأى في تلك اللّحظات القصار

فوق ما كان يؤمّل. قال كبير الشّرطة:

-أنا سأبقى معكما، لأنّه لا بدّ من ذلك؛ ولكن، يا ولدي، اعتبرني غير موجود، وهي ذي ابنتي أمامك، فيمكن أن تحدّثها بكلّ ما تريد؛ ولا يغرنّك من ابنتي خفرها لأنّي ربّيتها على ذلك، ولكنّها لبيبة عاقلة، وهي فوق ذلك أديبة أريبة.

كان طاجيك لا يفيق من مفاجأة إلاّ لتتلقّاه مفاجأة أخرى؛ فها هي المرأة الّتي سيقترن بها ليست كباقي النّساء، ولكنّها أديبة يمكن أن يتحدّث إليها ويستشيرها فيما سيكتبه ويأخذ رأيها فيما كان كتبه؛ فأيّ محظوظ هو: أمامه الجمال والكمال والغنى والسّعادة الّتي يبدو أنّها لن تخطئه. قال:

-أنا اسمي طاجيك، ولعلّ والدك الكريم قد أخبرك من قبل بهذا.

وسكت. طال الصّمت قليلا بينهما، ولكنّها تكلّمت أخيرا، فقالت:

-وأنا قوت القلوب، ولا شكّ أنّك قد عرفت ذلك من والدي أيضا...

وابتسمت، وتحوّلت فجأة ابتسامتها إلى ضحكة رقيقة لم يدر كيف يصفها، ولكنّه شعر بها تدلف إلى أعماق فؤاده وتفتح دفعة واحدة كلّ مراتيج قلبه، وتستقرّ في سويدائه... أحسّ أنّه على وشك أن يغمى عليه، ولكنّه تماسك... ركّز وعيه في الثّبات، ونظر إليها هذه المرّة فوجدها هي الأخرى تنظر إليه، وبدا له أنّها قد أعجبت به، لأنّها كانت تبتسم طول الوقت.

قال:

-وأنا غريب في هذه الدّيار؛ وأنا من بغداد حاضرة الخلافة، ولي فيها رجل بمقام والدي وامرأة بمقام والدتي؛ وأنا أعدّ في العلماء...

وسكت قليلا ليمنح نفسه فرصة تركها تتكلّم هي الأخرى، فقالت:

-أعلمني والدي أنّه خطبني إليك، على غير عادة أهل البلد هنا، أو على عادة النّاس في كلّ مكان، وأنا لا أشعر بالخجل من ذلك... إنّ أبي يريد إسعادي، وأنا أقدّر له ذلك، وأنا على رأي والدي: ولا يزعجني كثيرا

فيما إذا رفضتني لأنّ الزّواج، كما يقولون عندنا: «قسمة ونصيب.»

قال طاجيك في نفسه: «وهي واثقة أيضا، وذات حزم وعزم!!» ثمّ نظر إلى والدها، فعلم الآخر أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّه لم يبق إلاّ أن يحدّدا موعد الزّفاف، فقال:

-إن شاء الله يكون الزّفاف يوم الخميس القادم؛ وخير البرّ عاجله.

وخرج طاجيك، وقد تمّ الاتّفاق على كلّ التّفاصيل؛ وأخبره ضياء الدّين أن لا يحمل همّا على الإطلاق وأنّ كلّ شيء سيكون معدّا على أحسن ما يرام؛ وغمزه بعينه، دلالة من يقول إنّ هناك الكثير من المفاجآت في الطّريق. غير أنّ طاجيك كان كلّ همّه فيما تبقّى من ذلك اليوم أن يتمّ ما بدأ من عمل على حاشية سفر الخروج؛ ولم يكن يشعر بجوع أو عطش حينما دخل غرفته فأخرج دفاتره وكتبه وأقلامه وأخذ مكانه أمام النّضد وبدأ يتصفّح الكتاب الّذي بين يديه. قرأ: «[١]وَهذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مِصْرَ. مَعَ يَعْقُوبَ جَاءَ كُلُّ إِنْسَانٍ وَبَيْتُهُ: [٢]رَأُوبَيْنُ وَشِمْعُونُ وَلاَوِي وَيَهُوذَا [٣]وَيَسَّاكَرُ وَزَبُولُونُ وَبَنْيَامِينُ [٤]وَدَانُ وَنَفْتَالِي وَجَادُ وَأَشِيرُ. [٥]وَكَانَتْ جَمِيعُ نُفُوسِ الْخَارِجِينَ مِنْ صُلْبِ يَعْقُوبَ سَبْعِينَ نَفْسًا. وَلكِنْ يُوسُفُ كَانَ فِي مِصْرَ. [٦]وَمَاتَ يُوسُفُ وَكُلُّ إِخْوَتِهِ وَجَمِيعُ ذلِكَ الْجِيلِ. [٧]وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَأَثْمَرُوا وَتَوَالَدُوا وَنَمَوْا وَكَثُرُوا كَثِيرًا جِدًّا، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ.

[٨]ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. [٩]فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. [١٠]هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ». [١١]فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ، فَبَنَوْا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِيثُومَ، وَرَعَمْسِيسَ. [١٢]وَلكِنْ بِحَسْبِمَا أَذَلُّوهُمْ هكَذَا نَمَوْا وَامْتَدُّوا. فَاخْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. [١٣]فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ، [١٤]وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَل فِي الْحَقْلِ. كُلِّ عَمَلِهِمِ الَّذِي عَمِلُوهُ

بِوَاسِطَتِهِمْ عُنْفًا.

[15] وَكَلَّمَ مَلِكُ مِصْرَ قَابِلَتَيِ الْعِبْرَانِيَّاتِ اللَّتَيْنِ اسْمُ إِحْدَاهُمَا شِفْرَةُ وَاسْمُ الأُخْرَى فُوعَةُ، [16] وَقَالَ: «حِينَمَا تُوَلِّدَانِ الْعِبْرَانِيَّاتِ وَتَنْظُرَانِهِنَّ عَلَى الْكَرَاسِيِّ، إِنْ كَانَ ابْنًا فَاقْتُلاَهُ، وَإِنْ كَانَ بِنْتًا فَتَحْيَا». [17] وَلكِنَّ الْقَابِلَتَيْنِ خَافَتَا اللهَ وَلَمْ تَفْعَلاَ كَمَا كَلَّمَهُمَا مَلِكُ مِصْرَ، بَلِ اسْتَحْيَتَا الأَوْلاَدَ. [18] فَدَعَا مَلِكُ مِصْرَ الْقَابِلَتَيْنِ وَقَالَ لَهُمَا: «لِمَاذَا فَعَلْتُمَا هذَا الأَمْرَ وَاسْتَحْيَيْتُمَا الأَوْلاَدَ؟» [19] فَقَالَتِ الْقَابِلَتَانِ لِفِرْعَوْنَ: «إِنَّ النِّسَاءَ الْعِبْرَانِيَّاتِ لَسْنَ كَالْمِصْرِيَّاتِ، فَإِنَّهُنَّ قَوِيَّاتٌ يَلِدْنَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُنَّ الْقَابِلَةُ». [20] فَأَحْسَنَ اللهُ إِلَى الْقَابِلَتَيْنِ، وَنَمَا الشَّعْبُ وَكَثُرَ جِدًّا. [21] وَكَانَ إِذْ خَافَتِ الْقَابِلَتَانِ اللهَ أَنَّهُ صَنَعَ لَهُمَا بُيُوتًا. [22] ثُمَّ أَمَرَ فِرْعَوْنُ جَمِيعَ شَعْبِهِ قَائِلاً: «كُلُّ ابْنٍ يُولَدُ تَطْرَحُونَهُ فِي النَّهْرِ، لكِنَّ كُلَّ بِنْتٍ تَسْتَحْيُونَهَا».

قرّب يده بالقلم من الحاشية، وبدأ يكتب أنّ بني يعقوب عليه السّلام، الّذي هو إسرائيل أيضا، قد قدموا مصر بناء على دعوة ابنه يوسف عليه السّلام الّذي كان عزيزا لمصر لملك الهكسوس آنذاك الملك أبابي؛ وذكر ما قاله الحقّ سبحانه وتعالى في سورة يوسف، فكتب ابتداء من الآية الثّالثة والتّسعين: «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا واتوني بأهلكم أجمعين. ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون. قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم.» وقد ذكر في الإصحاح الأوّل كلّ أبنائه الّذين خرجوا معه مع عوائلهم، وهم رأوبين وشمعون ويهوذا ولاوي ويسّاكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير... وأراد أن يمرّ، أن يخطّ شيئا آخر، أو أن يعود إلى ما بعد الإصحاح، فوجد يده ما تزال عالقة بالحاشية، وألفى ذلك الصّوت الّذي كان سمعه أوّل مرّة يقول في إلفة، دون أن يراه أو يعلم من أيّ ناحية جاءه صوته: «وكان معهم بدر أو بدران... أو بداران... أو بدارون... وقد كان مكتوبا عليه أن يخرج معهم وأن يشهد مشهدهم... وقد كان معهم وليس معهم... وخرج خروجهم ولم يخرج خروجهم...»

ثم اختفى الصّوت فجأة كما نبع فجأة من الفراغ؛ ووجد طاجيك نفسه، على رغم المفاجأة الغير المتوقّعة، وعلى رغم فزعه، يرفع قلمه إلى جبهته ويتفكّر في أمر هذا الغريب الّذي أراد هذا الصّوت أن يقحمه إقحاما، وأن يلفّه بين ثنايا إصحاح قد كتب منذ مئات السّنين، وانتهى أمره إلى الحفظ، ولا مجال للزّيادة عليه أو التّقوّل فيه؛ ووجد نفسه أيضا يتفكّر في أمر هذا الخروج، ويتساءل: «من المقطوع به ليس بنو إسرائيل وحدهم من خرج في التّاريخ، وإنّ أوّل من خرج في الزّمان كان أبانا آدم عليه السّلام، ولم يقدّر له أن يخرج من أرض إلى أرض ولكنّه خرج من سماء إلى أرض، وبأمر ربّ العلى.» ثمّ تناول كتاب الأمم والرّسل وتصفّحه في تؤدة إلى أن انتهى إلى الفصل الّذي خلق الله تعالى فيه آدم، فبدأ يقرأ: « القول في خلق آدم عليه السّلام. وكان ممّا حدث في أيّام سلطانه وملكه خلق الله تعالى ذكره أبانا آدم أبا البشر وذلك لمّا أراد جلّ جلاله أن يطلع ملائكته على ما قد علم من انطواء إبليس على الكبر ولم يعلمه الملائكة وأراد إظهار أمره لهم حين دنا أمره للبوار وملكه وسلطانه للزّوال فقال عزّ ذكره لمّا أراد ذلك للملائكة: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .» فأجابوه بأن قالوا له: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ .» فروي عن ابن عبّاس أنّ الملائكة قالت ذلك كذلك للّذين قد كانوا عهدوا من أمر الجنّ الّذين كانوا سكّان الأرض قبل ذلك فقالوا لربّهم جلّ ثناؤه لمّا قال لهم: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.» أتجعل فيها من يكون فيها مثل الجنّ الّذين كانوا فيها فكانوا يسفكون فيها الدّماء ويفسدون فيها ويعصونك: «ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك.» فقال الرّبّ تعالى ذكره لهم: «إنّي أعلم مالا تعلمون.» يقول أعلم مالا تعلمون من انطواء إبليس على التّكبّر وعزمه على خلافه أمري وتسويل نفسه له الباطل واغتراره وأنا مبد ذلك لكم منه لتروا ذلك منه عيانا...» وكتب: «إنّ الخلق كان في السّماء قبل أن يعصي آدم عليه السّلام ربّه فيأكل هو وزوجته من الشّجرة المحرّمة وذلك بتزيين من

إبليس اللّعين الّذي صوّر لهما أنّ الله تعالى ما منعهما من تلك الشّجرة «إلاّ أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين. وقاسمهما إنّي لكما من النّاصحين. فدلاّهما بغرور...» وقد كان الخروج أمرا مقدّرا في علم الغيب رغم أنّ طائفة من أهل العلم زعموا أنّ الجنّة الّتي كان خلقها الله إنّما هي جنّة الخلد الّتي وعد بها أهل الطّاعة من أهل الأرض والّتي سيدخلونها يوم القيّامة «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا .» و«لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا.» ولكنّ الجمّ الغفيرمن أهل العلم مجمعون على القول من أنّ تلك الجنّة إنما هي جنّة ابتلاء وليست بجنّة بقاء... وإنّما كانت ليرى الله تعالى فيما إذا كان آدم عليه السّلام وزوجه سيكونان على العهد الّذي أخذه عليهما أم أنهما سينسيان، وقد نسيا، فأخرجوا منها جميعا، هم وإبليس...» ولكنّ شيئا كان يلحّ عليه، يشتدّ بوطأته فينضاف حملا إلى الأحمال الأخرى الّتي كان ينوء بها؛ ولم يكن هناك صوت ليخبره عن الخارج هذه المرّة، وإنّما كان يرى شبحا، أو طيفا، أو شبحا لطيف؛ كان يرى مثل الشّيء الّذي كان يتشوبح عن بعد... والدّنيا يكتنفها السّواد، ولم يكن هناك سوى أضواء ضئيلة لنجوم هائمة كانت تتغامزوتترامق في تلكّؤ في ظلّ غياب قمر قد لا يطلع تلك اللّيلة أبدا؛ فمن أين جاء ذلك الخارج، ذلك الطّيف؟ لم تكن هناك صحراء ليقول إنّه بقيّة بني إسرائيل الّذين خرجوا مع موسى عليه السّلام، ولم تكن هناك آثار لقرون دابرة تجزم أنّه ربّما يكون في زمن أولئك الجنّ الّذين كانوا قبل خلق آدم عليه السّلام، والّذين أفسدوا في الأرض وسفكوا فيها الدّماء؛ ومع ذلك، كان هناك شيء ينغل داخله يقول إنّه لم يتوقّف عن الخروج، وإنّه كان دائما هناك، ممتدّا على جميع المسافات، وفي كلّ العصور، يخرج ثمّ يخرج، ثمّ يخرج ويخرج مرّة أخرى... في ذلك السّواد، كان الطّيف يتقدّم، وتخيّل طاجيك نفسه فجأة أنّه يعرف شيئا من ذلك المكان، ليس لأنّه رآه حقّا، وإنّما ربّما لأنّه رأى شيئا مثله في بغداد، في أحد دروبها، ربّما درب الرّواسين، أو درب

الدّبّاغين، أودرب القمّاشين، أوأيّ درب آخرمن دروب بغداد الكثيرة... ولكن يفجأه الصّوت مرّة أخرى، ودائما محافظا على نبرة ووتيرة صوته الّتي لم تكن ترتفع أو تخفت: «ومعهم كان بداران أو بدارون، خرج من مصر المحروسة، من قاهرتها، وحين خرج كان الزّمان يتقدّم إلى أمام أو يتأخّر إلى وراء، وكان الزّمان قد فقد ماهيته وتحوّل إلى ذات كان يحملها بداران أو بدارون معه حيثما ذهب.» لم تعد لطاجيك رغبة في التّساؤل أو إبداء الاستغراب أو التّهيّب أو الرّهبة، وكانت يداه وحدهما تكتبان دون أن يكون له أيّة سيطرة عليهما.» واختفى الصّوت ثانية فعاد إلى كتابه؛ وعندما قرّر أن يكتب مرّة أخرى كان يجد أنّ له سلطة على يديه مرّة أخرى: «وقيل أقوال كثيرة في ذلك قد حكينا منها جملا في كتابنا المسمّى جامع البيان عن تأويل آي القرآن فكرهنا إطالة الكتاب بذكر ذلك في هذا الموضع .

فلمّا أراد الله عز وجلّ أن يخلق آدم عليه السّلام أمر بتربته أن تؤخذ من الأرض كما حدّثنا أبو كريب قال حدّثنا عثمان بن سعيد قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضّحّاك عن ابن عبّاس قال ثمّ أمر يعني الربّ تبارك وتعالى بتربة آدم فرفعت فخلق الله آدم من طين لازب واللاّزب اللّزج الطّيّب من حمإ مسنون منتن قال وإنّما كان حمأ مسنونا بعد التّراب قال فخلق منه آدم بيده.

حدّثني موسى بن هارون قال حدّثنا عمرو بن حمّاد قال حدّثنا أسباط عن السّدّيّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال قالت الملائكة: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.» يعني من شأن إبليس فبعث الله جبرئيل عليه السّلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إنّي أعوذ بالله منك أن تنقص منّي شيئا وتشينني فرجع ولم يأخذ وقال يا ربّ إنّها عاذت بك فأعذتها

فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبرئيل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفّذ أمره فأخذه من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبلّ التراب حتّى عاد طينا لازبا واللاّزب هو الّذي يلتزق بعضه ببعض ثمّ ترك حتّى تغيّر وأنتن وذلك حين يقول: «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .» قال منتن.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا يعقوب القمّيّ عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال بعث ربّ العزّة عزّوجلّ إبليس فأخذ من أديم الأرض ومن عذبها وملحها فخلق منه آدم ومن ثمّ سمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض ومن ثمّ قال إبليس: «أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا .» أي هذه الطّينة أنا جئت بها.

حدّثنا ابن المثنّى قال حدّثنا أبو داود قال حدّثنا شعبة عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال إنّما سمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض.

حدّثني أحمد بن إسحاق الأهوازيّ قال حدّثنا أبو أحمد قال حدّثنا مسعر عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال خلق آدم من أديم الأرض فسمّي آدم.

حدّثني أحمد بن إسحاق قال حدّثنا أبو أحمد قال حدّثنا عمرو بن ثابت عن أبيه عن جدّه عن عليّ رضي الله عنه قال إنّ آدم خلق من أديم الأرض فيه الطّيّب والصّالح والرّديء. فكلّ ذلك أنت راء في ولده الصّالح والرّديء.

حدّثني يعقوب بن إبراهيم قال حّدثنا ابن عليّة عن عوف وحدّثنا محمّد بن بشّار وعمر بن شبّة قالا حدّثنا يحيى بن سعيد قال حدّثنا عوف وحدّثنا ابن بشّار قال حدّثنا ابن أبي عديّ ومحمّد بن جعفر وعبد الوهّاب الثّقفيّ قالوا حدّثنا عوف وحدّثني محمّد بن عمارة الأسديّ قال حدّثنا إسماعيل بن أبان قال حدّثنا عنبسة عن عوف الأعرابيّ عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعريّ قال قال رسول

الله صلّى الله عليه وسلّم إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك والسّهل والحزن والخبيث والطّيّب ثمّ بلّت طينته حتّى صارت طينا لازبا ثمّ تركت حتّى صارت حمأ مسنونا ثمّ تركت حتّى صارت صلصالا كما قال الله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[٢٦].»

وحدّثنا ابن بشّار قال حدّثنا يحيى بن سعيد وعبد الرّحمان بن مهدي قالا حدّثنا سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال خلق آدم من ثلاثة من صلصال ومن حمإ ومن طين لازب فأمّا اللاّزب فالجيّد وأمّا الحمأ فالحمئة وأمّا الصّلصال. فالتّراب المدقّق ويعني تعالى ذكره بقوله «من صلصال» من طين يابس له صلصلة والصّلصلة الصّوت.» وهو يكتب، يحاول أن يركّز فيما يكتبه، سيّما أنّه قطع شوطا طويلا في ملاحظاته واستنتاجاته؛ ولكن عند حدّ معيّن، في وقت ما، تأبى يداه أن تطاوعاه، تتوتّر أعصابه، ويلفي كأنّ شخصا آخر يكتب بدلا عنه، وأنّ عقلا آخر غير عقله، ربّما يكون عقل شخص آخر داخله وخارجه في نفس الوقت، هو الّذي يملي، وهو الّذي يحدّد ما يجب أن يكتب وأن لا يكتب؛ وكان هو على الرّغم من ذلك لا يملك لنفسه شيئا؛ فلا هو قادر على التوقّف عن الكتابة ولا هو بمستطيع أن يكتب ما يفكّر فيه... كانت الأشياء واضحة مع ذلك، وكانت النّصوص الّتي بين يديه بيّنة جليّة، لا تنتظر إلاّ أن يعلّق عليها أو أن يقال فيها قول أو أقوال على الحاشية؛ كان الّذي يفكّر عنه يريد له أن يتأنّى، أن يتمعّن قبل أن يسترسل؛ كان يريد له أن يفكّر مليّا في مسألة الخلق هذه في ارتباطها بهذا الخروج لشخص مازالت لم تبن معالمه بعد؛ غير أنّه كان يرى غير بعيد عنه كأنّ شيئا مثل السّتار كان يرتفع شيئا فشيئا وأنّ طيفا أو شخصا بدأ يلوح أمام ناظريه؛ صحيح أنّه لم يكن يراه تماما، ولكنّ مخايله كانت تقول إنّه إنسيّ، لا

بدّ أن تكون له يدان ورجلان، وكلّ الجوارح الّتي خلقها الله تعالى في بني آدم... ثمّ هذا الخلق؛ وما أروعه! هذا الخلق، وما آثره على النّفس! وفي لحظات كانت أفكاره تلتقي بأفكار من ربّما كان يفكّر في أحايين كثيرة بدلا عنه؛ وكانت هذه الأفكار في وقت ما تنفصل عنهما وكأنّها مزامير أو أناشيد تتلى في الأجواز الواسعة للكون: «يا ابن آدم، إنّك من تراب، وإلى التّراب تعود؛ يا ابن آدم، عليك أن تعلم أنّ هذا الإبداع الجميل أصله تراب، وأنّ هذا الجمال أصله تراب، وأنّ هذا الجمال سيعود مرّة أخرى إلى التّراب؛ وقبل ذلك سيكون جسدك مزرعة لدود الأرض بعد الموت...» لم يكن هناك سعي إلى ترك عبرة، أو موعظة، وإنّما الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد إقرار لحقيقة، لشيء ثابت لا يتغيّر، كاللّيل والنّهار، والشّمس والقمر، والأنهار الجارية، والبحار والمحيطات؛ ووجد طاجيك نفسه يشرد قليلا، كان يدير في رأسه هذه البدايات، هذه الرّحلة عبر أزمنة سحيقة من المخاضات الّتي لا تنتهي؛ ولم يرد أن يسأل نفسه، رغم أنّ السّؤال كان يلحّ عليه، حتّى لا يقع في محظورات الغيب، وأن تصيبه لعنة الشّيطان، قال لنفسه إنّ الملائكة كانت هناك، وقد كانت شاهدة دائما على ما خلقه الله، وكانت ترى ما حدث في كلّ زمان خلقا بعد خلق، وأنّ الله تعالى خلق بعد ذلك آدم، ولا بدّ أن يكون ذلك لحكمة، فما حكمة الله في ذلك؟! ووجد نفسه يحجم، ويفكّر في هذا الخارج الّذي خرج من جديد، ولا يدري لماذا بدا له أنّه يحمل همّا، وأنّه لا يخرج خارج إلاّ إذا كانت وراءه جروح يجرّها وراءه، وهموم أبت إلاّ أن تصاحبه، في مراحل ومواقيت لا تنتهي... «نعم، إنّ الإنسان خلقه الله من التّراب؛ ولكنّ هناك أشياء أخرى يمكن أن يخلق منها الإنسان؛ إنّ الإنسان يخلق أيضا من الجروح الكثيرة، ومن البكاء، والصّراح والعويل؛ ويخلق الإنسان من شيء لا يستطيع التّعبير عنه، يهجس به، يحسّ به ثقلا يتقلّب داخله، في كلّ زاوية من زواياه، ويحاول الإمساك به، ولكن يتأبّى؛ نعم، قد يكون هذا الخارج،

الّذي قال الصّوت الّذي جاءه إنّ إسمه بداران أو بدارون، مجروحا، أو موسوسا، أو مسكونا بما لايعلم إلاّ الله ماهيته وكنهه؛ وانفجر الصّوت الذّي جاءه مرّات، كان يحسّ به داخله ولا يسمعه في ظاهر أمره، ولكن كأنّما يوحي إليه من وراء أسترة كثيرة بين حنايا نفسه... إنّه يسمع، كالهمس كانت الأشياء التّي يسمعها. أصغى، أرخى أذنيه اللّتين باتتا قادرتين على التقاط أكثر الأصوات خفوتا، حدّدهما بكفيّه زيادة في التّركيز؛ ربّما كانت الأشياء الّتي يسمعها غريبة، ربّما كانت تشير إلى أماكن لا يعلمها، إلى بلدان، أو حواضر من البلاد، وكانت الأحداث كأنّما أريد لها أن تكون الخاتمة والقفلة الّتي ستختم كلّ شيء. رأى الطّيف، رآه ليس في هيئته الحاضرة، على سبيل مازال يجهلها، ولكن خيّل إليه أنّه يلمحه، على البعد، في مدخل بناية ربّما، أو غرفة، أو شيء ليس بهذا ولا بذاك، وأنّه كان يسدّ بهيكله المكان، وكانت يداه كأنّهما جناحا طائر يستعدّ للطّيران؛ ثمّ حينما يرى رأسه المدلدل، تبهت في ذهنه فكرة الطّيران، ويقول في نفسه، إنّ من هذه حالته لا يمكن إلاّ أن يكون مهموما، وحاول أن يتذكّر عدد المرّات الّتي كان فيها هو نفسه مهموما، كما حاول أن يبحث عن الأسباب الّتي تبعث فيه ذلك الكمّ من الهمّ، وقال هل سبب الهموم واحد عند كلّ البشر، أم أنّها واحدة وتختلف في كيفها، أم أنّها تختلف تماما من شخص إلى شخص، وإنّ من الهموم ما يستعصي على التّفسير، ليس عند صاحبها فقط، ولكن حتّى لمن هم يسعون إلى تجلية تلك الهموم عن النّاس من أطبّاء وحكماء وفلاسفة. وانتهى إلى أنّ ذلك الطّيف لا بدّ أن يكون يعاني من شيء هو أكبر من الكلام، وأكبر من أحرف الكلام، وأكبر من الهمّ نفسه. كان يخيّل إليه أنّه يلمح دخانا، وأنّ اليد اليمنى كانت ترفع بين الفينة والأخرى شيئا إلى فمه، وقال هل يمكن أن يكون ذلك دخانا... كان الصّوت يردّد في تؤدة، وأناة، ودون انقطاع، كأنّما يريد لسامعه أن يحفظ ما يقول عن ظهر قلب: «عتبة... يا عتبة... يا محروسة... يا قلعة القاهرة الشّامخة... يا

ابن بنت رسول الله، يا حسين، مدد... مدد.» هه، نعم، هذا هو، على الأقلّ بات يعرف من أين جاء هذا الغريب، هذا الخارج الجانح، هذا الطّيف، الّذي ما يزال بعيدا يكتنفه سديم الفراغ؛ إنّه على ما يبدو قاهريّ؛ المقطوع به لديه الآن أنّه قاهريّ النّشأة والمقام، ولا يعلم عن بداياته شيئا، عن خروجه إلى الدّنيا، أرض مولده الّتي ربّما يكون قضى فيها هزيعا من حياته... تناول طاجيك أحد الكتب لاإراديّا، واشرأبّت بعنقه إلى نقطة غير منظورة في الفراغ. قال: «القاهرة... لم تخطر ببالي أبدا؛ كانت كأنّما لم تكن محفورة في رأسي؛ وزرت بلدانا كثيرة، كنت أخرج ميّمما ناحية الشّرق، وكان المغرب كأن لم يكن موجودا أصلا... نعم، إنّي أعرف كلّ هذه الأمكنة الّتي ذكرها الصّوت، من بعض الرّحّالة والمطوّفين في الآفاق، وكانوا يصفونها لي كأنّي أراها من مجلسي سواء في بغداد أو في البلاد الأخرى الّتي زرتها، غير أنّ روائحها لا أجزم أنّها كانت تقتحم أفق أنفي.» وهدأ فجأة كلّ شيء، وانطفأت ذبالات الأشياء الّتي اقتحمت عليه خياله، وألفى دماغه طيّعة من جديد، ورحلت تلك الأفكار الطّارئة، ورحل أيضا من يسوّل له تلك الأفكار؛ أخذ العهد القديم، وتصفّح أوراقه ثانية، ثمّ استقرّت عيناه مرّة أخرى على ملحمة الخروج، لابتا على الإصحاح الثّاني، وتجاوزتاه، ثمّ قرأ الإصحاح الثّالث؛ ذكر أنّ موسى بن عمران، رأس بني إسرائيل، الّذي جاوز بهم البحر، قد خرج هو الآخر، ليس مرّة واحدة، ولكن مرّتين، خرج في المرّة الأولى هاربا من فرعون، حين جاءه ذلك الرّجل من أقصى المدينة، وقال له فيما رواه ربّ العزّة عنه في سورة القصص: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ [٢٠].» فكان ذلك أوّل الخروج، وهو خروج اقتاده إلى أرض مدين، وإلى نبيّ الله شعيب وابنتيه: «[١]وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مِدْيَانَ، فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللهِ حُورِيبَ. [٢]وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ

مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ
تَحْتَرِقُ. ٣فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ
تَحْتَرِقُ الْعُلَّيْقَةُ؟». ٤فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ
الْعُلَّيْقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!». فَقَالَ: «هأَنَذَا». ٥فَقَالَ: «لاَ تَقْتَرِبْ
إِلَى ههُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ
أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ».
٦ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ».
فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّي قَدْ
رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ.
إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ، ٨فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ
مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً،
إِلَى مَكَانِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ
وَالْيَبُوسِيِّينَ. ٩وَالآنَ هُوَذَا صُرَاخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَتَى إِلَيَّ، وَرَأَيْتُ أَيْضًا
الضِّيقَةَ الَّتِي يُضَايِقُهُمْ بِهَا الْمِصْرِيُّونَ، ١٠فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ،
وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ».
١١فَقَالَ مُوسَى لِلهِ: «مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَحَتَّى أُخْرِجَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟» ١٢فَقَالَ: «إِنِّي أَكُونُ مَعَكَ، وَهذِهِ تَكُونُ لَكَ
الْعَلاَمَةُ أَنِّي أَرْسَلْتُكَ: حِينَمَا تُخْرِجُ الشَّعْبَ مِنْ مِصْرَ، تَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى
هذَا الْجَبَلِ». ١٣فَقَالَ مُوسَى لِلهِ: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ
لَهُمْ: إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ
لَهُمْ؟» ١٤فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ».
١٥وَقَالَ اللهُ أَيْضًا لِمُوسَى: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهْ إِلهُ
آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. هذَا اسْمِي
إِلَى الأَبَدِ وَهذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. ١٦اِذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَقُلْ
لَهُمْ: الرَّبُّ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ظَهَرَ لِي قَائِلاً:

إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُكُمْ وَمَا صُنِعَ بِكُمْ فِي مِصْرَ. [17] فَقُلْتُ أُصْعِدُكُمْ مِنْ مَذَلَّةِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً.

[18] «فَإِذَا سَمِعُوا لِقَوْلِكَ، تَدْخُلُ أَنْتَ وَشُيُوخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مَلِكِ مِصْرَ وَتَقُولُونَ لَهُ: الرَّبُّ إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ الْتَقَانَا. فَالآنَ نَمْضِي سَفَرَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا.

[19] وَلكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لاَ يَدَعُكُمْ تَمْضُونَ وَلاَ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ، [20] فَأَمُدُّ يَدِي وَأَضْرِبُ مِصْرَ بِكُلِّ عَجَائِبِي الَّتِي أَصْنَعُ فِيهَا. وَبَعْدَ ذلِكَ يُطْلِقُكُمْ. [21] وَأُعْطِي نِعْمَةً لِهذَا الشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ. [22] بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا، وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الْمِصْرِيِّينَ». على الحاشية كتب: «ولا شكّ أنّ هناك اختلافا بيّن بين ما هو مذكور في العهد القديم وما جاء به القرءان الكريم، ليس فقط في إسم الّذي ذهب إليه موسى، وهو في القرءان نبيّ الله شعيب وفي العهد القديم يثرون، وإنّما في الإسم الّذي سمّى الله به نفسه فيما يزعم بنو إسرائيل، وهو يهوه، أو أهيه؛ ثمّ إنّ مدين قد أصبحت مديان؛ وإنّ مهنة يثرون هي الكهانة؛ وإنّما ما علمناه من القرءان أنّ شعيبا عليه السّلام نبيّ من الأنبياء الّذين أرسلهم الله تعالى إلى أقوامهم ليدعوهم إلى عبادته وتوحيده، وقد أرسله إلى مدين وأصحاب الأيكة، وما كان من شأنهم هو أنّهم كانوا يطفّفون في المكاييل... والقصّة في العهد القديم فيها الكثير من التفاصيل الّتي وردت مجملة في القرءان العظيم؛ فجبل الطّور هو جبل الله حوريب، وأنّ الله تعالى قد أرسل ملاكه بالعلّيقة، وذلك ليجلب انتباه نبيّه موسى لأنّه قرّر أن يخلّص بني إسرائل من ظلم فرعون؛ وفي هذه القصّة نجد أنّ الله تعالى ينزل إلى الأرض في الهيئة الّتي يكون عليها النّاس لأنّ يهود مشبّهة ومجسّمة ولا يجدون حرجا في ذلك؛ فالله حسب

زعمهم هو واحد من البشر، حتّى أنّهم فيما يزعمون قد تصارع مع نبيّ الله إسرائيل الّذي هو يعقوب عليه السّلام بن إسحاق بن إبراهيم بن آزر فصرعه إسرائيل، تعالى الله عمّا يقولون علوّا كبيرا؛ وهناك أقوام ذكروا هنا لم يذكرهم القرءان، وهم أقوام كانوا في زمن المصريّين، والغالب على أمرهم أنّهم كانوا مشركين عبدة أوثان وتماثيل. فهناك الكنعانيّون والأموريّون والحثّيون والفرزيّون واليبوسيّون والحويّون؛ وكلّ هذه أقوام ظهرت في التّاريخ وكانت تتقاتل فيما بينها ويهزم بعضها بعضا، ويستعبد بعضها بعضا؛ وكان بنو إسرائيل قوما من جملة هذه الأقوام وقد كانت لهم مملكة على زمن أنبيائهم وملوكهم إلى أن هزمهم بختنصّر وأسرهم إلى بابل.» ثمّ كفّت يده عن الكتابة. ورفع رأسه إلى السّقف كأنّه يتأثّر شيئا أو يقتفي أثر فكرة قد ضيّعها؛ وكان يبدو له أنّ تاريخ البشر عبارة عن سلسلة لا تنتهي من الخروجات الّتي كانت تتكرّر على مرّ الزّمن، فما لم يكن منها بمحض الإرادة والاختيار، فقد كانت تحتّمه ظروف وملابسات منها ما هو معروف ومنها ما كان سرّا في باطن الغيب. وكتب مرّة أخرى: «وبنو إسرائيل قد تعدّدت خروجاتهم في الزّمان، فبعد أن جازبهم موسى عليه السّلام البحر إلى سيناء، ما كان منهم إلاّ أنّهم اغترّوا بأقوام كانوا يعبدون الأصنام فطلبوا منه أن يصنع لهم أوثانا مثلها ليعبدوها، فعاقبهم الله تعالى بتيههم الّذي تاهوا فيه بعد أن كانوا يعيشون على منّه وسلواه... وخرجوا بعد ذلك اضطرارا، بعد هزيمتهم على يد بختنصّر الّذي سلّطه الله عليهم عقابا لهم؛ وعادوا ليحرّروا في زمن نبيّ من أنبيائهم؛ لكنّهم في زمننا لم تكن لهم دولة، وإنّما كانوا يعيشون في دول المسلمين الكثيرة.» وكتب بين معقّفين: «وهم أهل صنائع كثيرة وقد برعوا في الطّبّ والتّرجمة، واستعملهم بعض أمراء المسلمين لكفاءة رأوها فيهم، وأمانة، وإن لم تكن عند أكثرهم ـ انتهت الملاحظة.» وكان يرى أنّ أعظم خروج خرجه إنسان على مرّ التّاريخ إنّما ذلك الخروج الّذي خرجه أبونا آدم، ولم

يكن خروجا من أرض إلى أرض، وإنّما كان خروجا من سماء إلى أرض، وهو خروج كان وراءه ابتلاء وأيّ ابتلاء؛ وذكر ما كانت تتداوله العامّة، ويفيضون فيه إلى حدّ الإسراف، حيث كانوا يقولون بحسرة إنّه لو لم يأكل أبونا آدم من تلك الشّجرة المحرّمة لكنّا الآن نرفل في حرير الجنان، ونلبس من سندسها، ونشرب من خمرها وعسلها، ولكنّا ننكح أجمل الفاتنات من الحسان في الجنّة؛ وكان يسخر منهم في سرّه، دون أن يجبهم برأيه فيهم، لأنّه كان يعلم أنّ تلك الجنّة وضعت للاختبار ولم تكن جنّة استقرار؛ فإنّه كان مقدّرا من البداية أن ينزل الإنسان إلى الأرض، وكان مكتوبا عليه أن يجعل دنياه مزرعة آخرته، وأنّ الحساب والعقاب في الآخرة، وأنّ الجنّة الّتي هي جنّة الخلود إنّما ادّخرت للمتّقين يوم القيامة. وذكر أبانا آدم وما كان من ابتلائه. فأخذ كتاب الأمم والرّسل، وبدأ يقرأ في فصل الابتلاء: «القول في ذكر امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السّلام وابتلائه إيّاه بما امتحنه به من طاعته وذكر ركوب آدم معصية ربّه بعد الّذي كان أعطاه من كرامته وشريف المنزلة عنده ومكّنه في جنّته من رغد العيش وهنيئه وما أزال ذلك عنه فصار من نعيم الجنّة ولذيذ رغد العيش إلى نكد عيش أهل الأرض وعلاج الحراثة والعمل بالمساحي والزّراعة فيها. فلمّا أسكن الله عزوجلّ آدم عليه السّلام وزوجه أطلق لهما أن يأكلا كلّ ما شاءا أكله من كلّ ما فيها من ثمارها غير ثمر شجرة واحدة ابتلاء منه لهما بذلك وليمضي قضاء الله فيهما وفي ذرّيتهما كما قال عزّ وجلّ: «وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ [٣٥].» فوسوس لهما الشّيطان حتّى زيّن لهما أكل ما نهاهما ربّهما عن أكله من ثمر تلك الشّجرة وحسّن لهما معصية الله في ذلك حتّى أكلا منها فبدت لهما من سوآتهما ما كان موارى عنهما منها فكان وصول عدوّ الله إبليس إلى تزيين ذلك لهما ما ذكر في الخبر الّذي حدّثني موسى بن هارون الهمدانيّ قال حدّثنا عمرو بن حمّاد قال

حدّثنا أسباط عن السّدّيّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم قال لمّا قال الله عزّ وجلّ لآدم: «اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥).» أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنّة فمنعه الخزنة فأتى الحيّة وهي دابّة لها أربع قوائم كأنّها البعير وهي كأحسن الدّوابّ فكلّمها أن تدخله في فمها حتّى تدخل به إلى آدم فأدخلته في فمها فمرّت الحيّة على الخزنة فدخلت وهم لا يعلمون لما أراد الله عزّ وجلّ من الأمر فكلّمه من فمها ولم يبال كلامه فخرج إليه فقال يا آدم: «هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) .» يقول هل أدلّك على شجرة إن أكلت منها كنت ملكا مثل الله تبارك وتعالى أو تكونا من الخالدين فلا تموتان أبدا وحلف لهما بالله: «إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) .» وإنّما أراد بذلك أن يبدي لهما ما توارى عنهما من سوءاتهما بهتك لباسهما وكان قد علم أنّ لهما سوءة لمّا كان يقرأ من كتب الملائكة ولم يكن آدم يعلم ذلك وكان لباسهما الظّفر فأبى آدم أن يأكل منها فتقدّمت حوّاء فأكلت ثمّ قالت يا آدم كل فإنّي قد أكلت فلم يضرّني فلمّا أكل بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة...» وجد نفسه يتأمّل في أحوال الدّنيا وتقلّباتها، وفي حكمة الله تعالى في الخلق؛ وهفا إلى تقليب ما كان قاله أهل القدر في القدر في ذهنه، وتساءل هل الإنسان خير وشرّ: أم أنّ الإنسان خير كلّه، أم هو شرّ كلّه: فماذا كان سيكون من أمره إذا كان هو الخير كلّه؛ وما كان سيكون من أمره لو كان شرّا كلّه؛ وهو يعلم أنّ الإنسان لا يمتلك العلم مطلقا، وقد تغيب عنه أشياء كثيرة في مواطن كثيرة، وقد كان إبليس أعلم من آدم وحوّاء في مسائل لما كان يعلم من أنّ لهما سوءة مداراة كان قد اطّلع عليها حينما كان يدرس في كتب الملائكة... وشرد، انتابه السّؤال فبلبله، قال: «متى تعلّم إبليس ذلك؟ وكيف هي كتب الملائكة؟

وماذا كان مكتوبا فيها؟ وهل هي خلاف الكتب الّتي أرسلها الله تعالى فيما بعد إلى رسله؟» كان يميل إلى الاعتقاد أنّ تلك الكتب إنّما قرأها إبليس بعد أن خلق الله آدم؛ فلو كان قرأها قبل خلقه سيكون ذلك ضربا من الغيب، والغيب لا يعلم؛ أو أنّ جزئيّه وليس مطلقه هو ما أطلع الله تعالى عليه بعض عباده، من مثل ما ألهمه إلى رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم؛ ومسائل أخرى، كانت مذكورة في الخبر الّذي أورده أبو جعفر، ولم يذكرها القرءان، وأوّلها أنّ هذه الحيّة الّتي نعلم عنها ما نعلم، والّتي ذكرها العهد القديم أيضا، ليست الكائن أو المخلوق الّذي نعرفه بذاته وصفاته، وإنّما هي مخلوق من مخلوقات الله ، له أربع قوائم، وقد سألها إبليس أن تدخله في فمها ليتمكّن بذلك من مغافلة الخزنة، لأنّ الله تعالى كان منعه من دخول الجنّة على آدم وحوّاء؛ وهنا يتأمّل قليلا في الأمر، فقد بدا له أنّه في حاجة إلى أن يفهم شيئا؛ وهو هذا المنع!! نعم المنع؛ والله تعالى إذا أراد شيئا فلا بدّ أنّه سينفذه، وقد قضى بعدم دخول عدوّ الله إلى جنّته على مخلوقيه اللّذين خلق، ثمّ يتمكّن أخيرا من مداراة الخزنة والدّخول وإغواء آدم وحوّاء. هو يعلم علم اليقين أنّ شيئا لم يكن ليحدث إلاّ بعلمه تعالى؛ لكن كيف يجب عليه أن يوفّق بين بعض الأشياء الّتي كانت تبدو له غير متوافقة... المنع... أمر الله... ثمّ إبليس يفعل ما يفعل في تحدّ صريح للذّات العليّة...؟! وبمثل الإلهام، جرت على ذاكرته آيات من القرءان الكريم، وذكر أنّ إبليس لمّا عصى الله تعالى إنّما سأل النّظرة بعد ذلك وقد أعطيها؛ وقد كان بينه وبين الله تعالى ما كان من المحاورة؛ إذ سأله العليّ لماذا لم يسجد، فتعلّل بأنّه خير من آدم، خلقه الله من طين، وخلقه هو إبليس من نار؛ فكتب الله عليه الخروج من الجنّة مطرودا مذموما مدحورا؛ وهنا سأل النّظرة فأنظره الله؛ فتوعّد الآبق أنّه سيغوي الخلق الأجمعين وسيفعل الأفاعيل؛ فتوعّده ربّ العزّة أنّه سيحشره ومن معه في نار جهنّم واستثنى المتّقين من عباده الصّالحين.

قال طاجيك، وقد بدا له في هذا الموطن أنّ يدوّن بعض الملاحظات على الحاشية حتّى يبيّن بعض الأشياء لمن سيقرأ هذه الحواشي فيما بعد، وهي ملاحظات تتعلّق بالقدر خيره وشرّه. فكتب: «إنّ الله لمّا قال ما قال، وتوعّد إبليس لم يكن بعد خلق من الخلق غير آدم، ولكنّه حينما حدّد إنّما ذكر الأخيار والأشرار، ولم يكونوا قد خلقوا بعد. فلسائل أن يسأل: «هل كان الله كتب الشّقاء على عباد له قبل أن يخلقهم، وكتب السّعادة لغيرهم قبل أن يخلقهم أيضا؟ فهل أنّ أفعال العباد بعد ذلك هي مخلوقة فيهم، وليس لهم خيار فيما يفعلون؟ سيقول أحدهم: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا أنزلهم الله إلى الآرض، ليكدّوا ويعملوا، وليفعلوا خيرا وشرّا الله تعالى مدركه سلفا؟ فيكون الأمر. وحاشا لله تعالى أن يفعل ذلك. مجرّد عمل بلا طائل!! قال طاجيك: «إنّ الأسلم والأقرب إلى الثّقة بالله أن نقول إنّ الإنسان مخيّر في أشياء ومسيّر في أشياء أخرى. الإنسان مسيّر فيما ليس منه بدّ من مسائل اشتغال أجهزته في بدنه، فأكله بمقدار وشربه بمقدار، وخروجه لقضاء حاجته بمقدار، ونومه بمقدار، ويقظته من نومه بمقدار، فلو ترك كلّ ذلك إلى الإنسان لتداخلت عليه الأمور، ولانتهى كلّ أمره في بضع أيّام معدودات، فكيف له أن يضبط دقّات قلبه وهو نائم، وكيف له أن يتنفّس أيضا، وكيف له أن يتحكّم في الدّم المتدفّق من قلبه إلى كلّ ذرّة من جسده حتّى يبلغ الدّماغ، وغيرها من الأشياء الّتي لا يحكم ضبطها إلاّ قوتّه وتدبيره سبحانه وتعالى؛ وفيما عدا ذلك فالإنسان مخيّر في أمره بين خير وشرّ، وقد هداه الله النّجدين، وجعل له آلة تمكنّه من التّمييز بين الحلال والحرام، وبين ما يجب أن يفعل وبين ما يجب أن يترك، ألا وهي العقل، وهي الميزان، الّذي يزن به الإنسان كلّ شيء في حياته... غير أنّ الأمر على هذا الشّكل لم يحسم كلّه، فما يزال غموض لا بدّ من تجليته؛ وهو أن الله تعالى يظلّ عالما بما سيفعله عباده، وقد كان ذلك في سابق علمه؛ نقول إنّ الله تعالى وإن كان يعلم فهو لا يتدخّل

فيما سيفعله عبده على رغم معرفته بما سيفعله سلفا؛ فيكون سبحانه بذلك هو العدل الّذي نفا عن نفسه الظّلم لقوله جلّ ذكره في محكم تنزيلة: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) .» وطفت على ذاكرته صورة ذلك المضطرّ الّذي خرج، وقال إنّ الله ينظر إليه، ويكلؤه بعين رعايته؛ وحتّى لو كان لا يدري لماذا خرج، ووجد نفسه مدفوعا إلى هذا الخروج دفعا، فربّما يكون ذلك لحكمة لا يعلمها إلاّ صاحب الحكم؛ وظهر الصّوت جليّا هذه المرّة: وفي المكان الّذي ظنّ أنّه نبع منه، وجد نورا مشعّا كالهالة العظيمة، ووسط تلك الهالة، رأى ذلك الرّجل كما رآه أخر مرّة في المسجد، يلفّه البياض من رأسه حتّى أخمص قدميه، رغم أنّ كلّ ملامحه غطّى عليها النّور. قال:

الآن، ستكتب شيئا جديدا... وستثبته حيث أثبتّ كلّ ما كتبت؛ فالأمر كلّه واحد: فلا فرق بين الأسرار والتّاريخ؛ فما لم يفهم في التّاريخ وغفل عنه المؤرّخون فهو الأسرار والمواجيد... ولكنّها تظلّ الأسرار في الزّمان والمكان، وإن لم نفهمها؛ ولتعلم أنّ هناك دائما من يستطيع أن يرى ما لا يراه الآخرون...

ثمّ، وبعد أن صمت للحظات واصل:

-في عرف المؤرّخين إذا كتبوا شيئا أن يقولوا: حدّث فلان عن فلان عن فلان، ويوردون بعد ذلك المتون؛ أمّا الرّاؤون فلا يقولون بذلك وهم يرون رأي العين، ويسمعون ملء الآذان، وهم في كلّ مكان، وهم في كلّ زمان...

قاطعه طاجيك، وقد ذهب كلّ خوفه وتوجّسه السّابق، وبات يستأنس بحضوره:

-كيف لمن هم في الزّمان والمكان أن يروا ما لا يراه غيرهم؛ وخالقهم واحد؛ وخالقهم لم يصطف غير من اصطفاهم من الرّسل والصّالحين؟!

قال له، وبات صوته كالقرار، ساكنا سكون الماء في نهر توقّف ماؤه عن الجريان، واكتنفه هدوء وسكينة وطمأنينة ما عليها من مزيد:

-ذكرت الرّسل والصّالحين؛ والرّاؤون من جملة الصّالحين؛ فلو لم يكونوا كذلك لمّا رفع الله تعالى ما على أعينهم من حجب؛ وهم وإن كانوا في زمان البشر ومكانهم فمكانهم وزمانهم الّذي يعرفونه يتشكّل وفق إرادتهم؛ وإذا أرادوا طوته مواجيدهم وعشقهم... الحبّ، يا ولدي، هو زمانهم ومكانهم، وعشقهم هو بداياتهم ونهاياتهم... والآن، اكتب ما سأمليه عليك، واجعله حذوك النّعل بالنّعل من الموطن الّذي أثبتّ فيه حديثك عن القدر خيره وشرّه...

أخذ طاجيك قلمه وقرّبه من الكتاب، وتطلّع إلى تلك الهالة من النّور، فبدأ الصّوت يملي:

-رأى من لا أشكّ في أمانته، وقد كان أراه من رأى أوّل مرّة، ومن رأى أوّل مرّة جاءه الإلهام بذلك، وكان يرى كلّ شيء بعينيه، ويسمع بأذنيه، وتطوى له المسافات والمراحل، وقد زار البلدان، وقطع الوديان والأنهار، وكان يطير بغير أجنحة، ويلتقي السّادة في حضرتهم ويستمع إليهم ويستمعون إليه؛ وكانوا يتواجدون، ويغبّرون، وترتفع آهاتهم فتعبر الآفاق، ويسمعها من لم يكن بعد معهم فتسحّ مآقيهم بالدّموع الغزار ويتمنّون لو كانوا معهم؛ فأهل الطّريق ليسوا كلّهم سواء، ولا قواهم واحدة، فهناك الطّائر المقيم، المقيم الطّائر، وهناك من هو طائر على الدّوام، وهناك من هو مقيم على الدّوام، ولكنّه ما يفتأ يرى، من أيّ مكان يكون فيه، ومنهم من سما فكان روحا بلا جسد، ومنهم من فني، فاستغرقته الأزمنة جميعا فاستغرقها، واستغرقته الأمكنة جميعها فاستغرقها؛ وقد قال لي: «رأيته في محلّته، في زقاقه، في مكان ليس ككلّ الأمكنة، غريب، لا يدرى أهو من زمان دبر، أم من زمن مازال طاويا في مجاهل الغيب، وكان الأكبر من أبناء أبيه، وكانت له زوجة وأبناء، وإخوة وأخوات، ووالد ووالدة...» ويتأنّى كأنّه يتطلّع إلى حيث يرى كلّ

ذلك مرسوما على لوح محفوظ من النّور، ثمّ يقول: «وقد كان مقدّرا له أن يرى طواسين عشقه، وأن يجرّب الهجر والبعد، ليعرف طريقه... أسماؤه عدّة، وليست واحدة، وهو البدر في اللّيل الدّاجي، وهو بداران بن النّور، وهو بدارون الّذي انكشفت له السّتور؛ ولكن قبل ذلك كان عليه أن يخرج من محلّته إلى المحلّة الكبرى الّتي ليس بعدها محلّة، ليس لها دور ولا أعمدة، وترتفع شامخة، ولا يراها إلاّ الواصلون الّذين أجهدتهم المشقّة، ورمتهم المقادير من طريق إلى طريق، فرأوا الصّوامع، ورأوا الدّور المقفرات، ورأوا الفلوات الّتي كانت عامرة بالنّور، وقد كان تاريخهم ترسمه دموع الخجل والوجل، وهم مع ذلك يسبّحون ويذكرون، ويبكون، ويسبّحون ويذكرون، ويبكون، ولا يتوقّفون عن البكاء... كان الصّبر زادهم، وكانت الآلام طريقهم إلى خلاص أرواحهم... حدّث بذلك الرّائي.» واختفى الصّوت، واختفت معه تلك الهالة؛ فلم يستغرب طاجيك، وإنّما استغلّ ذلك الغياب ليعيد قراءة ما كتبه من جديد، وبدا له شيئا غريبا غاية في الغرابة؛ شيئا لم يقرأ مثله من قبل ولا سمع أحدا يذكره أويروي مثله في الزّمان؛ نعم لقد عرف صوفيّة في بغداد، وكان يراهم في صوفهم؛ ولكن كان يكتنفهم الصّمت دائما، وهم في الخارج، ولا يرتفع تغبيرهم إلاّ في زواياهم أو الأماكن الّتي اتّخذوها في بعض أروقة المساجد، أو بعض كهوفهم في شعاف الجبال؛ وقد قرأ عن أبي حيّان التّوحيديّ، وقد تصوّف في مبدإ شبابه لقلّة ذات يده؛ وكان يرى أنّ التّصوّف هو حرفة الفقراء والمساكين والمنقطع بهم ممّن لفظهم النّاس وجفوهم؛ ويفاجأ الآن أنّ السّبيل شيء آخر، وأنّ الطّريق هو طريق الواصلين... آه، لكم يتعجّل أن يعرف قصّة هذا الخارج، بدر النّور، البدر في اللّيل الدّاجي، الّذي انكشفت له السّتور...!!! ونازعته نفسه إلى الكتابة من جديد، وكانت بين يديه الأسفار، وكان كتاب الأمم والرّسل إلى جانبه أيضا؛ ثمّ آثر في الأخير أن ينهض قليلا من مكانه ويتريّض في الغرفة لينشّط دورته الدّموية، وليجدّد نشاطه من

جديد... كان الوقت ما يزال عصرا، ولم يذكر أنّه صلّى فرضه، رغم أنّه في أوقات سابقة كان يصلّي كلّ صلاة في وقتها إن لم يكن في المسجد الجامع مع باقي المصلّين ففي الخان؛ وإذا صادف أن كان مسعود معه، فإنّهما يصلّيان معا: هو في الأمام ومسعود وراءه؛ وقد كان يتعمّد الإطالة إذا وجد من نفسه نشاطا، وكان يتفكّر في الآيات، ويتخيّر من السّور طوالها... لقد كان القرءان تعزية حقيقيّة له في هذه البلاد الّتي هو غريب عنها، كما كانت السّور والآيات الّتي يقرأها معينا له ومفاتيح لبعض مغاليق لما كان يقرأه في كتبه الكثيرة، والتّي كان مفروضا فيه أن يعلّق عليها أو يكتب في حواشيها... في الدّاخل سكون، في الدّاخل صمت وسكون، وفي الرّواق خارج غرفته، وصمت في كلّ مكان حوالي الخان الّذي كان بعيدا نوعا ما عن صدر المدينة وأرباضها ومنتزهاتها ودورها الكثيرة وبعض قصورها؛ ولا يدري لماذا كان الصّمت في ذهنه قسيما للنّذر، ولم يكن بعد قد آمن أنّ هناك بشائر قد تأتي في أكثر الأوقات عسرا؛ ورأى نفسه مرّة أخرى غريبا عن نفسه، وعن كلّ ما حوله، وتمنّى من كلّ قلبه في تلك اللّحظات، ولحظات أخرى كانت تمرّ عليه ثقيلة ثقل الهمّ على القلب، لو كانت له زوجة بجانبه، وله ابن أو ابنة، زوجة يحادثها وتحادثه، ومن حين لآخر يغازلها، ليرطّب قلبه بطيب الحديث؛ فالقلوب إن استمرّت على جفائها صدئت، ومن شأن الكلمات الجميلة الطّيّبة أن تحييها؛ ولطالما تمنّى أن تكون له ابنة من صلبه، طويلة الشّعر، حينما تدهمه وساوسه وأوهامه يتخلّل شعرها الأصهب بأصابعه ويرحل بعيدا إلى ذرى لم تطأها قدم إنسان... هل كان شاعرا؟! هل قرض الشّعر في إحدى مراحل حياته وهو الّذي كان يحبّ الشّعر والشّعراء؟! كانت مشاغله في الكتابة تمنعه من قول الشّعر، كان لا يجد وقتا لذلك، سوى ما كان من بعض أويقات كان يحلو له فيها أن يقرأ شيئا للمتنبّي أو لأبي العلاء المعرّي أو للبحتري أو لأبي تمّام؛ ولم يكن آنذاك تصلهم أشعار فطاحل الأندلسيّين لبعد

الشّقّة من ناحية وللخلاف بين الخلافة في بغداد وإمارة الأمويّين في قرطبة؛ وقد سمع أنّهم أدخلوا لونا جديدا في الشّعر سمّاه نقّاد الأدب الرّوضيّات أو شعر الحدائق والجنان الّتي كانت تزخر بها الأندلس؛ وسمع أيضا عن شاعر من شعرائهم كان يتعشّق أميرة من الأميرات اسمها ولاّدة بنت المستكفي؛ وقد هام بها ابن زيدون حبّا وكتب فيها أجمل قصائده؛ فمن جملة ما قال فيها:

يا غزالا جمعت فيـــه من الحسن فنــون
أنت في القرب وفي البعد من القلب مكيـــن
بهواك الدّهر ألهـــو وبحبّيك أديـــن
منية الصّبّ أغثنـــي قد دنت منّي المنـون
واحفظ العهد فإنّـــي لست والله أخــون
وارحمن صبّا شجيّـــا قد أذابته الشّجـون
ليلـه همّ وغـــمّ وسقام وأنيـــن
شفّه الحبّ فأمســى سقما لا يستبيـــن
صار للأشواق نهبـــا فنبت عنه العيـون

ومن أجمل ما قاله الشّعراء في الهجر والتّباعد والتّداني قاله ابن زيدون في ولاّدة في رائعته الّتي أوّلها «أضحى التّنائي...»؛ وكدّ ذهنه، أراد أن يتذكّر القصيدة غيبا كاملة، وكان حفظها في أحد مجالس شيوخه الّذين كانوا مولعين بالشّعر والأدب؛ وقد كانت الأسطر تؤوب إلى ذهنه شيئا فشيئا، وكان يتمايل طربا لقصيدة ليس فيها الغزل وحسب، ولكن فيها الكثير من الموسيقى الّتي كانت تتسرّب إلى الحوّاس فتخدّرها تماما:

أضحى التّنائي بديلا من تدانينـا
وناب عن طيب لقيانا تجافينـا

ألا وقد كان صبح البين صبّحنـــــــــا
حين فقام بنا للحين ناعينـــــــــــا
من مبلغ الملبســـــينا بانتزاحهــــــــم
حزم مع الدّهــــر لا يبلى ويبلينــــــــا
أنّ الزّمـــــان الذّي مـــازال يضحكنــــا
أنسا بقربهــم قد بات يبكينــــــــــا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعـوا
بأن نغّص فقال الدّهر آمينــــــــــا
فانحلّ ما كان معقـــــودا بأنفسنــــــا
وانبتّ ما كان موصـــــولا بأيدينـــــا
وقد نكــــــون ومـــا يـخشى تفرّقنــــــا
فاليوم نحن ومـــا يرجـــى تلاقينـــا
يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكـــــــم
هل نال حظّا من العتبى أعادينـــــا
لم نعتقـــــد بعدكم إلاّ الوفـــــا لكــم
رأيا ولم نتقلّد غـــيره دينــــــــــــا
ما حقّنا أن تقـــرّوا عين ذي حســـد
بنا ولا أن تســرّوا كاشحـــــا فينـــا
كنّا نرى اليأس تشلينـــــا عوارضـــــه
وقد يئسنا فما لليـــأس يغرينـــــا
بنتـــم وبنّـــا فما ابتلّت جوانحنــــــا
شوقا إليكم إليكم ولا جفّت مآقينا
نكاد حـــين تناجيكـــم ضمائرنـــــا
يقضي علينا الأسى لـــولا تأسّينـــا
حالـــت لفقدكم (و) أيّامنـــــا فغدت
سودا وكانت بكم بيضا ليالينـــــــا

إذ جانــب العيش طلق من تألّفنـــا
ومربع اللّهو صاف من تصافينـــــا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانيــــة
قطافها فجنينا منه مــا شينـــــا
ليسق عهدكم عهد السّرورفمـــــا
كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينـــــــــا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّـرنـــــا
أن طالما غيّر النّــأي المحبّينـــــا
والله ما طلبت أهواؤنا بـــــدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينـــا
يا ساري البرق غاد القصرواسق به
من كان صرف الهوى والودّ يسقينا
اسأل هنالك هل عنّى تذكّرنــــــا
إلفا تذكّره أمســى يعنّينـــــــا
ويا نسيم الصّبا بلّغ تحيّتنـــــــا
من لوعلى البعد حيّا كان يحيّينـــا
فهل أرى الدّهريقضينا مساعفـــة
منه وإن لم يكن غبّا تقاضينـــــا
ربيب ملك كأنّ الله أنشــــــــأه
مسكا وقدّرإنشاء الورى طينــــا
أوصاغه ورقا محضا وتوّجــــــه
من ناصع التّبرإبداعا وتحسينـــا
إذا تأوّد آدته رفاهيـــــــــــة
توم العقود وأدمته البرى لينــــا
كانت له الشّمـــس ظئرا في أكلّته
بل ما تجلّى لها إلاّ أحايينــــــــا

كأنّما أثبتت في صحـــــن وجنتـه
زهر الكواكب تعويـــذا وتزيينـــا
ما ضرّ أن لم نكن أكفاءه شرفـــا
وفي المودّة كاف من تكافينـــــا
يا روضة طالما أجنت لواحظنـــا
وردا جلاه الصّبا غضّا ونسرينـــا
ويا حيـــاة تملّينا بزهرتهـــا
منى ضروبا ولذّات أفانينـــــا
ويا نعيما خطرنا من غضارتــــه
في وشي نعمى بنا ذيله حينـــــا
لسنا نسمّيك إجلالا وتكرمـــــة
وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينـــا
إذا انفردت وما شوركت في صفـــة
فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينـــا
يا جنّة الخلد أبدلنا بسدرتهـــا
والكوثر العذب زقّوما وغسلينـــا
كأنّنا لم نبت والوصل ثالثنـــا
والسّعد قد غضّ من أجفان واشينا
إن كان قد عزّ في الدّنيا اللّقاء بكـم
في موقف الحشر نلقاكم وتلقونـــا
سرّان في خاطر الظّلماء يكتمنـــا
حتّى يكاد لسان الصّبح يفشينـــا
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
عنه النّهى وتركنا الصّبر ناسينـــا
إنّا قرأنا الأسى يوم النّوى ســـورا
مكتوبة وأخذنا الصّبر تلقينـــا

أمّا هواك فلن نعــــدل بمنهلــــه

شربا وإن كان يروينا فيظمينـــــــا

لم نجف أفق جمال أنت كوكبـــــــه

سالين عنه ولم نهجـره قالينــــــا

ولا اختبارا تجنّبنــــاه عــن كثـــب

لكن عدتنـــا على كره عوادينـــا

نأسى عليك إذا حثّت مشعشعــــــة

فينا الشّمول وغنّانـــا مغنّينـــــا

لا أكؤس الرّاح تبدي من شمائلنـــــا

سيما ارتياح ولا الأوتــار تلهينـــا

دومي على العهد ما دمنا محافظـــــة

فالحرّ من دان إنصافا كما دينـــا

فما استعضنا منك خليلا منك يحسبنا

ولا استفدنا حبيبا عنك يثنينـــــا

ولو صبا نحونا من علو مطلعــــــه

بدر الدّجى لم يكن حاشاك يصبينا

أبكي وفاء وإن لــم تبذلي صلـــــة

فالطّيف يقنعنا والذّكر يكفينـــا

وفي الجواب متاع إن شفعــت بــــه

بيض الأيادي الّتي مازلت تولينـــا

عليك منّا ســلام الله ما بقيـــــت

صبابة بك تخفيها فتخفينـــــا

...الحسرات، الضّنك والضّنى؛ وبخارى هذه الجميلة الفاتنة، وهي تستقبل آلاف المنقطعين، لا يمكنها أن توفّر ركنا، ولو ضئيلا، لمعاقرة بعض الملذّات الأليفة، نظرة شزراء إلى خبايا تلوح على البعد؛ ويغنّي

القلب، وتصدح من داخله موسيقى لا أجمل ولا أروع؛ ويثوب إلى نفسه فيقول إنّه التّعلّل؛ وذكر قوت القلوب وجمالها وحسنها، وحلاوة منطقها، وقال إنّها بشرى خير، وسيسلّم أمره للقضاء، ما دام لا يعلم ما هو مضمر في باطن الغيب... إنّ لديه أعمالا لا بدّ من إنجازها، فما لا ينجزه وقت حلوله قد تمرّ عليه آماد بعد ذلك دون أن يكون قادرا على إنهائه حينما تحلّ الخمدة من بعد النّشاط، ويذهب مضاء العقل ليحلّ معه الخدر الّذي لا يمكنه أن يعوّل عليه. في وقت ما سمع طبلة المنادي؛ وقد انتشلته من أفكاره، وحدّ سمعه ليسمع ما يقول... كان المنادي يوقّع صوته على ضربات طبلته، وكان يعلن بابتهاج زفاف ابنة الوالي من أمير أفشنة، وكان ينقل رغبة الوالي أنّ الجميع مدعوّون للحضور... وذكر طاجيك أنّ في مثل الحالات، كما هو الشّأن في كلّ حواضر المسلمين، ستقام سرادقات، وستعلّق أعلام الزّينة، وتزدهي بخارى بكلّ ألوانها الجميلة، وسيكون هناك أكل من كلّ لون وصنف، وسيحضر الفقراء والأغنياء؛ وإن كانت المقامات دائما محفوظة، ما دام هؤلاء لا يختلطون بأولئك، وستكون للأغنياء أماكنهم المخصّصة لهم وللفقراء أماكنهم إمّا في نهايات السّرادقات أو في زوايا الدّور الّتي أعدّت للطّهو وتحضير صنوف المآكل، فسيأكل الجميع مع ذلك، منهم من سيأكل على خجل، لأنّه إنّما يأكل لأجل خاطر الوالي وتودّدا له، لأنّه ليس في حاجة إلى الأكل ما دام لديه الكثير منه في قصوره؛ والوالي هو رأس البلد وهو الحاكم الّذي يسعى الجميع إلى إرضائه، ومنهم من سيغالي في هذا الإرضاء الّذي كان يتحوّل في أحايين كثيرة إلى تزلّف وبذل ماء الوجه. أمّا الفقراء فقد كانت تلك المناسبات في نظرهم فرصا لا تتكرّر إلاّ في القليل النّادر؛ فالأكل في بيوتهم شبه معدوم، ولا قدرة لهم على تحصيل الرّزق الّذي كان يتحكّم فيه بعض المتنفّذين الّذين كانوا يدّخرونه لمحاسيبهم وذوي قرباهم؛ فيأكل الفقراء وهم يلهجون بالثّناء من قلوبهم على صاحب تلك العزومات ويدعون الله تعالى له في

سرّهم وجهرهم. آه، يا بخارى، إنّ كلّ شيء فيك جميل، لو فقط يهدأ هذا القلب! لو فقط ترتاح هذه النّفس! والنّفس غالبا ما تكون أمّارة بالسّوء، فإذا لم يكن كذلك، فهي اللّوامة الّتي لا تكفّ عن التذمّر والتّأفف؛ ولكن على الرّغم من كلّ ذلك، يبدو أنّ الله قد أسعفه بهذا الكشف، هذه الأسرار الّتي كانت تتوارد عليه الواحدة تلك الأخرى؛ وقد يكون هو أيضا أحد هذه الأسرار، هذه الكشوفات، أو ربّما يكون هو نفسه كلّ هذه الأسرار مجتمعة؛ فإذا كان هناك هذا الخارج الّذي خرج اضطرارا، أوليس هو أيضا قد خرج اضطرارا؟ وإذا كان هذا الخارج لا يعرف وجهته، أوليس هو أيضا لا يعرف وجهته بعد؟ أجل، إنّه هنا، وفي هذا المكان الّذي يعجّ بساكنيه، وحرفه، وأشغاله، ودوره، وقصوره، وأسواقه، وكلّ ما تستلزمه حاجات العباد، إلاّ أنّه يحسّ أنّه بعيد عن كلّ ما يرى وأنّ عينيه معلّقتان بشيء آخر، بعالم آخر، مختلف تماما عمّا يراه؛ لو فقط يتسنّى له أن يرى هذا الخارج مرّة أخرى ربّما ليرى فيه مخايله، ليرى فيه قلقه ووجده، وحزنه وأوقات اضطرابه حين يخلو إلى نفسه ولا معين له سوى أوهامه على أوهامه، ولا معين له على وساوسه غير وساوسه... إنّه ليجد وجدا في نفسه، وحيرة أيضا، ويريد أن يحبّ، لا أن يكره، غير أنّ قلبه يأخذه إلى ضفّة أخرى، لا يحمله إلى امرأة بعينها، أو كلّ النّساء، وإنّما يأخذه إلى جمال غير الجمال، إلى موقف يتساوى فيه كلّ شيء مع كلّ شيء، ولا تبقى غير المناجاة، والسّكون مليّا، ثمّ تنطلق الأصوات وتبدأ المخاطبات... هل كان يكلّم شخصا بعينه؟ هل كان يعني له شيئا كثيرا أن يكلّم شخصا بعينه؟ أم أنّ توقه كان إلى شيء آخر، إلى صوت آخر غير الأصوات المكرورة، إلى دمعة يذرفها بحرقة، لكن وهي تسقط ستطهّر قلبه من أدرانه وتحمله إلى أجواز أخرى غير أجواز الملكوت الّذي يعيش فيه، حيث تنعدم الأوزان والمسافات ويتخلّص الجسد من عوارضه ويستحيل كلّه إلى روح هفهافة تطير من حالة إلى حالة ومن مقام إلى مقام: كان يبغي

مرامات أخرى، وكان يريد لمشاعره أن تهدأ، أن يستعيض عنها بسكينة المستكينين، ورغبة الرّاغبين، وذكر الواقف ومخاطباته؛ وبدأ يستعيد في ذاكرته، ما قاله الّذي أوقفه في أوّل مواقفه، ولكن وجد كأنّ سدًّا يقوم بينه وبين الكلمات، بين الحروف؛ ربّما لم يحن الوقت بعد لكلّ ذلك، وأنّ عليه أن يتنظر، أن لا يتعجّل كما قال له ذلك الصّوت الّذي جاءه أوّل مرّة، ثمّ تحوّل بعد ذلك، إلى بياض، ثمّ إلى هالة من نور، وهو يحدّثه عن بدر النّور... عاد إلى مكانه، وأخذ كتبه من جديد، وقد أزمع أن يؤخّر موعد أكله إلى ما بعد صلاة المغرب حين يصلّيها في المسجد الجامع، ثمّ يعرّج على القهوة ليطمئنّ على صديقه الجديد علاء الدّين، ومن بعد ذلك سيذهب إلى مطبخ الخان وسيأكل هناك. أخذ «الخروج» وتصفّح ما كتبه على حواشيه، وتأمّل في إصحاح بعد إصحاح، وتركّزت عيناه على الإصحاح السّابع، وراح يقرأ دون أن تكون له الرّغبة أن يكتب في نفس الوقت على الحاشية: «[1]فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. [2]أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ، وَهَارُونُ أَخُوكَ يُكَلِّمُ فِرْعَوْنَ لِيُطْلِقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِهِ. [3]وَلكِنِّي أُقَسِّي قَلْبَ فِرْعَوْنَ وَأُكَثِّرُ آيَاتِي وَعَجَائِبِي فِي أَرْضِ مِصْرَ. [4]وَلاَ يَسْمَعُ لَكُمَا فِرْعَوْنُ حَتَّى أَجْعَلَ يَدِي عَلَى مِصْرَ، فَأُخْرِجَ أَجْنَادِي، شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ. [5]فَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ حِينَمَا أَمُدُّ يَدِي عَلَى مِصْرَ وَأُخْرِجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِهِمْ». [6]فَفَعَلَ مُوسَى وَهَارُونُ كَمَا أَمَرَهُمَا الرَّبُّ. هكَذَا فَعَلاَ. [7]وَكَانَ مُوسَى ابْنَ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَهَارُونُ ابْنَ ثَلاَثٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً حِينَ كَلَّمَا فِرْعَوْنَ.

[8]وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلاً: [9]«إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قَائِلاً: هَاتِيَا عَجِيبَةً، تَقُولُ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرَ ثُعْبَانًا». [10]فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلاَ هكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا. [11]فَدَعَا

فِرْعَوْنُ أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذلِكَ. [12]طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ الْعِصِيُّ ثَعَابِينَ. وَلكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ. [13]فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ.

[14]ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَلْبُ فِرْعَوْنَ غَلِيظٌ. قَدْ أَبَى أَنْ يُطْلِقَ الشَّعْبَ. [15]اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ. إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى الْمَاءِ، وَقِفْ لِلِقَائِهِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ. وَالْعَصَا الَّتِي تَحَوَّلَتْ حَيَّةً تَأْخُذُهَا فِي يَدِكَ. [16]وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلاً: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي فِي الْبَرِّيَّةِ. وَهُوَذَا حَتَّى الآنَ لَمْ تَسْمَعْ. [17]هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: بِهذَا تَعْرِفُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ: هَا أَنَا أَضْرِبُ بِالْعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَمًا. [18]وَيَمُوتُ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَيَنْتِنُ النَّهْرُ. فَيَعَافُ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ».

[19]ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى أَنْهَارِهِمْ وَعَلَى سَوَاقِيهِمْ، وَعَلَى آجَامِهِمْ، وَعَلَى كُلِّ مُجْتَمَعَاتِ مِيَاهِهِمْ لِتَصِيرَ دَمًا. فَيَكُونَ دَمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ فِي الأَخْشَابِ وَفِي الأَحْجَارِ». [20]فَفَعَلَ هكَذَا مُوسَى وَهَارُونُ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. رَفَعَ الْعَصَا وَضَرَبَ الْمَاءَ الَّذِي فِي النَّهْرِ أَمَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عُيُونِ عَبِيدِهِ، فَتَحَوَّلَ كُلُّ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ دَمًا. [21]وَمَاتَ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَأَنْتَنَ النَّهْرُ، فَلَمْ يَقْدِرِ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ. وَكَانَ الدَّمُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. [22]وَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ كَذلِكَ بِسِحْرِهِمْ. فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ.

[23]ثُمَّ انْصَرَفَ فِرْعَوْنُ وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَلَمْ يُوَجِّهْ قَلْبَهُ إِلَى هذَا أَيْضًا. [24]وَحَفَرَ جَمِيعُ الْمِصْرِيِّينَ حَوَالَيِ النَّهْرِ لأَجْلِ مَاءٍ لِيَشْرَبُوا، لأَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ مَاءِ النَّهْرِ.

[25]وَلَمَّا كَمُلَتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ بَعْدَ مَا ضَرَبَ الرَّبُّ النَّهْرَ.» وهو يقرأ، كانت رأسه تتراكم فيها التّساؤلات وتتضخّم؛ وأثارت فيه حكاية خروج بني

إسرائيل من مصر لجبا من الأسئلة، ووجد نفسه يتساءل: هل أنّ أيّ خروج لا بدّ أن يكون مقدّرا من البداية؟ وهل أنّ خروج شعب من الشّعوب من أرض إلى أرض لا بدّ فيه من تدخّل إلهيّ؟ أم أنّ هذا الأمر لا يتعلّق إلاّ بمن اختارهم الله لرسالته وأرسل فيهم رسله؟ أم أنّ الله لا يتدخّل إلاّ في حال الضّعفاء: فيتدخّل لينقذهم من الجبّارين؟... ويبالغ في تهويماته ثمّ يعود إلى صورة الرّجل، إلى بدر النّور، ويقول: هو ذا يخرج وهو وحيد؟ ولا يبعد أن يكون خروجه بأمر إلهيّ، فلا فرق إذن في هذه الحالة بين الفرد الواحد، وبين الشّعوب؛ ولا يبعد أن يكون الله قد تدخّل في كلتا الحالتين لحكمة: فهو يخرج الشّعب من ضيق الحال إلى سعة الأرض والرّزق، وهو يخرج الأفراد بنقلهم من الجهل إلى العلم، ومن الضّياع إلى الخلاص. ولكن أيّ خلاص؟... وكتب على الحاشية، إذا أخذنا بظاهر ما ذكر في الإصحاح، فإنّ الله تعالى كان يضمر من البداية أن يهلك فرعون، ولكنّه قبل إهلاكه أراد أن يري النّاس فيه آياته ليكون عبرة للمعتبرين: فالمبالغة في التّبيين، وإيراد الآية تلو الآية كانت الغاية منه المبالغة في الاعتبار؛ فإذا كان المتأمّل يرى كيف ابتلى الله فرعون وملأه بإرسال الجراد والقمّل والضّفادع والدّم وكلّ الآيات المفصّلات الّتي ذكرت في غير موضع من القرءان علم أنّ الله كثير الحلم، ولكنّه يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ فإنّ أخذه سيكون أخذ عزيز مقتدر؛ وقد قال الله تعالى، وهو يخاطب موسى ويرسله إلى فرعون لينذره: «[٣]وَلكِنِّي أُقَسِّي قَلْبَ فِرْعَوْنَ وَأُكَثِّرُ آيَاتِي وَعَجَائِبِي فِي أَرْضِ مِصْرَ. [٤]وَلاَ يَسْمَعُ لَكُمَا فِرْعَوْنُ حَتَّى أَجْعَلَ يَدِي عَلَى مِصْرَ، فَأُخْرِجَ أَجْنَادِي، شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ»... في الدّاخل، كانت الظّلال تتكاثف شيئا فشيئا، وكانت تغطّي على بقيّة النّور في الغرفة، فأصبح لا يستطيع التّمييز بين الحروف والكلمات، فآثر أن يغلق كتبه ودفاتره، وأن يضع كلّ شيء في مكانه، ويخرج لينال قسطا من الرّاحة قبل أن يذهب إلى المسجد الجامع... كانت الشّمس تؤذن بالمغيب حين

خرج، وكان يجد في نفسه نشاطا غير عاديّ؛ وطفا على ذاكرته صوت المخاطب وهو يوقف المخاطب على الموقف: « أوقفني في العزّ وقال لي لا يستقلّ به من دوني شيء، ولا يصلح من دوني لشيء، وأنا العزيز الّذي لا يستطاع مجاورته، ولا ترام مداومته، أظهرت الظّاهر وأنا أظهر منه فما يدركني قربه ولا يهتدي إليّ وجوده، وأخفيت الباطن وأنا أخفي منه فما يقوم عليّ دليله ولا يصحّ إليّ سبيله. وقال لي أنا أقرب إلى كلّ شيء من معرفته بنفسه فما تجاوزه إليّ معرفته، ولا يعرفني أين تعرّفت إليه نفسه. وقال لي لولاي ما أبصرت العيون مناظرها، ولا رجعت الأسماع بمسامعها. وقال لي لو أبديت لغة العزّ وطفت الأفهام خطف المناجل، ودرست المعارف درس الرّمال عصفت عليها الرّياح العواصف. وقال لي لو نطق ناطق العزّ لصمتت نواطق كلّ وصف، ورجعت إلى العدم مبالغ كلّ حرف. وقال لي أين من أعدّ معارفه للقائي لو أبديت له لسان الجبروت لأنكر ما عرف، ولمار مور السّماء يوم تمور مورا. وقال لي إن لم أشهدك عزّي فيما أشهد أقررتك على الذّلّ فيه، وقال لي طائفة أهل السّموات وأهل الأرض في ذلّ الحصر، ولي عبيد لا تسعهم طبقات السّماء ولا تقلّ أفئدتهم جوانب الأرض. أشهدت مناظر قلوبهم أنوار عزّتي فما أتت على شيء إلا أحرقته، فلا لها منظر في السّماء فتثبته، ولا مرجع إلى الأرض فتقرّ فيه. وقال لي خذ حاجتك الّتي جمعك عليّ وإلا رددتك إليها وفرّقتك عنّي. وقال لي مع معرفتي لا تحتاج، وما أتت معرفتي فخذ حاجتك. وقال لي تعرّفي الّذي أبديته لا يحتمل تعرّفي الّذي لم أبده. وقال لي لا أنا التّعرف ولا أنا العلم، ولا أنا كالتّعرف ولا أنا كالعلم.»

٤- اللاّويّون

كان ما يزال إلاّ دقائق معدودات على الإقامة، وكان المؤذّن قد رفع الآذان منذ قليل؛ فجلس حذاء السّارية المقابلة للمنبر بعد أن أخذ المصحف الشّريف من على نضد قصير وراء ساريته، وراح يتصفّح الأوراق الّتي كان يبدو عليها القدم؛ ولم تكن في ذهنه سورة محدّدة؛ غير أنّه كان يعي أنّ كثيرا من سور القرءان قد ورد فيها ذكر موسى وأخيه هارون عليهما السّلام وبني إسرائيل؛ وقال بينه وبين نفسه أن ليس في الأمر غرابة؛ فموسى عليه السّلام هو من أهل العزم من الرّسل، وما استمرار ذكر وروده في غير سورة من القرءان إلاّ أنّه كان نبيّا على قوم لم يرسل الله تعالى في غيرهم من الرّسل أكثر منهم؛ وقد اختارهم الله وفضّلهم على كثير من الأمم من حولهم، كانوا لا يعبدون مثلهم إلها واحدا وإنّما كانوا مشركين غير موحّدين. ثمّ إنّ الله تعالى بحكمته أراد أن يبيّن بما لا يدع مجالا للشكّ كيف يمكنه أن يحوّل من حال إلى حال، وكيف بإمكانه أن يجعل من شعب مستضعف، قليل ذليل، شعبا ذا بأس، وأن ينصرهم على من هم أكثر منهم قوّة وعتادا، وذلك بعظيم رحمته بهم، وبتفضيلهم إيّاهم على من سواهم؛ فلو تأمّلنا قوّة فرعون وبطشه، وقوّة العيلاميّين، والحثّيين، والحوّيين، واليبوسيّين، وكيف أنّ الله مكّن بني إسرائيل من الخروج من مصر، ووقاهم شرّ من حولهم من الأعداء، علم أنّ الله لا يعجزه شيء وأنّه القادر على كلّ شيء؛ ولكنّه سبحانه وتعالى على الرّغم من ذلك يأخذ على أيّ شعب من الشّعوب ممّن فضّلهم العهود والمواثيق بأن يكونوا معه، وأن لا يشركوا بعبادته شيئا؛ فإذا فعلوا كانوا مثل غيرهم عرضة لغضبه

وجبروته وقوّة سلطانه... وضع المصحف في مكانه حين الإقامة، وأخذ مكانه في الصفّ الأوّل وراء الإمام مباشرة وهو يقرأ بعد الفاتحة: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)» ورغم أنّه كان يريد التّركيز في صلاته، لا يدري لماذا بدت لعينيه تلك العصا، وكأنّه يراها في الحال، في ذلك الزّمان، وفي ذلك الوقت بالذّات تتحوّل إلى ثعبان مبين، وكيف كان ذلك الثّعبان الضّخم يتلوّى . وقد سمّاه الله أيضا حيّة؛ وكيف كان يلتقم كلّ حيّات السّحرة؛ وكانت تلك آية من الآيات البيّنات الّتي لا مراء فيها ولا اختلاف، وكانت دليلا على عظمة الخالق الّذي أراد السّلامة للسّحرة فأسلموا وآمنوا به، في حين كان قلب فرعون يقسو المرّة بعد المرّة... كان السّحرة يدركون أنّ من قهر سحرهم (وهو سحر لا يستطيع أن يأتي بمثله بشر) لا يمكن إلاّ أن يكون ربّا لا يضاهى، ولا بدّ أن يكون هو من خلق السّحر والسّحرة، وموسى وهارون، وفرعون وجنده والنّاس أجمعين... وأنهى صلاته، فانتعل حذاءه ووراه الباب وهو يتّجه صوب القهوة، قهوة صديقه علاء الدّين الّذي وجده كعادته أمام أركيلته وهو يسرّح طرفه بعيدا وراء الباب... الأشياء في الخارج مجرّد خيالات، مجرّد أطياف بدأ اللّيل يواربها، والشّمس قد اختفت تماما ولكنّها تركت في مكان اختفائها صفرة وحمرة قد استحالت إلى قرمزيّة كامدة؛ والحركة بدأت تخفّ، فروّاد الخان قد آووا إلى غرفهم، وأهل بخارى الّذين كانوا يسكنون غير بعيد عن الخان قد غيّبتهم الأزقّة الضّيقة والحواري وهم في طريقهم إلى منازلهم، وأصحاب الأسواق قد أغلقوا دكاكينهم، وأصحاب المصالح قد أنهوا مصالحهم... الحياة في

بخارى لا تتوقّف... دائما هناك جديد، ما تراه العين في الظّاهر يتبدّل ولا يثبت على حال، غير أنّ ما يحدث في الباطن لا يعلمه إلاّ الله، وحتّى أولئك الّذين ابتلوا بالهواجس والوساوس لا يعلمون من أمرها غير ما تحدثه في أنفسهم من الأوجاع الّتي كانت تتواتر عليهم من حين إلى حين ويكون لها مثل الوخز الّذي يظلّ يسبّب قلقا من حين لآخر، ولا يتوقّف أبدا... اتّخذ مجلسه المعتاد مقابل صديقه بعد أن أطلق التّحيّة، وأومأ إلى الغلام الّذي كان يخدم بعض الزّبائن غير بعيد، ففهم عنه وراح ليجلب له أركيلته ومشروبه المعتاد... لم يشأ أن يقطع على صاحبه شروده، وغاب هو الاخر مع الخيالات والأطياف في الخارج، وقال: «سبحان مبدّل الأحوال، الّذي يغيّر من حال إلى حال... سبحان الّذي يغيّر ولا يتغيّر.» كان مرتاحا، رغم الضّنى، رغم الحنين إلى بغداد، رغم المدّة الطّويلة الّتي لم يرولم يسمع فيها لا عن والده ولا عن بوران اللّذين انقطعت أخبارهما عنه فجأة؛ كان يريد أن يؤخّر الحديث إلى حين قدوم الأركيلة، وقد رأى الغلام وقد بدا أخيرا وهو يحملها بيد وباليد الأخرى كان يحمل كوبا كبيرا يعلوه بخار كثيف؛ وقال: «ما أحلى أن يدفّئ الإنسان نفسه بمشروب ساخن في هذا المساء البارد.» استقرّ كلّ شيء في مكانه، وكان الدّخان يعلو بطيئا في البداية، ثمّ يلتحم في وقت ما، ويتفرّق أخيرا شذر مذر حين يبلغ السّقف، ثمّ يتلاشى أخيرا بين الزّوايا الّتي لم تكن مضاءة تماما ولا مظلمة تماما. قال:

- يبدو أنّها ستكون ليلة باردة...

نظر إليه علاء الدّين، وهو يفيق من شروده أخيرا، وقد بدا أنّ الذّي أيقظه هاجس في داخله أكثر من صوت طاجيك الّذي كان مقابله تماما.

- يبدو ذلك...

قال طاجيك:

- هل ستحضر زفاف ابنة الوالي؟

أجاب علاء الدّين وهو يقرّب خرطوم الأركيلة من فمه:

- لا يمكن أن أترك القهوة وحدها؛ والغلام وحده لا يمكن أن يقوم بها بمفرده.

كان طاجيك هو الآخر يسحب الدّخان إلى صدره، وقد بدأ ينتعش شيئا فشيئا من أثر الدّخان الّذي كان يثير فيه خدرا لذيذا؛ وقال بعد لأي:

- ما رأيك لو تمنح غلامك إجازة، ونحضر العرس سويّا. ستكون تلك فرصة للتّغيير...

ثمّ بعد أن حسا من كوبه حسوات سريعات:

-ولا أظنّ أنّك حضرت من قبل عرسا من أعراس بخارى؛ وستكون هذه مناسبة للتّعرّف على بعض عادات أهل البلد... ولا تنس أنّ عرسا كهذا لا بدّ أن يكون عرسا مميّزا، سيّما أنّ العروس هي ابنة الوالي، والعريس هو أمير أفشنة.

أراد علاء الدّين أن يمنح نفسه وقتا كافيا لاتّخاذ قراره. تململ قليلا في مكانه. وجد أنّ الفكرة لا بأس بها. وقال في نفسه إنّ طول مكوثه في مكان واحد من شأنه أن يثقل بدنه وأن يعييه قبل الأوان. قال:

- لم لا؟ تبدو فكرة جيّدة...

وأراد أن يتأكّد من موعد العرس؛ لأنّه رغم أنّه سمع طبلة المنادي إلاّ أنّه كان غارقا في تأمّلاته حين سمع النّداء. قال سائلا:

- ومتى العرس؟

قال طاجيك مجيبا:

- بعد غد؛ سيكون يوم الخميس...

ثمّ أضاف:

- سأمرّ عليك، وسنذهب سويّا.

ثمّ لوى الخرطوم حول الأركيلة، وقال وهو يستدير بظهره ليخرج:

- سأدعك الآن؛ فلا تنس موعدنا بعد غد، وكن مستعدّا.

وخرج. عرّج على مطبخ الخان وتناول عشاءه ثمّ آوى إلى غرفته حيث كان ترك كتبه ودفاتره، فوجده هناك... كان يراه، ويرى نفسه؛ وفي وقت ما بدا له أنّه هو، وهو هو نفسه، وتماهى الطّيفان فباتا واحدا؛ وكان يراه أو يرى نفسه تغيّبه الحارات والنّواصي، في بلد بعيد بعيد جدّا؛ وحدّ عينيه فبدت له أسماء لم يسمع بها من قبل، «حارة الفرنساوي»، «شارع الجيش»، «العجوزة»، «الجيزة»، وأسماء وأسماء، وكانت تتكرّر بينها صورة لوكالة في مكان ما من فضاء فسيح... فسيح جدّا؛ قال له هاجس في نفسه، حين أعوزته الكلمات لتسمية ما كان يراه أمامه في عظمته وضخامته وهو معلّق بين السّماء والأرض: «إنّها الكباري!!»، وقال له الهاجس: «إنّك ترى العتبة.» وصار الطّيف الآن واضحا أمامه وضوح الشّمس في رابعة النّهار... ولكن ما هذا الّذي يلبسه؟ ما هذه القيافة الغريبة عنه؟ هذه الأشياء؟ وبدا له أنّه يتخلّص من ملابسه القديمة: الشّملة والقفطان والعمامة الصّغيرة وسراويله الفضفاضة، وأنّه يلبس مثل الّذي كان يراه أمامه، فهل هو هو، أم هو آخر؟ ونبع الصّوت الّذي كان زاره في مرّات سابقة، ورآه بياضا خالصا في المسجد الجامع، ثمّ رآه هالة من نور في غرفته: «الآن ترى الأعيان عيانا؛ فلا معمّيات؛ والآن أنت أنت، وأنت آخر؛ وزمانك زمان غيرك، وزمان غيرك زمنك، وأسراره أسرارك؛ ومواجيده... وهو في سفره أنت، وأنت في سفره هو؛ فلا فرق؛ وما سيراه ستراه، وما ستراه كان هو رآه؛ أحماله ستحملها بعد أن حملها وناء بها؛ وقد خرج، وكنت خرجت أنت؛ ولكن كان منذ البدء مقدّرا لك أن تراه وهو يرى، أن تراه وهو ينوء بأثقاله؛ وتشطح به المسافات، وتخفظه الأقدار إلى آل، وترفعه إلى آل...» وقال الصّوت الّذي نبع فجأة: «قال الرّائي: وخرج من القاهرة، وهي أحبّ أرض الله إليه، وترك فيها زوجة وأولادا، وقد نازعته نفسه إلى البقاء، ولكن ما كان كان، ولو خيّر لبقي، لآثر المكوث حيث هو، في أرض أجداده؛ ما يعزّيه أنّ أخاه عبد المنعم كان هناك، وأنّه سيقوم بأمر

الجميع من بعده؛ وكان يتساءل، مرارا وتكرارا: «لماذا أخرج؟» فيجيبه صوت، بداخله أو من خارج وعيه: «لا تسأل... لا تسأل... تسأل...» وكان ذلك صوتا لا يراجع، ولا ينتظر اعتراضا؛ وقال له: «سر... قدماك ستحملك إلى حيث شاءت لك أقدارك أن تذهب...» واختفى فجأة كلّ شيء، وكأنّ من كان يريد له أن يرى ما رأى إنّما كان همّه أن يريه الأشياء واحدة بعد أخرى، وفي أوقات، وقت بعد وقت، فربّما لو رأى دفعة واحدة لناء بالحمل، أو لربّما التاث عقله، أو أنكر نفسه؛ قال له الصّوت، وهو يغادر: «لا تحسبّن الأسرار هيّنة، ولا الجروح دائما من الممكن احتمالها، وأن تعرف طريقا أمامه طريق، وأمام الطّريق طريق آخر، وأمام الطّريق الثّاني طريق ثالث، وطريق رابع، وخامس، وسادس، وسابع... أن تعرف أن تسبح، في بحر غير البحر، أن تعرف أن تطير في فضاء غير كلّ فضاء، أن تعرف أن تتجرّد، وأن تصير ذاتا بلا صفات، أن تعرف أن تكون في جسدك، وأن لا تحسّ به... أن تعرف أن تترك نفسك للأصوات، لصوامع الحقّ، لمن كانوا وسيكونون، وإن لم يكونوا...» كان الأمر أكثر من أن يحتمله فتهالك على حشّيته، وأغمض عينيه، وراح يجهد نفسه أن ينسى للحظات كلّ ما سمعه ورآه، فما عتم أن أحسّ كأنّه لم يسمع شيئا ولم ير شيئا، ووجد داخله نشاطا كان يدعوه، بكلّ قوّة، ورغما عنه، إلى القيام لكتبه ودفاتره... كان «اللاّويّون» ينتظره هذه المرّة، ففتحه، والقلم بين إصبعيه السّبّابة والإبهام، يديره في حركة من يريد أن يطرد شيئا مزعجا من أمام عينيه، وفي نفس الوقت يريد أن يحفّز نفسه ويقنعها أنّه قادم على القيام بعمل جليل. كان يمرّ على الإصحاحات إصحاحا بعد إصحاح، دون أن يكتب شيئا في الحاشية، إلى أن بلغ الإصحاح التّاسع، فقرأه كاملا: «[1]وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ دَعَا مُوسَى هَارُونَ وَبَنِيهِ وَشُيُوخَ إِسْرَائِيلَ. [2]وَقَالَ لِهَارُونَ: «خُذْ لَكَ عِجْلاً ابْنَ بَقَرٍ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَكَبْشًا لِمُحْرَقَةٍ صَحِيحَيْنِ، وَقَدِّمْهُمَا أَمَامَ الرَّبِّ. [3]وَكَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: خُذُوا تَيْسًا

مِنَ الْمَعْزِ لِذَبِيحَةِ خَطِيَّةٍ، وَعِجْلاً وَخَرُوفًا حَوْلِيَّيْنِ صَحِيحَيْنِ لِمُحْرَقَةٍ، [٤]وَثَوْرًا وَكَبْشًا لِذَبِيحَةِ سَلاَمَةٍ لِلذَّبْحِ أَمَامَ الرَّبِّ، وَتَقْدِمَةً مَلْتُوتَةً بِزَيْتٍ. لأَنَّ الرَّبَّ الْيَوْمَ يَتَرَاءَى لَكُمْ». [٥]فَأَخَذُوا مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى إِلَى قُدَّامِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. وَتَقَدَّمَ كُلُّ الْجَمَاعَةِ وَوَقَفُوا أَمَامَ الرَّبِّ. [٦]فَقَالَ مُوسَى: «هذَا مَا أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ. تَعْمَلُونَهُ فَيَتَرَاءَى لَكُمْ مَجْدُ الرَّبِّ». [٧]ثُمَّ قَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: «تَقَدَّمْ إِلَى الْمَذْبَحِ وَاعْمَلْ ذَبِيحَةَ خَطِيَّتِكَ وَمُحْرَقَتَكَ، وَكَفِّرْ عَنْ نَفْسِكَ وَعَنِ الشَّعْبِ. وَاعْمَلْ قُرْبَانَ الشَّعْبِ وَكَفِّرْ عَنْهُمْ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ». [٨]فَتَقَدَّمَ هَارُونُ إِلَى الْمَذْبَحِ وَذَبَحَ عِجْلَ الْخَطِيَّةِ الَّذِي لَهُ. [٩]وَقَدَّمَ بَنُو هَارُونَ إِلَيْهِ الدَّمَ، فَغَمَسَ إِصْبَعَهُ فِي الدَّمِ وَجَعَلَ عَلَى قُرُونِ الْمَذْبَحِ، ثُمَّ صَبَّ الدَّمَ إِلَى أَسْفَلِ الْمَذْبَحِ. [١٠]وَالشَّحْمَ وَالْكُلْيَتَيْنِ وَزِيَادَةَ الْكَبِدِ مِنْ ذَبِيحَةِ الْخَطِيَّةِ أَوْقَدَهَا عَلَى الْمَذْبَحِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى. [١١]وَأَمَّا اللَّحْمُ وَالْجِلْدُ فَأَحْرَقَهُمَا بِنَارٍ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ.

[١٢]ثُمَّ ذَبَحَ الْمُحْرَقَةَ، فَنَاوَلَهُ بَنُو هَارُونَ الدَّمَ، فَرَشَّهُ عَلَى الْمَذْبَحِ مُسْتَدِيرًا. [١٣]ثُمَّ نَاوَلُوهُ الْمُحْرَقَةَ بِقِطَعِهَا وَالرَّأْسَ، فَأَوْقَدَهَا عَلَى الْمَذْبَحِ. [١٤]وَغَسَّلَ الأَحْشَاءَ وَالأَكَارِعَ وَأَوْقَدَهَا فَوْقَ الْمُحْرَقَةِ عَلَى الْمَذْبَحِ. [١٥]ثُمَّ قَدَّمَ قُرْبَانَ الشَّعْبِ، وَأَخَذَ تَيْسَ الْخَطِيَّةِ الَّذِي لِلشَّعْبِ وَذَبَحَهُ وَعَمِلَهُ لِلْخَطِيَّةِ كَالأَوَّلِ. [١٦]ثُمَّ قَدَّمَ الْمُحْرَقَةَ وَعَمِلَهَا كَالْعَادَةِ. [١٧]ثُمَّ قَدَّمَ التَّقْدِمَةَ وَمَلأَ كَفَّهُ مِنْهَا، وَأَوْقَدَهَا عَلَى الْمَذْبَحِ، عَدَا مُحْرَقَةِ الصَّبَاحِ. [١٨]ثُمَّ ذَبَحَ الثَّوْرَ وَالْكَبْشَ ذَبِيحَةَ السَّلاَمَةِ الَّتِي لِلشَّعْبِ. وَنَاوَلَهُ بَنُو هَارُونَ الدَّمَ فَرَشَّهُ عَلَى الْمَذْبَحِ مُسْتَدِيرًا. [١٩]وَالشَّحْمَ مِنَ الثَّوْرِ وَمِنَ الْكَبْشِ: الأَلْيَةَ وَمَا يُغَشِّي، وَالْكُلْيَتَيْنِ وَزِيَادَةَ الْكَبِدِ. [٢٠]وَوَضَعُوا الشَّحْمَ عَلَى الصَّدْرَيْنِ، فَأَوْقَدَ الشَّحْمَ عَلَى الْمَذْبَحِ. [٢١]وَأَمَّا الصَّدْرَانِ وَالسَّاقُ الْيُمْنَى فَرَدَّدَهَا هَارُونُ تَرْدِيدًا أَمَامَ الرَّبِّ، كَمَا أَمَرَ مُوسَى.

[٢٢]ثُمَّ رَفَعَ هَارُونُ يَدَهُ نَحْوَ الشَّعْبِ وَبَارَكَهُمْ، وَانْحَدَرَ مِنْ عَمَلِ ذَبِيحَةِ الْخَطِيَّةِ وَالْمُحْرَقَةِ وَذَبِيحَةِ السَّلاَمَةِ. [٢٣]وَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ، ثُمَّ خَرَجَا وَبَارَكَا الشَّعْبَ، فَتَرَاءَى مَجْدُ الرَّبِّ لِكُلِّ الشَّعْبِ

[24]وَخَرَجَتْ نَارٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ وَأَحْرَقَتْ عَلَى الْمَذْبَحِ الْمُحْرَقَةَ وَالشَّحْمَ. فَرَأَى جَمِيعُ الشَّعْبِ وَهَتَفُوا وَسَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ.» وكتب على الحاشية: «وهناك تفصيل دقيق فيما كان يجب على بني إسرائيل أن يفعلوه، وأن يلتزموا به حتّى لا يغضبوا الربّ؛ وكان الرّبّ قد وضع لهم ما يجب عليهم، لكلّ حال حالها، فحدّد لهم القرابين الّتي يجب عليهم أن يقدّموها؛ وفي حال الأخطاء أو تعمّد الأخطاء ما كان يجب عليهم القيام به للتّكفير عن تلك الخطايا؛ وكانت تلك هي العهود الّتي بينهم وبين الرّبّ؛ أشياء عينيّة...» وكتب بين معقّفين: «وربّما يرجع ذلك إلى الطّبيعة الّتي جبل عليها الله تعالى بني إسرائيل؛ وهي طبيعة من لا يصدّق شيئا حتّى يراه؛ وهي من جملة عيوب لهم ذكرها الله تعالى لنا في القرءان الكريم، سيّما في سورة البقرة الّتي كانت في جزء كبير منها ذكرا لقصص بني إسرائيل وما وقع لموسى عليه السّلام معهم؛ فنقرأ، بعد أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم بسم الله الرّحمان الرّحيم: «وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)» ومثل ذلك غير يسير في غير موضع من القرءان؛ ولذلك كان تعامل الله معهم بما يرونه؛ ومن مثل ذلك أيضا ما ورد عن البقرة الّتي أمر الله موسى أن يأمرهم بذبحها، فلم يفعلوا حتّى جادلوه في ماهيّتها ولونها وأخيرا في تحديدها تحديدا لم يبق لهم معه سوى أن يرضخوا وينفّذوا؛ ولا غرو بعد ذلك في أنّهم كانوا لا يستنكفون أن يضفوا على الله صفات البشر ويتعاملون معه كأنّه واحد من جملة ما خلق؛ ويدخل فيه

. والعياذ بالله . الكثير من الكفر والشّرك.» وأغلق المعقّفين؛ ثمّ كتب من جديد على الحاشية: «وإنّما كانت تلك عهود لمن أراد أن يعاهدهم الله، وحتّى تكون شاهدا عليهم، وحتّى يعلم من يعلم أنّه لا مجال له لمخالفتها. فإذا خالفها كان عليه أن يأتي بما أمره الله أن يأتي به حتّى يتحلّل من مخالفته... وهذا الأمر من أمور العيان، قد كان مثيل له من مبدإ تاريخ البشر، حيث يعلمنا الحقّ تعالى أنّه حينما قتل قابيل هابيل أرسل الله إليه، كي يريه ما يجب عليه فعله. ذينك الغرابين فكان منهما ما كان منهما حيث اقتتلا وقتل أحدهما الآخر فحفرله حفرة وأراه فيها. وفي «اللاّويّون» إنّما ينقل لنا الله أخبار بني إسرائيل مع موسى وهارون عليهما السّلام، وهما من نسل لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام...» ثمّ وهو يضع القلم على النّضد بجانبه، كان يخيّل إليه أنّه يرى أشياء، وأنّ ما كان يقرأه كان يتمثّل له عيانا أمامه، وكان يرى الخيمة، ويرى المذبح والتّقدمات الّتي كانت تقدّم، وكان يرى الكهنة، وأبناء هارون، وأبناء موسى، وكان يرى الشّعب الّذي اختاره الله في ذلك الزّمان لرسالته، وهم يحملون أبقارهم وكباشهم، ومعزاهم وتيوسهم، وزيتهم ودقيقهم، وهم يترنّمون بترانيمهم... وكان يرى الدّم الّذي يسفح؛ وكان يشمّ رائحة الشّواء؛ وكان يرى الدّخان الّذي كان يتعالى ويتعالى ثمّ يكوّن حلقات حتّى يبلغ عنان السّماء؛ واختلط المشهد الّذي يراه بآخر قديم، قديم جدّا موغل في القدم؛ رأى قابيل يجادل آخاه هابيل، ويأبى عليه أن تكون توأمته لأخيه متحجّجا أنّ توأمته هي أجمل من توأمة أخيه هابيل؛ ورآه وهو يلجّ في المعاندة والتّكبّر؛ وسمع كأنّ صوتا يخاطبهما ويقول: «إذا كنت تأبى عليه، وتصرّ، فقدّما قربانا إلى الله، فمن قبل الله قربانه كان هو المحقّ، ومن لم يقبل قربانه فذلك دليل على أنّه على غير الصّواب.» ثمّ يرى الأخوين وهما يقدّمان إلى الله؛ وقد كان هابيل صاحب ضرع فقدّم أجود ما لديه، وكان قابيل صاحب زرع فاختار حزمة سنبل وجد فيها سنبلة

كبيرة فأخذها وفركها بيديه ثمّ أكلها؛ وجاءت نار من السّماء وأكلت تقدمة هابيل وتركت تقدمة قابيل؛ وعلم هابيل أنّ أخاه لا شكّ قاتله ففرّ منه في شعاف الجبال، وتوارى عن عينيه أيّاما، حتّى لقيه في أحد الأيّام وهو نائم، فشدخ رأسه بصخرة فمات؛ وكان من أمر قابيل بعد ذلك ما كان، فعاش طريدا شريدا إلى أن قتله بعد ذلك رجل من نسله كان أعمى؛ وتتواتر الصّور أمام عينيه، ويرى كأنّه يراه، كأنّه يرى نفسه في ذلك الجمع، يرى نفسه وقد تماهى مع بدر النّور الّذي كان خرج من محلّته والنّاصية الّتي كان يقوم فيها بيته، ويراه وهو يغادر قاهرة صباه، ويتماهى في هذا الجمع، تتأطّر صورته في هذا المشهد القديم؛ ويراهما، يرى نفسه ومع من تماهى معه يأخذان عهدا على نفسيهما، هو غير العهد الّذي أخذه الله على بني إسرائيل، وإنّما هو عهد المحبّة، العهد الّذي يأخذه الشّيوخ على مريديهم؛ ويسمع على البعد، ربّما في زاوية قصيّة من اللاّمكان، أو في حدود لامحدّدة بين السّماء والأرض، أو في صومعة من الصّوامع، أصواتا لم يسمع أجمل منها توقيعا ولا أحلى نغمة وهي تردّد: «مدد... مدد...» وتتوالى الأصوات؛ ثمّ تزداد بعد ذلك حدّة وشدّة وهي تترافق مع أصوات الدّفوف... ويرى بعد ذلك حلقة الذّكر وهي تتّسع وتتسّع، ويرى المريدين وهم يدورون ويدورون. يقول: «ألا يتعبون؟ ألا يصيبهم الإغماء من هذا الدّوران المتواصل؟» وتتالى المشاهد، مشاهد تتلوها مشاهد أخرى؛ وفي صحراء، أو في بادية من بوادي العرب، كانت تتراءى له خيمة على البعد، ولكن ما من ديّار ولا نافخ نار؛ وبدت له الدّنيا تضيء بنور شمس ساطعة، وعلى الرّغم من شدّة حرارتها لم يكن هناك ما يوحي أنّ عناصر الطّبيعة في ذلك المهمه القفر كانت متأثّرة لذلك؛ ثمّ بدأت الخيمة تتضّح شيئا فشيئا، وما بداخلها يسفر عن امرأة، رغم سنيها الكثيرة الّتي كانت تحملها على كاهلها، كانت تبدو عليها سكينة ووقار، وكانت تلوح على وجهها آثار وسامة كانت تشعّ نورا وضياء؛ ورآهما، هما هما، رأى نفسه وصنوه

وهما يتقدّمان من تلك الخيمة، ودخلا، فاستقبلتهما المرأة بابتسامة بادية وكأنّها تعرفهما منذ قديم الزّمان. قالت:

-مرحبا بالقامين، وهما واحد؛ مرحبا بالبدر، الّذي كان منذ الأزل.

وقد بدا له، بدا لهما، أن يسأل، أن يسألا؛ ثمّ أحجما، ثمّ أحجم. كانت يداها تشيران إلى متّكآت بسيطة بجانبها، و لكنّها كانت أيضا مريحة؛ ومن لاشيء، من العدم الّذي لا يعلم أهو عدم أم وجود، ظهر طبق من القشّ عليه تميرات وخثارة لبن في إناء من خزف؛ وأشارت مرّة أخرى، وقالت:

- كل، كلا، بسم الله.

كانت تميرات لم ير، لم يريا، مثلها في حياته، حياتهما؛ وكانت خثارة اللّبن خثارة ولم تكن خثارة؛ كانت كأنّها عسل مصفّى؛ وطفت على ذاكرته، وذاكرة صنوه، الآيات من سورة «محمّد» صلّى الله عليه وسلّم: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهارمن ماء غيرآسن، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهارمن خمرلذّة للشّاربين، وأنهارمن عسل مصفّى، ولهم فيها من كلّ الثّمرات ومغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّاروسقوا ماء حميما فقطّع أمعاءهم.» وبدا له أن يسأل، وقد اتّحدا الآن، وصارا واحدا بلا مراء:

- من أنت يا امة الله؟

اتّجهت إليه بكلّ حبّها، بكلّ عطفها، بكلّ شوقها، وبكلّ نور وجهها، وبكلّ وجدها الخفيّ الّذي لا يرى. قالت، مجيبة على سؤال بسؤال:

- ألم تعرفني؟! وأنا الّتي لم أغب عن الّذي أحبّني وأحببته؛ ولم أغب عن الّذين أحبّوني وأحببتهم؛ وأنا كنت وقد كنت وما كنت، فلمّا لم أكن كنت... أنا العدويّة.

ضرب بيده ضربة خفيفة على جبهته كمن تذكّرفجأة. آه، العدويّة! لكم شاخت! لكم هرمت! ولكن يظلّ فيها جمال خفيّ لايعلم مصدره. رابعة الصّبا... رابعة الجمال؛ ورابعة الزّهو والطّرب في مرابع بني

عدوة... الجميلة اللّعوب التّي اختارها الله لقربه... رابعة، يا رابعة... رابعة ثوبان بن إبراهيم ذي النّون المصريّ... قال:

- حدّثيني .يرحمك الله .كيف انتهى بك المطاف إلى هنا؟!

قالت:

- إنّ لي صحبة في الفلاة.

قال:

- وأنت وحدك. إنّي لا أرى أحدا.

قالت:

- ليس كلّ ما لايرى لا يرى... عليك أن تحدّ عينيك لترى.

وحدّ عينيه فلم ير. قال:

- لم أرشيئا.

قالت:

- لترى لا بدّ أن يكون قلبك معه؛ أن تكون له كلّك.

قال سائلا:

- أنت المنشدة في الزّمان االأوّل؟

قالت سائلة أيضا:

- فماذا قلت؟

قال، والأسئلة حين تبدأ لا تتوقّف؛ وكأنّها تأبى وهي تسأل أن تكون لها أجوبة، فتتواصل أسئلة بلا توقّف؛ وكأنّ السّؤال قد تحوّل نفسه إلى إجابة:

- أنت القائلة:

أحبّك حبّيـن حبّ الهـوى وحبّـا لأنّــــك أهل لذاكـــا

فأمّـا الّذي هو حـبّ الهوى فشغلي بحبّـك عمّن سواكـا

وكأنّها ذكرت زمانها الأوّل، فانحدرت دموعها على خدّيها الخاسفين، فتركتها تنزل بهدوء وصمت؛ وشعروهو يراها كأنّ قلبها بدأ

يخفق بين جنبات صدرها ويريد أن ينطلق إلى الفضاء الرّحيب الّذي ليس له حدود حيث يتّصل بعالم الكمالات ويطلّق عالم الضّلالات. قالت تكمل الأبيات بصوتها الأبحّ اللذّيذ الّذي لم تفارقه عذوبته، عذوبة المغنيّة اللّعوب الّتي كانت حين تغنّي في الزّمان الأوّل تأسر قلوب السّكارى والحيارى وندمان الرّاح قبل أن ينبلج عليهم الصّباح:

وأمّا الّذي أنت أهل لـــــه   فشغلي بحبّـك عمّن سواكـــا
فلا الحمــد في ذا ولا ذاك لي   ولكن لك الحمــد في ذا وذاكـــا

وحين نظر إليها وهي تنشد رأى كلّ شيء، رآها في خلواتها، ومن حولها الأبواب مغلقة، والأنوار مطفأة، ومصاريع الشّبابيك مقفلة، ولا أنيس لها إلاّ اللّيل، ومرافقة المحبوب الّذي لا يدع مرافقة أحبّائه؛ وفي اللّيل تحلو المناجاة، مناجاة الخلّ لخلّه، والحبيب لمحبوبه، والعاشق لمعشوقه، وتنفتح أبواب السّماء، فتتغامز النّجوم، وتنجلي صفحة السّماء وقد كانت تغطّيها سحابات ملحاح، ويفصح القمر عن طلعته البهيّة؛ وعلى رغم التّعب، على رغم قهر القاهرين وانتقام الفانين، تأتي لذائذ الرّوح فتحيي موات القلوب؛ وتنطلق الأصوات، من قرار لا يعلم له قرار، وتصدح موسيقى الأعماق، لتتّحد البدايات والنّهايات، وترجع الفروع إلى الأصول. سمعها وهي تناجي:
«إلهي أنارت النّجوم، ونامت العيون، وغلّقت الملوك أبوابها، وخلا كلّ حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك... إلهي هذا اللّيل قد أدبر، وهذا النّهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت منّى ليلتي فأهنأ، أم رددتها عليّ فأعزّى، فوعزّتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني، وعزّتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك.» وفي زمان غير زمان العدويّة، في زمن غير الّذي كان لثوبان بن إبراهيم، كانت هناك مواجيد أخرى، وكان هناك أحباب وأحباب، وكانت هناك أناشيد غير

الأناشيد؛ وكان المنشدون كذلك كثرا؛ فقد كان الحبّ لا يني، والعشق في كلّ القلوب، والقلوب به صادحة؛ وعلى البعد، في المهامه الّتي كانت تنجلي فيها الرّوح، كانت هناك أصوات تتردّد، وتغبير يسمع، وكان هناك شيوخ ومريدون، وكانت الحلقات الّتي تبدأ مساء ولا تنتهي حتّى الصّبّاح: «رقصا رقصا يا منتجعا للبلوى، رقصا في الشّكوى، ولك البشرى، رقصا رقصا حين الخوف السّرّيّ يمزّق جلدته، ويبدّل ثوب الخشية بالنّجوى... لا تسأل بعد الآن وبعثر أسرار الأحكام وراءك. لا تسأل ما ولّى وتدلّى، فالفيض العلويّ بدايته الصّمت، أوجاع تحفل في التّيه... شوك في القدمين، وحيث يمزّق جلدك يشفيك... لا تسأل ما ولّى عن سرّ الأسرار، فبألفاظ النّاسوت، كلام الجفلى، لن تمتدّ إلى الضّفّة، لن تشرب من نهر الذّكرى، لن تسطع في شوق الأشواق...» وتتالى الأصوات، لا تهدأ، ولا يقرّ لها قرار، وتنعدم المسافات، تمّحي الأزمان زمنا بعد زمن، ولا يظلّ غير السّرمد، غير الازل والأبد، والحبّ الذي ما له حدود: « في المدى رونق واحتجاب، وشيش ببوّابة القلب، عشق المريدين، لا شيء يبقى فيفنى، ولا شيء يفنى ليبقى، هو الله ذات التّجلّي، هو الله نفس التّخلّي، ولا شيء غير الحروف، ولا شيء غير العزوف، ولا شيء مثل انكفاء الصّفات... دليلي بماذا أجيبك حين السّؤال، ولا طاقة للحروف لتعرب عمّا يخالجني؛ منصفي، يا انكفائي على كلّ ذاتي، بماذا أنافح عن رهبتي وانشداهي، وكيف أقول هو الحرف ظلّي ولا ظلّ لي، كيف يشتاقني الصّمت أشتاقه، ننفر الآن من بعضنا، نشتكي، نتعاتب حدّ التّباغض والانشطار، وبعد التّنافر يصفو الوصال، يخاطبنا الله تترى: تعال، تخفّف من الصّمت والإثم، وازرع بكفّيك كلّ الضّجيج وكلّ السّكون، تمدّد ترى ما أرى، وترى ما أرى، لا يرى...» ومن عمق الأعماق يأتي صوت آخر، فينسيه إلى حين العدويّة وأشواقها، ينسيه ثوبان ولذائذه في عذاباته: « الشّقوة غبّ اللّهفة، يا مولاي، أنوء بها، أشتاق السّكرة فيها، والخدر الرّابض في شفتين

مدملجتين؛ أتوق إلى الصّمت المسكوب على الكأس، فليت الرّحلة في الرّاح توافي... ليت سليلا من زمن المحنة يبرك حيث الفورة والتّحنان، وبحر الرّغوة يلثم في الشّفتين الشّفتين، ولا عتب بين العشّاق المنذورين للنّشوة في النّشوة... الشقوة غبّ اللّهفة، يا مولاي، طريقي الكأس إليها، من أحببت غداة الشّوق، وكلّ الغمر المتجلّي؛ فاقض بأنَ الشّقوة أشلاء فيّا، وحنين يدنيني فيك وإليك؛ إلهي، الكأس، وفيض الخمرة، أقسمت أريق الخمرة في الكأس، وأشرب حدّ الشّوق القدسيّ، وأرحل في الرّحلة للمحنة، أعتمد الخوف الصّامت، رؤياك تقرّبني منك، تباعدني من حوض الورد إلى الهلكه... مولاي، فهل ترضى؟! اللّهمّ أسائلك، اللّهمّ بأن ترضى، وتمسّد في قلبي ما القلب هواه، يكون القلب بأحرفك الزّبديّة بحرا آخر للشّكوى، ومراح... ويكون القلب بأحرفك السّريّة بحرا آخر للنّجوى، وبراح... ويكون الحرف بأعطفك القدسيّة قلبا آخر للصّمت المسكون بطعم الحضرة؛ كالسّرّ الحضرة، كالخمر المجبولة في العشق، وللعشق... فإلهي تعطّف، وتكرّم؛ وإلهي أسائلك الخفض، وشأو الرّفعة في المحنة والتّجذيف إلى الضّفّة... وإلهي، عبيدك يسألك الغفران، ومن ذلّ الرّحمة تبذل في الجنّة كلّ الأسرار... يا ربّ تجلّ وتجلّ؛ يا ربّ دنوت فتدلّ، ويا ربّ تسوّر في قلبي جدران اللّهفة... يا ربّ – تعاليت – تجلّ...!!!

تجسّدت فيــــه تجسّد فــــيّ
دعوته فــــيّ فجاء إلـــــيّ
وجئت إليـــــه فأوغل فــــيّ
وصحت إلهـــي فقال إلــــيّ
وبحت بما بـــي فكان العطيـّة
كان الصّفـــاء وكان السّمـــيّ
الّذي ضاء قلبي وكان التّوغّـل

منّي إليّ!!»

كانت رابعة تراه ولا تراه؛ وكانت هي الأخرى مشغولة بما يعتلج في صدرها من المواجيد؛ وذكرت مقامها بالبصرة . ذكرت كيف انتقلت من خفض العيش وأهنئه، كيف انتقلت من حياة القصور ومن حولها الجواري والغلمان، والخدم والحشم، ذكرت كيف انتقلت من كلّ ذلك إلى شظف العيش، إلى خشونته، إلى الجوع والمسغبة؛ ومع ذلك كانت تشعر أنّها ليست وحيدة، أنّها لا تملك إرادة على نفسها، وأنّ هناك قوّة خفيّة توجّهها إلى الحقّ والاكتفاء؛ وقالت لكم يتعب الإنسان نفسه ويجري وراء ما ليس من ورائه طائل، والخير فيما خلّفه وراءه. قالت إنّ الحياة مظهر خدّاع، وإنّ على الّذي يريد أن يعرف أن ينظر داخل ذاته، أن يتأمّل أعماقه الرّاكدة كي يكتشف الرّضا... كي يكتشف حبّ المحبّين؛ وذكرت لقاءها إماما من أئمّة البصرة وأحد أعلامها في علم الحديث، سفيان الثّوريّ، وسؤاله إيّاها: «صفي لي درجة إيمانك واعتقادك باللّه جلّ وعلا ، فقالت رابعة : إنّي لا أعبد اللّه شوقاً إلى الجنّة ، ولا خوفاً من جهنّم ، وإنّما أعبده لكمال شوقي إليه ، ولأداء شرائط العبوديّة.» وكانت رابعة وطاجيك كأنّهما يتخاطران، وكأنّ أفكارهما تتواردان في نفس اللّحظة؛ ورغم أنّ أحدهما لم يكن يعلم بما يدور في خلد الاخر، إلاّ أنّهما مع ذلك كانا مشدودين إلى بعضهما بسبب وثيق؛ وكانا كأنّما إذا أنهت رابعة تغبيرا أو أحد مواجيدها انطلق طاجيك يصدح بأحد ما يجيش في صدره من عشق مكتوم: « مازالت كلّ قباب الرّبّ مواربة،/في القلب قباب الرّبّ مواربة،/والقلب خلاء،/ والقلب خليل الخلاّن المجدودين.../القلب خلوت إليه،/فدعاني،/ خلّل بالخوف العليّ مراقي الشّوق،/غليلي ولهاتي.../ناداني من بدء الرّحلة،/عمّد فيّ خيول الخلوة/والنّجوى.../لم أدر بأيّ رحيق مسّدني/ لم أدر بأيّ عبير ختّمني؟!/والخمر تحاصرني!!/بغداد/وصومعة الشّيخ الشّبليّ،/وأصوات التّرديد إلى الفجر،/ومخاوف من ماتوا.../مرّوا من بين أتون السّدرة والسّتر،/والصّوت غريب،/والصّوت حبيب

حدّ الفتنة والسّحر.../بغداد/وصومعة الشّيخ الشّبليّ/وهينمة الصّوفيّين/والقلب خلاء،/والقلب خليل الخلاّن المجدودين.../القلب خلوت إليه،/فدعاني:/- أن صاح ابذل خدّيك، تعال:/تخلّل صوتك بالتّرديد،/وخوّض في اللّجّة حدّ التّخليل الثّاني،/واسكب في النّفس القيّوم جذور الرّحلة/والمحنة.../والقلب خلاء،/والقلب خليل الخلاّن المجدودين.../القلب خلوت إليه،/فدعاني:/- أن صاح (الله)/وكلّ الصّحبة والأخيار،/على الشّطّ الثّاني من المحنة،/فادخل،/خوّض في اللّجّة حدّ التّخليل الثّالث،/وادع الحضرة أن تشتقّ من الإسم العلويّ/كلّ مفاتيح الكشف/وتغرقني حدّ الذّوبان!!»

آه، لكم تخبّئ البادية من الأسرار!! لكم تطرح من الحبّ في الأرض اليباب؛ وينبت الحبّ مع ذلك!! ليس الحبّ في حاجة إلى شمس أو تربة أو هواء؛ فالحبّ هو أعظم من حبّ الأرض، ويطرحه القلب، يغذّيه من حشاشته فيكبر شيئا فشيئا، ويسمق بقامته ليخترق حصون البدن إلى آفاق ما لها حدود!! وكانت رابعة تغنّي، أو رابعة كانت تهينم أو تترنّم، أو تعيد القول مرّات ومرّات، وهي لا تدري أكانت تتذكّر، أم ترى بعيني قلبها أشياء ما زال يحتجنها باطن الغيب؛ وكان هو ينظر إليها وينظر إلى نفسه، فيرى أنّه على الرّغم من قربهما فقد كان كلّ منهما يسبح في عالمه الخاصّ: وكانت تتراقص داخلهما الحروف والكلمات، وكلّ القصائد الّتي لم تقل في الحبّ، والعشق، والهيام، والتّرانيم، والمواجيد، والتّغبير، وما قيل في التّصوّف، في كلّ زمان ومكان... وذكر شيئا قيل له، أو قاله هو نفسه، ودوّنه، ليس على حاشية من الحواشي كما كان يفعل، ولكن على لفافة، أو طرف ورقة، أو شيء آخر لم يعد يذكره؛ رنا إلى نقطة غير مرئيّة كأنّه يروم أن يستعيد ما غاب عن ذهنه... يروم أن يعرف من جديد، فقد كانت الشّجون تستدعي الشّجون؛ وهذه الصّحبة الجديدة كانت عزيزة عليه، ولم يرد أن يدعها تمرّهدرا؛ فمن يعلم، لعلّه يغمض عينيه ويتطلّع إلى حيث كانت العدويّة فلا يراها...

يريد أن يعرف منها كلّ شيء... أولى المقامات: توبتها، الّتي سطّرتها بدموعها، ببكائها وتضرّعها، ووقوفها أمام يدي الحضرة مجرّدة من كلّ رغباتها ونزوعها، وكرهها وبغضها... وكانت لهاته تلهج بما في قلبه؛ وكان كأنّما يبكي، كأنّ أشياء بداخله هي الّتي كانت تبكي، كأنّ صوتا أو أصواتا في أعماقه تردّد مجتمعة في حرقة، في لوعة، في صبابة: «دلّني على السّبيل إلى سبيلك؛ وقدني من ضيقي إلى سعتك، وجلّ غشاوة عن عينيّ قد تكاثفت عليها أوظار الظّنون... إلهي، أنت مبتدأ كلّ شيء، وأنت الحبّ الّذي كان به الكون، وأنت الرّحمة الّتي صيغت منها قلوب المحبّين، اجعل قلبي لا ينشغل بسواك، وقدني من عمى بصري إلى بصيرة نورك، واجعل لي نصيبا من حياض عفوك ورحمتك...».

وكان ما بداخله يتجاوب مع كلمات أخرى كانت تسمع خارج دائرة وعيه، كانت تردّدها العدويّة، وهي ترنو إليه في حنان ما عليه من مزيد:

راحتي يا إخوتـــــي في خلوتـــــي
وحبيبي دائمـــــاً في حضرتـــــي
لم أجد لي عن هـــــواه عوضـــــاً
وهـــــواه في البرايـــــا محنتي
حيثمـــــا كنت أشاهـــــد حسنه
فهـــــو محرابي إليـــــه قبلـــــتي
إن أمت وجـــدا وماثـــمّ رضـــــا
واعناني في الـــــورى وشقوتـــــي
يا طبيب القلب يا كلّ المـــــنى
جد بوصل منك يشفي مهجـــــتي
يا ســـروري وحياتي دائمـــــا
نشأتي منك وأيضـــــاً نشوتـــــي
قد هجرت الخلق جميعـــــاً أرتجي
منك وصـــلا فهل أقضـــي أمنيتـــي

كان ضيق الغرفة يتّسع، وهو موثق بين ثناياها؛ ومن أمكنة خفيّة لا يدري كيف كانت تنبع، ومن كان يجلّيها، كانت تتوارد عليه الأحداث والذّكريات كأنّما هي الكشف؛ وعلى الرّغم من قناعته أنّه في مكانه لا يريم، وأنّ الزّمان الّذي هو موارب بين حدوده هو زمان الفانين، وأن لا أحد من الخلق الّذين خلقهم الله تعالى بدءا من آدم عليه السّلام وإلى يوم النّاس هذا لم تسعفه الأقدار بالسّفر في حدود الأزمنة إلاّ ما كان من أمر قلّة قليلة من عباده كان قد جعلهم عبرة لغيرهم وأراد أن يحقّق بهم معجزات لمن أراد لهم الكرامة أو أراد لهم النّدامة؛ لم يكن أحد تسنّى له أن يتجاوز محدوديّة المسافات، ولا أن يخترق سلطة السّاعات؛ وها هو يرى نفسه الآن، على رغم قصوره، تتجلّى أمامه المعمّيات، ويرى رأي العين أشياء ليست فقط متواربة في المكان، ولكن متباعدة أيضا في الزّمان؛ وهو لا يتحوّل، لا يرحل، لا يسافر، وإنّما هو مقيم، وبينه وبين العدويّة الّتي كانت قضت، ما شاء الله من السّنين... كان اللّيل قد أسدل سجوفه في الخارج، ولم يعد هناك مجال لرؤية الأشياء في غرفته؛ فتحسّس طريقه إلى موضع شمعات كان يحتفظ بها في جراب له في زاوية ما، فأخرج شمعتين أضاءهما ووضعهما على النّضد؛ وتريّث قليلا ريثما طرد آخر الصّور الّتي كانت تهوّم في ذاكرته الكليلة، وتناول كتاب الأمم والرّسل، وقد استبدّ به هاجس أن يقرأ بعض ما رواه الطّبريّ عن الزّمن... لم يكن ينتظر شيئا كبيرا، على كلّ حال، وما قاله الطّبريّ هو ما تناقلته الألسن عن الزّمن الفيزيقي الّذي لا يتغيّر، والّذي تقاس به حياة الخلق من عباد الله؛ ورغم أنّه كان في حاجة إلى شيء آخر، إلى زمن التّصوّف والصّوفيّة، الزّمن الّذي يتجاوز كلّ الأزمنة، ويتطاول على كلّ حساب من حسابات الدّنيا، إلاّ أنّ نفسه كانت تنازعه إلى بعض رياضة يذهب بها كلل عقله إلى حين... وفي زمن من الأزمنة، سمع نتفا من حكاية، لم يسمعها من صاحبها، ولكن رواها له أحد أبنائه؛ وقد حدثت سنة كذا في مكان كذا، حيث كان الأب ما

يزال غلاما يتدرّج في مدارج العرفان في زاوية أحد الصّالحين الواصلين؛ وكان الشّيخ دائم الحبّ والمودّة للغلام، وكان الغلام دائم المشاكسة لشيخه، وقد كانت له دوّال عليه ليتمه وقلّة حيلته، ولكلف الشّيخ باليتامى والمنقطعين، وانضاف إلى ذلك أنّ الغلام كان يمتّ إلى الشّيخ بسبب وثيق وقرابة قريبة. وقد لاحظ الغلام أنّه في أوقات بعينها حين كان يحمل ماء الوضوء إلى شيخه في غرفته لم يكن يجده هناك؛ وقد سبق للشّيخ أن أنذره أن لا يدخل غرفته حتّى يستأذن؛ إلى أن كان في يوم من الأيّام، وكان ذلك يوم ثلاثاء، ضرب الغلام صفحا عن تحذير شيخه ودخل الغرفة دون استئذان، فرأى شيخه معلّقا بين أرض الغرفة وسقفها وهو يستعدّ للطّيران... كان الشّيخ ميّالا إلى معاتبته والقسوة عليه قليلا في الكلام إلاّ أنّه أحجم لعلّة لم يكن يعلمها الغلام آنذاك؛ وقد سمع بعد ذلك من آخرين (ولم يخبره شيخه أبدا بذلك) أنّه كان على موعد مع زورات إلى ديون الحضرة حيث كان يجتمع أقطاب الشّيوخ من كلّ أرض من أرض المسلمين فيتذاكرون ويغبّرون ويلقون بمواجيدهم على أعتاب صاحب الحضرة!!... أخذ الكتاب بين يديه، وقرأ: «القول في الزّمان ما هو: قال أبو جعفر فالزّمان هو ساعات اللّيل والنّهار وقد يقال ذلك للطّويل من المدّة والقصير منها والعرب تقول أتيتك زمان الحجّاج أمير وزمن الحجّاج أمير تعني به إذ الحجّاج أمير وتقول أتيتك زمان الصّرام وزمن الصّرام تعني به وقت الصّرام ويقولون أيضا أتيتك أزمان الحجّاج أمير فيجمعون الزّمان يريدون بذلك أن يجعلوا كلّ وقت من أوقات إمارته زمانا من الأزمنة كما قال الرّاجز... جاء الشّتاء وقميصي أخلاق ... شراذم يضحك منه التّواق ... فجعل القميص أخلاقا يريد بذلك وصف كلّ قطعة منه بالإخلاق كما يقولون أرض سباسب ونحو ذلك ومن قولهم للزّمان زمن قول أعشى بني قيس بن ثعلبة:... وكنت امرأ زمنا بالعراق ... عفيف المناخ طويل التّغن ... يريد بقوله زمنا زمانا فالزّمان اسم لما ذكرت من

ساعات اللّيل والنّهار على ما قد بيّنت ووصفت.» كان النّوم يتسرّب إلى عينيه، والوهن يتسلّل إلى جسده المتعب، فيشعر حيال ذلك كأنّ أحمالا ألقيت عليه دفعة واحدة وأنّه على وشك السّقوط في وهدة ما لها قرار؛ وفي المسافة الفاصلة بين مغادرته لآخر خيط من خيوط اليقظة وولوجه إلى عالم الأحلام التّهيّؤات، كانت تنتظره العدويّة على غير مبعدة وهي تمدّ إليه يدها، وقد ابتسمت ابتسامة ملأت كلّ وجهها الّذي ما عاد مغضّنا، وعاود وجهها رواؤه وعادت صبيّة كما كانت، في ملابسها البيض، وقد نبت لها جناحان وهي تستعدّ للطّيران صوب القبّة.

قالت:

- تعال!

قال:

- إلى أين؟

قالت:

- ألا تعلم بعد؟!

قال:

- أرشديني!

قالت:

- أنصت إلى قلبك.

قال:

- لقد أتعبني الإنصات إليه، وما سمعت شيئا.

قالت:

- حاول ثانية.

ثمّ أضافت:

- تعال.

فوجد نفسه يترك العنان لأشواقه، ويتخفّف من كلّ الأثقال الّتي

كانت تكبّله؛ وفي داخله كان يتحرّك شيء آخر، روح أخرى كانت تنازعه، كانت تلتبس به، ولا تترك له مجالا لأن يغادر من دونها... وكان هو هو، بدر النّور، وقد صارا واحدا بلا مراء... وحينما نظر ناحية العدويّة ثانية كان يراها تنتظم في سرب من الحمائم الّتي كانت قد اخترقت السّحب والحجب ويمّمت شطر النّور الّذي ليس بعده حدود...!!

٥- الأعداد

قال: «وقلت في نفسي، في يوم من أيّام الصّيف، وقد ضاقت بي غرفتي، واشتدّت عليّ الحرارة حتّى لكأنّي أشعر برغبة في الخروج من جلدي: «إلى متى، يا طاجيك بن لامار، تريد أن تكون نكرة من النّكرات، وأنت الّذي درست العلوم ومسائل الشّرع على يد جلّة من العلماء والفقهاء، وتكتفي بمجرّد كتابة لا معنى لها على الحواشي. أرضيت، من دهرك، بأن تكون حوشيّا بلا معنى ولا قيمة؟ وهب أنّ المنتفعين بهذه الحواشي سيكونون من الكثرة بحيث لا يمكنك إحصاؤهم. فماذا ستجني أنت؟! قل. ستجني الثّناء؛ ولكن بئس الثّناء الّذي سيجبهك به النّاس: «نعم الحوشيّ أنت!!» وقلت في نفسي: «إنّي لا أريد أن أكون حوشيّا! وأبي حينما صرف الأموال الطّائلة على تعليمي. إنّما كان يريد لي أن أكون علما من الأعلام. أو أن أكون فقيها من الفقهاء الّذين يشار لهم بالبنان، والّذين لا يمرّ عليهم يوم من الأيّام إلاّ وتعلو فيهم كعابهم على كعاب غيرهم.» وقلت في نفسي: «اعقلها، يا طاجيك، وتوكّل.» وهكذا كان بعد المكابدة والمجاهدة، وسهر اللّيالي وأنا غارق في التّفكير وتدبّر أمري؛ وقرّرت بعد الاستخارة أن أكون عالما من العلماء لا يقلّ قيمة عن الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، أوعبد الله بن المقفّع، أو عبد الحميد الكاتب، ومن لفّ لفّهم من الكتّاب والمشتغلين بالأدب... وأخذت دفترا من دفاتري، وكتبت في رأس الصّفحة:

«بخارى، لثمان ليال خلون من شهر محرّم الحرام، من سنة (...) من هجرة الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم... وفي سفر الأعداد . والأعداد على ضروب، وليست كلّ الأعداد سواء، فالأعداد عندنا

نحن المسلمين ليست كأعداد اليهود أو النّصارى؛ وأعداد المسلمين أنفسهم مختلفة أيضا بين الفرق والنّحل وأصحاب المذاهب والأهواء؛ فأهل السّنّة يأخذون الأعداد على علاّتها، وربّما لم يلقوا إليها كبير انتباه لأنّه في نظرهم، كما ذهب ذلك المؤرّخون من امثال أبي جعفر بن جرير الطّبريّ، أو الحافظ بن كثير، أو ابن الأثير، وغيرهم، أو كما ذهب إلى ذلك الفلاسفة المتقدّمون من أمثال الكنديّ وبعض فلاسفة النّصارى في بلاد النّصارى، أو كما ذهب إلى ذلك غيرهم من أرباب الحرف والصّنائع، فإنّ الأعداد هي ما تحسب بها المواقيت؛ والمواقيت كما هو معلوم هي ما تحسب به مدّة معاشات النّاس على الأرض؛ فلا يعلم من عاش إلاّ بميقات، ولا يعلم من مات إلاّ بميقات، ولا يعلم من حجّ، أو اعتمر، أو سافر، أو أقام، إلاّ بميقات، وذلك داخل في الأعداد، الّتي هي أعداد،لا تخرج عن كونها أعدادا؛ وقد ذكرت المواقيت الّتي هي أعداد بحساب الزّمن في القرءان الكريم، حيث يقول الحقّ سبحانه: «يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للنّاس والحجّ وليس البرّبأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّمن اتّقى واتوا البيوت من أبوابها واتّقوا الله لعلّكم تفلحون.» فيقال للسّائل حين يسأل: «وهب أنّنا علمنا من المواقيت ما يهمّنا من أمرها، فما نفع ذلك على الجملة، قيل له إنّه إضافة إلى أنّ الله قد أرشد إلى نفعها، فإنّها الأداة الّتي تتّخذ حتّى لا تضيّع مصالح النّاس؛ فالمواقيت مضبطة للمهمل من الأمور؛ وهي من الأشياء الّتي سيسأل عنها العبد يوم الحساب؛ حيث سيكون من جملة ما يسأل عنه: «عمره فيما أفناه.» والأشياء الّتي ذكرناها لا يختلف فيها الجمهور؛ وقد ذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنّهاية في الجزء الأوّل منه نتفا ممّا هو متعلّق بالخلق في ارتباطه بالميقات والمواقيت، فقال: «وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشكّ في ذلك مسلم أنّ الله خلق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام كما دلّ عليه القرآن الكريم فاختلفوا في هذه الأيّام أهي كأيّامنا هذه أو كلّ يوم كألف سنة ممّا

تعدّون على قولين كما بيّنا ذلك في التّفسير وسنتعرّض لإيراده في موضعه واختلفوا هل كان قبل خلق السّموات والأرض شيء مخلوق قبلهما فذهب طوائف من المتكلّمين إلى أنّه لم يكن قبلهما شيء وأنّهما خلقتا من العدم المحض وقال آخرون بل كان قبل السّموات والأرض مخلوقات أخر لقوله: «وهو الّذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام وكان عرشه على الماء.» الآية. وفي حديث عمران بن حصين كما سيأتي كان الله ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء وكتب في الذّكر كلّ شيء ثمّ خلق السّموات والأرض وقال الإمام أحمد بن حنبل حدّثنا به حدّثنا حمّاد بن سلمة حدّثنا أبو يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس عن عمّه أبي رزين لقيط بن عامر العقيليّ أنّه قال: «يا رسول الله أين كان ربّنا قبل أن يخلق السّموات والأرض؟» قال: «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثمّ خلق عرشه على الماء.» ورواه عن يزيد بن هارون عن حمّاد بن سلمة به ولفظه: «أين كان ربّنا قبل أن يخلق خلقه؟» وباقيه سواء وأخرجه التّرمذيّ عن أحمد بن منيع وابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمّد بن الصّبّاح ثلاثتهم عن يزيد بن هارون وقال التّرمذيّ حسن؛ واختلف هؤلاء في أيّها خلق أوّلا فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلّها؛ وهذا هو اختيار ابن جرير وابن الجوزيّ وغيرهما قال ابن جرير: «وبعد القلم السّحاب الرّقيق.» واحتجّوا بالحديث الّذي رواه الإمام احمد وأبو داود والتّرمذيّ عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال: « قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «إنّ أوّل ما خلق الله القلم، ثمّ قال له اكتب فجرى في تلك السّاعة بما هو كائن إلى يوم القيامة.» لفظ أحمد وقال التّرمذيّ حسن صحيح غريب والّذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمدانيّ وغيره أنّ العرش مخلوق قبل ذلك وهذا هو الّذي رواه ابن جرير من طريق الضّحّاك عن ابن عبّاس كما دلّ على ذلك الحديث الّذي رواه مسلم في صحيحه حيث قال حدّثني أبو الطّاهر أحمد بن

عمرو بن السّرج حدّثنا ابن وهب أخبرني أبو هانيء الخولانيّ عن أبي عبد الرّحمن الجيليّ عن عبدالله بن عمرو بن العاص: «قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السّموات والأرض بخمسين ألف سنة.» قال: «وعرشه على الماء.» هذا ولو شئنا لأطلنا؛ والأحاديث في ذلك كثيرة؛ وما يهمّنا في هذا المقام أنّ أهل السّنّة والجماعة، وإن اختلفوا في بعض المسائل اليسيرة، فإنّ قولهم واحد في العدد والميقات. فالأعداد عندهم لا تحمل أيّ أسرار؛ وإن كان أهل النّجوم والطّوالع ممّن يحسب عليهم قد ذهب إلى أنّ الأعداد لها ارتباط وثيق بالنّجوم، وأنّ مصائر العباد قد تحدّدها تلك الأعداد في علاقتها بالنّجوم والأفلاك، وما شاكلها. ثمّ نقول، وبالله التّوفيق، إنّ الأعداد والمواقيت، إذا استثنينا أهميّتها في علاقاتها بمعاشات العباد، فإنّ لها أهميّة فيما يختصّ بأوقات فراغهم وهجوعهم، فإنّ النّفس تكلّ وتملّ، ولا بدّ من التّرويح عنها ساعة بعد ساعة، لقول الرّسول صلّى عليه وسلّم فيما روي عنه في الحديث: «روّحوا عن أنفسكم ساعة بعد ساعة فإنّ القلوب إذا كلّت عميت.» فإذن فإنّ المواقيت أيضا يمكن أن تحسب بها أوقات الفراغات، الّتي قد تصرف في النّافع من الأشياء، وقد تصرف كذلك في المعاصي؛ ولكلّ دليل يدلّه. غير أنّ هناك من المسلمين، وفي فرقة من فرقهم، ونحلة من نحلهم، وطائفة منهم، من كانت الأعداد عنده سرّا من الأسرار، فيها تتجلّى الفيوضات، وتتحقّق بها الأشواق، فنجد ذكرا لما يسمّى بالأعداد الفرديّة من مثل الثّلاثة والسّبعة والثّلاثة عشر، وغيرها من الأعداد الّتي أوجد لها الصّوفيّة طرقا في مناهج تفكيرهم وذكرهم؛ وقد كانت الأعداد عند بعضهم كائنات من الكائنات الّتي يمكنها أن تحسّ وأن تنقل إلى النّفس البشريّة جملة من الكشوفات للّذين امتدّت بهم طرق المجاهدة والصّبروالرّضا؛ وعند ابن عربي أنّ الأعداد تمرّبمراحل الطّفولة والشّباب والكهولة والشّيخوخة، والأرقام تعيش وتموت؛

فهي بهذا المعنى كائن من جملة ما خلق الله من الكائنات، وهي دائمة المصاحبة للإنسان في حلّه وترحاله؛ ويرجع كلّ ذلك إلى أنّ الصّوفيّة إنّما يرومون الباطن ويرون أنّ للشّريعة ظاهرا هو الّذي يجب أن تعلمه العامّة حتّى يستقيم بذلك دينهم، وأنّ هناك لها باطنا لا يعلمه إلاّ من اصطفاهم الله تعالى لحكمته والوصول إليه؛ وهؤلاء، وإن كان فيهم من يعلم الشّريعة بحذافيرها ولا يفوته منها شيء، فإنّما كان أغلب اشتغالهم بوساوس الرّوح ومستدقّات النّفس؛ وقد ذهب هؤلاء في ذلك مذاهب كثيرة، وهناك اختلاف بينهم على اختلاف منطلقاتهم في النّظر إلى هذا الباطن... ومن غير العرب، ومن غير المسلمين، من نظر في الأعداد منذ قديم الزّمان؛ وكان اليهود من أوّل من أشار إلى ذلك، وهم ينقلون في العهد القديم، عن ربّ بني إسرائيل، وكيف حدّد لموسى عليه السّلام الطّريقة الّتي يجب عليه بها أن يقسّم طوائف بني إسرائيل على حسب الأعداد وبيوتات العشائر منهم، حيث نقرأ في الأصحاح الأوّل من الأعداد: «١وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءَ، فِي خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ، فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الثَّانِي فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِخُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ قَائِلاً: ٢«أَحْصُوا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ، كُلَّ ذَكَرٍ بِرَأْسِهِ، ٣مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلَّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ. تَحْسُبُهُمْ أَنْتَ وَهَارُونُ حَسَبَ أَجْنَادِهِمْ. ٤وَيَكُونُ مَعَكُمَا رَجُلٌ لِكُلِّ سِبْطٍ،رَجُلٌ هُوَ رَأْسٌ لِبَيْتِ آبَائِهِ. ٥وَهذِهِ أَسْمَاءُ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَقِفُونَ مَعَكُمَا: لِرَأُوبَيْنَ أَلِيصُورُ بْنُ شَدَيْئُورَ. ٦لِشِمْعُونَ شَلُومِيئِيلُ بْنُ صُورِيشَدَّاي. ٧لِيَهُوذَا نَحْشُونُ بْنُ عَمِّينَادَابَ. ٨لِيَسَّاكَرَ نَثَنَائِيلُ بْنُ صُوغَرَ. ٩لِزَبُولُونَ أَلِيآبُ بْنُ حِيلُونَ. ١٠لابْنَيْ يُوسُفَ: لأَفْرَايِمَ أَلِيشَمَعُ بْنُ عَمِّيهُودَ، وَلِمَنَسَّى جَمْلِيئِيلُ بْنُ فَدَهْصُورَ. ١١لِبَنْيَامِينَ أَبِيدَنُ بْنُ جِدْعُونِي. ١٢لِدَانَ أَخِيعَزَرُ بْنُ عَمِّيشَدَّاي. ١٣لأَشِيرَ فَجْعِيئِيلُ بْنُ عُكْرَنَ. ١٤لِجَادَ أَلِيَاسَافُ بْنُ دَعُوئِيلَ. ١٥لِنَفْتَالِي أَخِيرَعُ بْنُ عِينَنَ». ١٦هؤُلاَءِ هُمْ مَشَاهِيرُ الْجَمَاعَةِ، رُؤَسَاءُ أَسْبَاطِ آبَائِهِمْ. رُؤُوسُ

أُلُوفِ إِسْرَائِيلَ. ١٧فَأَخَذَ مُوسَى وَهَارُونُ هؤُلاَءِ الرِّجَالَ الَّذِينَ تَعَيَّنُوا
بِأَسْمَائِهِمْ، ١٨وَجَمَعَا كُلَّ الْجَمَاعَةِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الثَّانِي ، فَانْتَسَبُوا إِلَى
عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ، مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا
بِرُؤُوسِهِمْ، ١٩كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى. فَعَدَّهُمْ فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءَ.
٢٠فَكَانَ بَنُو رَأُوبَيْنَ بِكْرِ إِسْرَائِيلَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ
وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ بِرُؤُوسِهِمْ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً
فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٢١كَانَ الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ رَأُوبَيْنَ سِتَّةً
وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا وَخَمْسَ مِئَةٍ.
٢٢بَنُو شِمْعُونَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمِ،
الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ بِرُؤُوسِهِمْ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً
فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٢٣الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ شِمْعُونَ تِسْعَةٌ
وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَثَلاَثُ مِئَةٍ.
٢٤بَنُو جَادَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ
مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٢٥الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ
لِسِبْطِ جَادَ خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَسِتُّ مِئَةٍ وَخَمْسُونَ.
٢٦بَنُو يَهُوذَا، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ
الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٢٧الْمَعْدُودُونَ
مِنْهُمْ لِسِبْطِ يَهُوذَا أَرْبَعَةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفًا وَسِتُّ مِئَةٍ.
٢٨بَنُو يَسَّاكَرَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ
الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٢٩الْمَعْدُودُونَ
مِنْهُمْ لِسِبْطِ يَسَّاكَرَ أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ.
٣٠بَنُو زَبُولُونَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ
الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٣١الْمَعْدُودُونَ
مِنْهُمْ لِسِبْطِ زَبُولُونَ سَبْعَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ.
٣٢بَنُو يُوسُفَ: بَنُو أَفْرَايِمَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ،
بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ،

٣٣الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ أَفْرَايِمَ أَرْبَعُونَ أَلْفًا وَخَمْسُ مِئَةٍ.
٣٤بَنُو مَنَسَّى، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ
الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٣٥الْمَعْدُودُونَ
مِنْهُمْ لِسِبْطِ مَنَسَّى اثْنَانِ وَثَلاَثُونَ أَلْفًا وَمِئَتَانِ.
٣٦بَنُو بَنْيَامِينَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ
الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٣٧الْمَعْدُودُونَ
مِنْهُمْ لِسِبْطِ بَنْيَامِينَ خَمْسَةٌ وَثَلاَثُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ.
٣٨بَنُو دَانَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ
مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٣٩الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ
لِسِبْطِ دَانَ اثْنَانِ وَسِتُّونَ أَلْفًا وَسَبْعُ مِئَةٍ.
٤٠بَنُو أَشِيرَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ
الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٤١الْمَعْدُودُونَ
مِنْهُمْ لِسِبْطِ أَشِيرَ وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَخَمْسُ مِئَةٍ.
٤٢بَنُو نَفْتَالِي، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ
الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٤٣الْمَعْدُودُونَ
مِنْهُمْ لِسِبْطِ نَفْتَالِي ثَلاَثَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ.
٤٤هؤُلاَءِ هُمُ الْمَعْدُودُونَ الَّذِينَ عَدَّهُمْ مُوسَى وَهَارُونُ وَرُؤَسَاءُ
إِسْرَائِيلَ، اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً، رَجُلٌ وَاحِدٌ لِبَيْتِ آبَائِهِ. ٤٥فَكَانَ جَمِيعُ
الْمَعْدُودِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً
فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ ٤٦سِتَّ مِئَةِ أَلْفٍ وَثَلاَثَةَ آلاَفٍ
وَخَمْسَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ. ٤٧وَأَمَّا اللاَّوِيُّونَ حَسَبَ سِبْطِ آبَائِهِمْ فَلَمْ يُعَدُّوا
بَيْنَهُمْ. ٤٨إِذْ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: ٤٩«أَمَّا سِبْطُ لاَوِي فَلاَ تَحْسُبْهُ وَلاَ
تَعُدَّهُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٥٠بَلْ وَكِّلِ اللاَّوِيِّينَ عَلَى مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ وَعَلَى
جَمِيعِ أَمْتِعَتِهِ وَعَلَى كُلِّ مَا لَهُ. هُمْ يَحْمِلُونَ الْمَسْكَنَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهِ،
وَهُمْ يَخْدِمُونَهُ، وَحَوْلَ الْمَسْكَنِ يَنْزِلُونَ. ٥١فَعِنْدَ ارْتِحَالِ الْمَسْكَنِ يُنَزِّلُهُ
اللاَّوِيُّونَ وَعِنْدَ نُزُولِ الْمَسْكَنِ يُقِيمُهُ اللاَّوِيُّونَ. وَالأَجْنَبِيُّ الَّذِي يَقْتَرِبُ

يُقْتَلُ. [٥٢] وَيَنْزِلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ كُلٌّ فِي مَحَلَّتِهِ وَكُلٌّ عِنْدَ رَايَتِهِ بِأَجْنَادِهِمْ. [٥٣] وَأَمَّا اللاَّوِيُّونَ فَيَنْزِلُونَ حَوْلَ مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ لِكَيْ لاَ يَكُونَ سَخَطٌ عَلَى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَيَحْفَظُ اللاَّوِيُّونَ شَعَائِرَ مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ». [٥٤] فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى كَذلِكَ فَعَلُوا.» والّذي نعلمه ممّا ذكر آنفا أنّ الأعداد إنّما تحدّد بها الكائنات من صنوف البشر كما تحدّد بها الجمادات وغيرها؛ وإنّما حدّد الرّبّ لبني إسرائيل هذه الطّريقة وذلك لضبط بيوتاتهم وأفرادهم، بعد أن تكاثروا على إثر خروجهم من مصر؛ وفي الأعداد فوائد جمّة لأنّها تحدّد بها الأجناد وتعيّن من يجب عليه أن يكون من بين الجند، ومن لا يجب عليه أن لا يكون؛ وقد يصبح العدد، في وقت ما، رديفا لشخص أو للشّيء الّذي عيّن له...» وهو يكتب، كان يطلّ عليه بعينيه، أو ربّما كان هو ينظر إلى نفسه وهو يكتب؛ كان كأنّما يسمع لوما أو عتابا، ولا يعلم تحديدا أكان يستمع إلى صوت بداخله أو آخر خارج عنه، خارج عن دائرة وعيه: «اكتب...» لم يكن هناك مجال لأن يدقّق، أن يتأنّى، أو أن يمنح نفسه وقتا لاتّخاذ قرار؛ وقد وجده يكتب من جديد: «والعدد هو الفرد... هو الأوحد الّذي لا يحدّ، وليس بعد الأوحد إلاّ الأوحد... كان في المبتدإ، وكان في المنتهى، هو الأوّل الّذي ليس له بداية، وهو الآخر الّذي ليس له نهاية، وهو الّذي برأ البرايا من العدم المعدوم، وهو الّذي سمّى نفسه في الأزل قيّوما...» وصمت ما كان بداخله أو خارجه؛ وتساءل بينه وبين نفسه: «هل يترك على الصّفحة ما كتب رغما عنه، أم يمحوه ليواصل ما كان بصدده من الأمر؟» وحينما أوشك أن يمحو بقلمه ما كان كتبه وجد يديه لا تطاوعانه، وكان يرى نفسه على ضفّة أخرى من ضفاف الذّاكرة أو النّسيان: فقد كان إلى حدّ تلك اللّحظة غير قادر على استيعاب ما يحدث له... إنّه يريد أن يكون عالما... أن يتخلّى عن حوشيّته مرّة، وإلى الأبد، ولكن هناك شيئا بالدّاخل يدفعه دفعا إلى مجاهل لا يعلمها، إلى أسرار لا يدرك كنهها. إنّه لتطرأ عليه منذ وقت

ليس باليسير حالات مجهولة، قد تكون تلبّسا، أو مساكنة، أو تناسخا من جنس تناسخ لم يسمع عنه من قبل... ولكن ما حيلته في كلّ ذلك. عليه أن يحاول، عليه أن يكتب بقلمه، فإن لم يكن بالقلم، فبقلبه، بالدّم الّذي في قلبه، بشوقه الّذي ما فتئ يتزايد... وطفت على ذاكرته فجأة أهازيج أعراس... لم يكن عرسا واحدا، وإنّما أعراس كثيرة، أو قد يكون هما عرسين، تداخلت فيهما ذكريات أعراس كثيرة من أزمان متباعدة... حاول أن يركّز... أن يستعيد ذكرى بناء ابنة الوالي بأمير أفشنة الّذي كان سبق بناءه بقوت القلوب بأيّام... حنّ قلبه... رقّت مشاعره، ووجد الدّموع تنزل من عينيه رغما عنه.

أخذ دفترا جديدا، وخطّ في رأسه: «بخارى لثلاث ليال بقين من ذي القعدة من السّنة (...) من الهجرة الشّريفة، يوم الخميس... وعرّجت على علاء الدّين في القهوة صبيحة ذلك اليوم، وبخارى قد لبست ثوبا جديدا، وفرشت أرضها بالرّياحين والياسمين، وارتفعت على بيوتها أعلام الزّينة، وعلّقت في شبابيكها المصابيح بكلّ الأحجام والألوان؛ وكانت الحركة لا تهدأ أبدا، في الشّوارع، وعلى النّواصي، وفي الأسواق حيث تضاعفت الحركة واضطراب النّاس، وكثر البيع والشّراء، وانتشر جنود الوالي في الأزقّة وفي كلّ مكان للحفاظ على النّظام... وقد كنت أسير أنا وعلاء الدّين ونتعجّب من كلّ ما يحدث حولنا؛ وكان كلّ همّنا أن نبلغ القصر الّذي قيل لنا إنّه تحوّل إلى خليّة نحل؛ كما قيل لنا أيضا إنّ الوالي . أدامه الله . قد أعطى أوامر صارمة بأن لا يحجب عن قصره أحد في ذلك اليوم، سيّما الفقراء والمساكين وكلّ من انقطعت به السّبل. وبالرّغم ممّا كان يعترينا من التّهيّب والخوف كوننا غرباء عن البلد ولسنا من أهله فقد انخرطنا مع بقيّة النّاس فيما كانوا فيه... إنّها مناسبة، ويا لها من مناسبة!! فليس في كلّ يوم تزفّ بنت من بنات بخارى إلى أمير كبير كأمير أفشنة الّذي ذاع صيته في الآفاق ولهجت بذكره الرّكبان وتحدّث عن شجّاعته كلّ راكب وراجل ليس في بخارى

وحدها ولكن في كلّ بلاد ما وراء النّهر. وبلغنا القصر، وكانت سبقتنا إليه الأهازيج والزّغاريد وأصوات الدّفوف والمزاهروالعيدان؛ والجنود الّذين كانوا في أوقات سابقة صارمين لا يغادرون أماكنهم كانوا في ذلك اليوم متبسّطين ضاحكين؛ بل إنّهم كانوا يقفشون القفشة إثر القفشة وقد وضعوا أسلحتهم جانبا، وكانوا يجرون مع جملة من يجري من الصّبيان، و يتقاذفون بقطع الحلوى، ويغنّون بلغتهم، فقد كانوا مزيجا، ليسوا كلّهم من بخارى، فمنهم من قدم من مناطق مختلفة من أذربيجان وأرمينيا، وبلاد القفقاس، وبلاد البلغار. وتقدّمنا ولم يعترض سبيلنا معترض، حتّى ولجنا إلى ساحة كبيرة كان فيها سرادق كبير... كان كبيرا جدّا، أكبر من كلّ ما رأته عيناي في حياتي؛ قال لي علاء الدّين، ونحن مازلنا في المدخل، ولا يرى ما في الدّاخل من كثرة النّاس، الّذين كان منهم من يحمل أطعمة منها ما أعرفه ومنها ما لا أعرفه، وكان منهم من يأكل، وكان منهم من هو جالس، ومن هو واقف، ومنهم من كان يعالج آلات موسيقى في أوّل السّرادق، وهم العازفون والمغنّون، وكان منهم كلّ شيء؛ إلاّ أنّ الفقراء كانوا أكثر من غيرهم، فذلك اليوم هو يومهم الّذي ربّما لن يتكرّر مرّة أخرى في أسابيع أو شهور أو حتّى سنوات، فليس كلّ من كان يقيم عرسا في بخارى ميّالا إلى استدعاء هؤلاء الفقراء:

-يبدو أنّ هذا اليوم من الأيّام الّتي ستكون تاريخا من التّواريخ؛ وسيكون علامة تحسب بها الأحداث... ألا تنظر إلى كلّ هؤلاء النّاس، وكأنّهم في موقف من المواقف الجليلة...

وهو يقول ذلك طافت بذهني مواقف أخرى، في أمكنة أخرى، في بغداد، التّي شهدت يفاعتي وشبابي؛ وذكرت أيّام الرّخاء والسّعادة وأنا أنعم بالحبّ الّذي كان يسبغه عليّ كلّ من والدي وبوران، وكادت تطفر من عينيّ الدّموع لولا أن تماسكت...

قال علاء الدّين، وهو يتظاهر بعدم الاهتمام بما كان يراه من

أمري، في حين كان يختلس إليّ النّظر من حين لآخر، وقد اهتمّ قليلا واغتمّ لأنّه ربّما يكون قد نكأ فيّ جروحا عن غير قصد:

- انظر!!

ونظرت حيث أشار، فإذا موكب الوالي قد أقبل، فهدأت الأصوات، وخفّت الحركة على حين غرّة، وتوقّف من كان يأكل عن الأكل، وتوقّف من كان يجري، وتوقّف من كان يلاحق الخدم ليظفر ببعض ما يحملونه من الكنافة والفالوذج، ومن صنوف اللّحوم... وكان الوالي يتقدّم موكبا صغيرا من النّساء تتوسّطهن فتاة كانت غارقة في البياض من رأسها حتّى أخمص قدميها، وكان وجهها تغطّيه طرحة لم ير أجمل منها من الحرير المخرّم؛ وتقدّم الجميع فاتّخذوا مجالسهم في الأماكن المخصّصة لهم، وقد جلست تلك الفتاة على مصطبة مرتفعة قليلا حتّى يراها كلّ من كان في السّرادق. وارتفعت أصوات الموسيقى، وفي حلبة وسط السّراداق دخل مجموعة من الفتيان وهم يحملون السّيوف، فجالوا مليّا، ولعبوا بسيوفهم، ورقصوا وهم يهزجون؛ وقد كانوا وهم يرقصون كأنّما يرومون الطّيران... قال علاء الدّين:

- يبدو أنّ عادات أهل البلد هنا غير عاداتنا في بغداد، أو أماكن أخرى من بلاد العرب.

قلت:

- إنّ عادات الأعاجم تختلف قليلا عن عاداتنا؛ ويبدو أنّ أهل البلد هنا تنكشف نساؤهم على رجالهم، ولا يجدون في ذلك حرجا أو مندوحة...

وجاء الأمير أخيرا وهو متسربل في زينته وقيافته الباذخة، واتّجه صوب المكان الّذي كان يجلس فيه الوالي، فجلس حذوه، وقد كانا يضحكان ويتحدّثان طيلة الوقت...»

ما الّذي يحدث؟ ما هذا الشّجن الممضّ؟ وهل يتسنّى السّلوان؟ والقلب يستكين، وتهدأ فيه فورة المشاعر أخيرا بعد ما حدث في ذلك

الخميس الّذي تلا الخميس الّذي تزوّجت فيه ابنة الوالي؟ وهل... وهل...؟ متى تهدأ هذه الأسئلة، ويعاوده سكونه أخيرا؟ إنّ أمره ليس من اليسير فهمه أو استيعابه؟! وما حصل له لو تناقلته ألسنة العامّة ولاكته الأفواه لتحوّل إلى مثار للسّخرية فيما تبقّى له من سني عمره؛ ولكنّ الله ستر؛ وقد كتمت أمره قوت القلوب، وتناسى صهره الأمر كأن لم يكن، بل إنّه بالغ في تعزيته، في دعوته إلى التّذرّع بالصّبر، ولم يوئسه من معاودة المحاولة من جديد، إذا أنس من نفسه نشاطا، استعدادا؛ غير أنّه . وزيادة في الرّفق به وبثّ الطّمانينة في نفسه . نصح بالبعد قليلا، بالإخلاد إلى الرّاحة والاستجمام... لقد قال له في حنوّ وعطف: «قوت القلوب لك أنت، وليست لغيرك... وهي عاقلة وستفهم!!» وقد فهمت فعلا ولم تقل شيئا حين أجفل... كان على وشك الإقدام، وهو يرى جمالها وقد كشف الطّرحة عن وجهها... لم يبد عليها أنّها متهيّبة، أو أنّها مثل العذراوات الأخريات اللّواتي لا يتخلّين في ظروف مشابهة عن خجلهنّ وخفرهنّ؛ وكانت دونا عنهنّ جميعا في جرأتها، في ثباتها، في رباطة جأشها، وحكمتها أيضا؛ ولولا أن يقال فيما بعد إنّها امرأة مستتيسة؛ أو إنّها . لا سمح الله . ليست بعذراء لكانت بادرت، ولكانت الخطوة الأولى منها؛ وكانت ستجنّبه في هذه الحالة ما وقع له من المشقّة والمعاناة؛ ولكن هل كانت تدري تحديدا ما وقع له في تلك اللّيلة، في خلوتهما في تلك الغرفة في ذلك البيت الّذي كان مفروضا فيه أن يكون بيته بعد أن يرحل كبير الشّرطة . أمدّ الله في عمره . عن هذه الدّنيا؟ هل خمّنت، بحدسها، الدّافع الّذي نأى به إلى الإعراض، إلى الهروب منها كأنّه مطارد، وقد كانا قاب قوسين أو أدنى من المباهج الّتي كانت تنتظرهما في تلك اللّيلة؟ هل كانت رأت ما رأى في تلك اللّحظات القليلة؟ وهل كانت ستصدّق ما حدث له لو رأت ما رأى؟ هل شكّت فيه لحظة، وأنّها في نهاية الأمر لم تتزوّج رجلا، ولكن ابتلاها قدرها بعنين لا قدرة له على المجامعة؟ لا، لا، هي لا تعتقد ذلك؟ إنّ لها نظرة

في الرّجال، وهي تدرك من صميم قلبها أنّه رجل من خيرة الرّجال؛ فماذا حصل له إذن؟ لماذا جمح كالفرس على حين غرّة؟ لم انفضّ عنها كمن اخترقته السّيوف أوتناوشته الرّماح؟! في لحظة من اللّحظات، خانتها شجاعتها، ووجدت نفسها تبكي من الدّاخل، وقد أوشكت دموعها أن تغافلها وتسقط على خدّها، لولا أن ضغطت بأصابعها على عينيها حتّى كادت تدميهما. قالت: «لا، يجب أن لا أبكي! يجب أن لا يرى دموعي، فيتضاعف قهره، وربّما إحساسه بالذّنب! يجب أن أكون شجاعة؛ والأهمّ من كلّ ذلك أن لا أتخلّى عنه... يجب أن أصبر... أن أمهله، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا!!» فماذا عنه هو؟! هل كان يتوقّع أن يراه في موقف مثل موقفه، أن يعكّر عليه صفوه أثناء أكثر أوقاته أنسا وانسجاما، أن يقتحم عليه خلوته؟!! ألم يشعر بخجل؟ ألم يشعر بحرج وهو يرى امرأة ورجلا شبه عاريين، وقد كانا على وشك أن يحصل بينهما ما يحصل بين المرأة وزوجها؟ أم أنّه، وإن اقتحم عليهما خلوتهما، فإنّ عينيه لا تريان ما يراه بقيّة النّاس من تلك المواقف الّتي لا تحدث إلاّ وراء الأبواب المقفلة، والأمكنة المواربة...؟!! قال له: «لا،لا،لا.» في البداية سمع الصّوت، ولم ير شيئا. وكان صوتا فيه سلطة لا تردّ. لماذا يمنع؟ وهل أتى محرّما، وقد عقد على المرأة الّتي هو معها عقدا على سنّة الله ورسوله؟ لماذا يلاحقه هذا الصّوت في كلّ مكان، في غرفته بالخان، في المسجد الجامع؟ هل يكون تابعا من التّوابع وهو لا يعلم؟ هل يكون موكلا بمصيره وقدره؟ وهبه كذلك، هل يكون في الزّواج ما يشين؟ هل يكون الزّواج لعنة من اللّعنات الّتي بدل أن تطهّر فإنّها تنجّس صاحبها؟... أحسّ أنّه أخذ على حين غرّة، وارتدّ لاإراديّا لعلمه بعريه، وهو الّذي كان يخشى منذ صباه أن يراه أحد عاريا؛ حتّى بوران حينما كانت تغيّر له ملابسه وهو صغير كان يصرّ أن تغمض عينيها كي لا تراه؛ فكيف به إذا كان خاليا بامرأة وكان على وشك مجامعتها؟! لبس ملابسه كيفما اتّفق، وحين نظر ثانية ناحية قوت القلوب وجدها على

حالتها، على ما هي عليه، كأنّها لم تسمع شيئا؛ ورأى البياض، وتلك الهالة، وكان الوجه يطغى عليه نور ساطع لا قبل للعين باحتماله؛ وسمع الصّوت يقول من جديد: «ليس الآن... ليس الآن...» نظر إلى قوت القلوب، وسألها: «هل تسمعين شيئا؟ هل ترين شيئا؟» وشعرت قبل أن تجيبه أنّ في الأمرسرّا ما، فغطّت نفسها، وقد جالت عيناها في كلّ المكان كأنّما كانت تتوقّع أن ترى أحدا يتطلّع إليها، وقالت في دهشة: «إنّي لا أسمع شيئا ولا أرى شيئا...» وخرج، وهو لا يدري ماذا يفعل أو أين يذهب، وقد أحسّ كأنّ الدّنيا على رحابتها تضيق من حوله؛ واستقبله كبير الشّرطة، وكان في البهو، قائلا: «ما الّذي جرى؟» وقد استغرب خروجه على تلك الهيئة من الخوف والتحسّب والجزع؛ ويبدو أنّه حدس شيئا، فوقف وأخذ بيده وأجلسه إلى جانبه، وكان بالقرب منه كوب من الزّنجبيل، فأمره أن يشرب منه. أمهله ريثما شرب جرعة أو جرعتين، ثمّ قال: «خيرا، يا ولدي!!» أراد أن يتكلّم، فشعر بالعبرات تخنق حلقه، تململ في مكانه قليلا، وكان أميل إلى الهروب، إلى المغادرة، يكفيه الآن الخزي الّذي هو فيه، ودّ لو يكون وحيدا، خاليا بنفسه، ليتجرّع مرارة ما حصل له على مهل؛ ولكنّ الرّجل لا يعتقه، يريد أن يعرف، وهذا من حقّه، فالجريحة ابنته، وهويريد أن يطمئنّ عليها، قال شيئا مدغما، كان يريد أن يقول الحقيقة كاملة فلم يطاوعه لسانه؛ اضطرابه كان موحيا، لم يكن كبير الشّرطة في حاجة إلى أكثر من ذلك ليفهم، قال مهوّنا عليه الأمر: «لا عليك، يا ولدي... هوّن عليك... أنا في مقام والدك، وإنّي أفهم ما أنت فيه... سأدعك الآن، وسنتحدّث في وقت آخر!!» ولم يزد على ذلك.

الغرفة على حالها، والنّور يتكاثف في النّهار، حينما يكون قد أخذ شيئا يتبلّغ به ليومه ويجلس إلى نضده وحوله أدوات كتابته، ثمّ يبدأ النّور بعد ذلك في التدرّج من صفرة وهّاجة تشي بالشمس في الخارج إلى خيوط ضئيلة تظلّ تتلوّن بألوان الطّيف إلى أن تتلاشى تماما، وتحلّ

محلّها ظلمة حالكة كانت تضطرّه إلى إضاءة الشّموع حتّى يكون قادرا على مواصلة عمله... لقد كان ذلك دأبه من قبل، وقد صار اليوم أشبه بالأمر القاهر لسجين كتب عليه أن يقضي باقي عمره في السّجن بعد الّذي حصل له؛ وكانت تعزيته الوحيدة أن يكتب، أن يسهب وقد كان من قبل يميل إلى الاقتضاب حتّى لا يفوّت على نفسه جلسات القهوة الّتي كان يقضيها مع علاء الدّين وهما يدخّنان الأركيلة ويتعاونان على قتل الوقت بأحاديث من كلّ حدب وصوب، على الأقلّ من جانبه هو، حيث كانت وطأة الغربة لديه أقوى، في حين كان علاء الدّين صديقه قد اعتاد على وحدته وعزلته مواربا في سجوف من صمت لا يريم... ولا يدري لماذا كان مشدودا إلى العهد القديم تحديدا رغم أنّه في حياته لم يعرف أحدا من اليهود، ولم يكن يهتمّ كثيرا لتاريخهم. بلى، كان يعرف مثلا، كأيّ مسلم له إلمام بمسائل دينه، أنّ عددا كبيرا منهم كان يقيم بالمدينة، ومن قبائلهم كان هناك بنو قينقاع وبنو النّضير وبنو قريظة؛ ولكنّه لم يكن يدقّق في أمرهم، وكان جلّ اهتمامه مصروفا إلى تاريخ قومه، إلى ما حصل لهم من أيّام وأحداث؛ وكان كلّما أنس من نفسه نشاطا كتب شيئا؛ وما كان يهمّه مثلا أن يتخيّر لمؤرّخين محدّدين وإنّما كان يختار من كتبهم عفو الخاطر، وكان يمضي السّاعات وهو يتأمّل سلسلة خلفاء المسلمين وأنسابهم وما كان في أيّامهم من الحوادث والنّوازل؛ وكان يتأنّى كلّما وصل إلى أيّام بني العبّاس وما جرى لهم وما ابتلو به من الأتراك في بادئ أمرهم ثمّ ما أصابهم من البويهيّين والسّلاجقة...

كان انتهى إلى «الأعداد»؛ فأخذ الكتاب من جديد، وتصفّح أوراقه على مهل، لا رغبة في القراءة أو الكتابة، وإنّما كانت تلك حركة الغاية من ورائها نسيان بعض اضطرام نفسه، وتركيزه في حاضره وإن كان أليما؛ ورغم ذلك فقد كانت عيناه تقعان بين الفينة والأخرى على الإصحاحات وما كتب فيها؛ وقد أعجبه أن الّذي بين يديه ليس فصلا

أو فصولا من كتب الفلسفة أو علم التّنجيم أو علم العمران البشريّ،
أو رسائل في الطّبّ لابن سينا أو الرّازي أو غيرهم؛ وارتاحت نفسه قليلا،
فبدأ يقرأ على استحياء: «[1]وَهذِهِ تَوَالِيدُ هَارُونَ وَمُوسَى يَوْمَ كَلَّمَ الرَّبُّ
مُوسَى فِي جَبَلِ سِينَاءَ. [2]وَهذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي هَارُونَ: نَادَابُ الْبِكْرُ، وَأَبِيهُو
وَأَلِعَازَارُ وَإِيثَامَارُ. [3]هذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي هَارُونَ الْكَهَنَةِ الْمَمْسُوحِينَ الَّذِينَ
مَلأَ أَيْدِيَهُمْ لِلْكَهَانَةِ. [4]وَلكِنْ مَاتَ نَادَابُ وَأَبِيهُو أَمَامَ الرَّبِّ عِنْدَمَا قَرَّبَا
نَارًا غَرِيبَةً أَمَامَ الرَّبِّ فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا بَنُونَ. وَأَمَّا أَلِعَازَارُ
وَإِيثَامَارُ فَكَهَنَا أَمَامَ هَارُونَ أَبِيهِمَا.
[5]وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: [6]«قَدِّمْ سِبْطَ لاَوِي وَأَوْقِفْهُمْ قُدَّامَ هَارُونَ
الْكَاهِنِ وَلْيَخْدِمُوهُ. [7]فَيَحْفَظُونَ شَعَائِرَهُ وَشَعَائِرَ كُلِّ الْجَمَاعَةِ قُدَّامَ
خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ، وَيَخْدِمُونَ خِدْمَةَ الْمَسْكَنِ. [8]فَيَحْرُسُونَ كُلَّ أَمْتِعَةِ
خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ، وَحِرَاسَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَخْدِمُونَ خِدْمَةَ الْمَسْكَنِ.
[9]فَتُعْطِي اللاَّوِيِّينَ لِهَارُونَ وَلِبَنِيهِ. إِنَّهُمْ مَوْهُوبُونَ لَهُ هِبَةً مِنْ عِنْدِ بَنِي
إِسْرَائِيلَ. [10]وَتُوَكِّلُ هَارُونَ وَبَنِيهِ فَيَحْرُسُونَ كَهَنُوتَهُمْ، وَالأَجْنَبِيُّ الَّذِي
يَقْتَرِبُ يُقْتَلُ».
[11]وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: [12]«وَهَا إِنِّي قَدْ أَخَذْتُ اللاَّوِيِّينَ مِنْ بَيْنِ بَنِي
إِسْرَائِيلَ، بَدَلَ كُلِّ بِكْرٍ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَكُونُ اللاَّوِيُّونَ لِي.
[13]لأَنَّ لِي كُلَّ بِكْرٍ. يَوْمَ ضَرَبْتُ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَدَّسْتُ لِي كُلَّ بِكْرٍ فِي
إِسْرَائِيلَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. لِي يَكُونُونَ. أَنَا الرَّبُّ».
[14]وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءَ قَائِلاً: [15]«عُدَّ بَنِي لاَوِي حَسَبَ
بُيُوتِ آبَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ. كُلَّ ذَكَرٍ مِنِ ابْنِ شَهْرٍ فَصَاعِدًا تَعُدُّهُمْ».
[16]فَعَدَّهُمْ مُوسَى حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَمَا أُمِرَ. [17]وَكَانَ هؤُلاَءِ بَنِي لاَوِي
بِأَسْمَائِهِمْ: جَرْشُونُ وَقَهَاتُ وَمَرَارِي. [18]وَهذَانِ اسْمَا ابْنَيْ جَرْشُونَ
حَسَبَ عَشَائِرِهِمَا: لِبْنِي وَشِمْعِي. [19]وَبَنُو قَهَاتَ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ: عَمْرَامُ
وَيِصْهَارُ وَحَبْرُونُ وَعُزِّيئِيلُ. [20]وَابْنَا مَرَارِي حَسَبَ عَشَائِرِهِمَا: مَحْلِي
وَمُوشِي. هذِهِ هِيَ عَشَائِرُ اللاَّوِيِّينَ حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ.

٢١لِجَرْشُونَ عَشِيرَةُ اللِّبْنِيِّينَ وَعَشِيرَةُ الشِّمْعِيِّينَ. هذِهِ هِيَ عَشَائِرُ
الْجَرْشُونِيِّينَ. ٢٢الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ بِعَدَدِ كُلِّ ذَكَرٍ مِنِ ابْنِ شَهْرٍ فَصَاعِدًا،
الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ سَبْعَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُ مِئَةٍ. ٢٣عَشَائِرُ الْجَرْشُونِيِّينَ يَنْزِلُونَ
وَرَاءَ الْمَسْكَنِ إِلَى الْغَرْبِ، ٢٤وَالرَّئِيسُ لِبَيْتِ أَبِي الْجَرْشُونِيِّينَ أَلِيَاسَافُ
بْنُ لاَيِلَ. ٢٥وَحِرَاسَةُ بَنِي جَرْشُونَ فِي خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ: الْمَسْكَنُ، وَالْخَيْمَةُ
وَغِطَاؤُهَا، وَسَجْفُ بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ، ٢٦وَأَسْتَارُ الدَّارِ وَسَجْفُ
بَابِ الدَّارِ اللَّوَاتِي حَوْلَ الْمَسْكَنِ وَحَوْلَ الْمَذْبَحِ مُحِيطًا وَأَطْنَابُهُ مَعَ كُلِّ
خِدْمَتِهِ.

٢٧وَلِقَهَاتَ عَشِيرَةُ الْعَمْرَامِيِّينَ وَعَشِيرَةُ الْيِصْهَارِيِّينَ وَعَشِيرَةُ
الْحَبْرُونِيِّينَ وَعَشِيرَةُ الْعُزِّيئِيلِيِّينَ. هذِهِ عَشَائِرُ الْقَهَاتِيِّينَ. ٢٨بِعَدَدِ كُلِّ ذَكَرٍ
مِنِ ابْنِ شَهْرٍ فَصَاعِدًا ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ وَسِتُّ مِئَةٍ حَارِسِينَ حِرَاسَةَ الْقُدْسِ.
٢٩وَعَشَائِرُ بَنِي قَهَاتَ يَنْزِلُونَ عَلَى جَانِبِ الْمَسْكَنِ إِلَى التَّيْمَنِ، ٣٠وَالرَّئِيسُ
لِبَيْتِ أَبِي عَشِيرَةِ الْقَهَاتِيِّينَ أَلِيصَافَانُ بْنُ عُزِّيئِيلَ. ٣١وَحِرَاسَتُهُمُ التَّابُوتُ
وَالْمَائِدَةُ وَالْمَنَارَةُ وَالْمَذْبَحَانِ وَأَمْتِعَةُ الْقُدْسِ الَّتِي يَخْدِمُونَ بِهَا، وَالْحِجَابُ
وَكُلُّ خِدْمَتِهِ. ٣٢وَلِرَئِيسِ رُؤَسَاءِ اللاَّوِيِّينَ أَلِعَازَارَ بْنِ هَارُونَ الْكَاهِنِ وَكَالَةُ
حُرَّاسِ حِرَاسَةِ الْقُدْسِ.

٣٣وَلِمَرَارِي عَشِيرَةُ الْمَحْلِيِّينَ وَعَشِيرَةُ الْمُوشِيِّينَ. هذِهِ هِيَ عَشَائِرُ مَرَارِي.
٣٤وَالْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ بِعَدَدِ كُلِّ ذَكَرٍ مِنِ ابْنِ شَهْرٍ فَصَاعِدًا سِتَّةُ آلاَفٍ
وَمِئَتَانِ، ٣٥وَالرَّئِيسُ لِبَيْتِ أَبِي عَشَائِرِ مَرَارِي صُورِيئِيلُ بْنُ أَبِيحَايِلَ.
يَنْزِلُونَ عَلَى جَانِبِ الْمَسْكَنِ إِلَى الشِّمَالِ. ٣٦وَوَكَالَةُ حِرَاسَةِ بَنِي مَرَارِي:
أَلْوَاحُ الْمَسْكَنِ وَعَوَارِضُهُ وَأَعْمِدَتُهُ وَفُرَضُهُ وَكُلُّ أَمْتِعَتِهِ وَكُلُّ خِدْمَتِهِ،
٣٧وَأَعْمِدَةُ الدَّارِ حَوَالَيْهَا وَفُرَضُهَا وَأَوْتَادُهَا وَأَطْنَابُهَا.

٣٨وَالنَّازِلُونَ قُدَّامَ الْمَسْكَنِ إِلَى الشَّرْقِ قُدَّامَ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ، نَحْوَ
الشُّرُوقِ، هُمْ مُوسَى وَهَارُونُ وَبَنُوهُ، حَارِسِينَ حِرَاسَةَ الْمَقْدِسِ لِحِرَاسَةِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالأَجْنَبِيُّ الَّذِي يَقْتَرِبُ يُقْتَلُ.

٣٩جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ مِنَ اللاَّوِيِّينَ الَّذِينَ عَدَّهُمْ مُوسَى وَهَارُونُ حَسَبَ

قَوْلِ الرَّبِّ بِعَشَائِرِهِمْ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنِ ابْنِ شَهْرٍ فَصَاعِدًا، اثْنَانِ وَعِشْرُونَ أَلْفًا.

[40] وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «عُدَّ كُلَّ بِكْرٍ ذَكَرٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنِ ابْنِ شَهْرٍ فَصَاعِدًا، وَخُذْ عَدَدَ أَسْمَائِهِمْ. [41] فَتَأْخُذُ اللاَّوِيِّينَ لِي. أَنَا الرَّبُّ. بَدَلَ كُلِّ بِكْرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَبَهَائِمَ اللاَّوِيِّينَ بَدَلَ كُلِّ بِكْرٍ فِي بَهَائِمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ». [42] فَعَدَّ مُوسَى كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ كُلَّ بِكْرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. [43] فَكَانَ جَمِيعُ الأَبْكَارِ الذُّكُورِ بِعَدَدِ الأَسْمَاءِ مِنِ ابْنِ شَهْرٍ فَصَاعِدًا، الْمَعْدُودِينَ مِنْهُمُ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلْفًا وَمِئَتَيْنِ وَثَلاَثَةً وَسَبْعِينَ.

[44] وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: [45] «خُذِ اللاَّوِيِّينَ بَدَلَ كُلِّ بِكْرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَهَائِمَ اللاَّوِيِّينَ بَدَلَ بَهَائِمِهِمْ، فَيَكُونَ لِيَ اللاَّوِيُّونَ. أَنَا الرَّبُّ. [46] وَأَمَّا فِدَاءُ الْمِئَتَيْنِ وَالثَّلاَثَةِ وَالسَّبْعِينَ الزَّائِدِينَ عَلَى اللاَّوِيِّينَ مِنْ أَبْكَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، [47] فَتَأْخُذُ خَمْسَةَ شَوَاقِلَ لِكُلِّ رَأْسٍ. عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ تَأْخُذُهَا. عِشْرُونَ جِيرَةً الشَّاقِلُ. [48] وَتُعْطِي الْفِضَّةَ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ فِدَاءَ الزَّائِدِينَ عَلَيْهِمْ». [49] فَأَخَذَ مُوسَى فِضَّةَ فِدَائِهِمْ مِنَ الزَّائِدِينَ عَلَى فِدَاءِ اللاَّوِيِّينَ. [50] مِنْ أَبْكَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذَ الْفِضَّةَ أَلْفًا وَثَلاَثَ مِئَةٍ وَخَمْسَةً وَسِتِّينَ عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، [51] وَأَعْطَى مُوسَى فِضَّةَ الْفِدَاءِ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى.» - عند هذا الحدّ، استدرك ما كان غاب عنه من قبل، وربّما جاء ذلك فجأة، ودون تخطيط، بمثل الإلهام كما يقال؛ وقد كان يأتي في كتب المؤرّخين العرب على المتون، وما من متن إلاّ كان مصحوبا بسلسلة سنده من آخر قائل إلى أوّل من نقل عنه الخبر؛ وقال: «حقّ أنّ الله كلّم موسى مباشرة من جانب الطّور الأيمن؛ وحقّ أنّ الله أوحى إليه بما أوحى، وأملاه التّوراة، وقرّبه نجيّا؛ وهذا كلّه مذكور في القرءان؛ ولكن قبل نزول التوراة، من كان أخبر بني إسرائيل أنّ الله تعالى قد كلّم موسى؟! الإجابة في زمن موسى أنّ موسى نفسه هو الّذي أخبر بني إسرائيل بذلك؛ ولكن بعد أن تطاولت الآماد، وتلت الدّهور الدّهور، من كان ينقل لمتأخّريهم ما وقع

لآبائهم في عهد موسى الأوّل؟ وهنا حاول أن يفهم، أن يقدّم بعض الافتراضات. فقال: «إذا سلّمنا أنّ بني إسرائيل قد كتبوا، وكان فيهم كتبة، فلا يستبعد أن يكون أحدهم قد كتب شيئا عمّا حدث في ذلك الزّمان؛ ولكن من هذا الّذي كتب؟ ما كان اسمه؟ ما كان نسبه؟ لأيّ قبيلة من قبائل يهود كان ينتمي؟ أم أنّ بني إسرائيل لم يكن يعنيهم ذلك الأمر لأنّهم فوّضوا أمر دينهم إلى أحبارهم وكهنتهم؛ وهؤلاء لم يكن شأنهم أن يعلموهم بمن قام بإرسال ما أرسل بقدر ما كان همّهم منصرفا إلى التّأكّد من التّطبيق الصّحيح لما ورد في التّوراة؛ فيهود، بعكس المسلمين مثلا، ما كان مسموحا لهم أن يناقشوا مسائل دينهم أو أن يستفسروا عنه ما دام هناك من هو موكول إليه القيام بذلك؛ فهم يفعلون ما يؤمرون به... وحمد الله في سرّه أن كان مسلما، وأنّه وإن لم يكن دائما قادرا على فهم الكثير من الأشياء، فلم يمنع مع ذلك من أن يتفكّر ويتأمّل؛ ثمّ قال: «وإذا اعتبرنا مثلا أن لم يكن هناك من كتب، وكان الأمر يتمّ مشافهة من جيل إلى جيل، فلماذا لم تذكر سلسلة الرّواة؟ لماذا كان المتن خاليا دائما إلاّ من عبارة: وخاطب الرّبّ موسى؛ أو: وخاطب الرّبّ موسى وهارون... قال في نفسه: «إنّ كلّ ذلك محيّر.» ولم يستبعد أن يكون الأمر كلّه من فعل الأحبار الّذين ذكر عنهم القرءان الشّيء الغير القليل؛ ثمّ قارن بين الله الواحد الأحد الفرد الصّمد، وربّ بني إسرائيل؛ وتمعّن فيما كان النّاس يقولونه ويتناقلونه في ذلك العصر أو في ما مرّ من عصور من أنّ الإسلام واليهوديّة الّتي جاء بها موسى إنّما هي تنبع من مصدر واحد، ألا وهو التّوحيد؛ وأنّ الإسلام واليهوديّة هما من الدّيانات السّماويّة الّتي تؤمن بإله واحد؛ فقال: «إذا كان ذلك كذلك، فلماذا يبدو إله أو ربّ بني إسرائيل دائم الغضب والانتقام، ولا مجال في قلبه للرّحمة، فهو دائم البطش، وهو دائم القتل والحقد، وإن بدا له أحيانا أن يمهل إلى حين كما كان فعل مع فرعو مثلا؛ إلاّ أنّه حتّى في حال فرعون قال لموسى عليه السّلام:

سأقسّي قلبه، أي أنّ أمر إمهاله لم يكن لهدايته أو إرشاده إلى الصّواب، وإنّما كان بغاية المبالغة في توريطه والختم على قلبه؛ في حين أنّ الله سبحانه وتعالى هو كثير الرّحمة كما هو كثير الانتقام، وهو حليم، وغضبه تابع لحلمه، والله يقبل من العبد توبته، وترك له اختيار أعماله فلا يجبره إلاّ في حالات؛ وحالات الإجبار هذه إنّما كانت في صالح الإنسان الّذي لو ترك في تلك الحالات لنفسه لربّما كان ضيّع وضاع؛ فالله تعالى رؤوف به في نومه، رؤوف به في مسائل أكله وشربه، الّتي لو ترك فيها الإنسان لنفسه لنسيها، أو نسي بعضها فهلك... والله تعالى سبقت رحمته عقابه.» وقال: «في السّفر شيء لا يخفى؛ وهو أنّ الله بدل أن يعطي ويمنح فهو يأخذ ويستصفي؛ فهو كما كان قتل كلّ بكر من أبكار مصر، فهو يريد أن يأخذ لنفسه كلّ بكر من بني إسرائيل، وهذا ضدّ «إنّ الله يعطي بغير حساب!» و «إنّ الله هو الكريم الجواد!» وقال: «إذا كان الله عادلا، وهو العدل؛ والله هو الآمر بالقسطاس، وفي العرف الّذي سنّه الله، وهو أمر الشّريعة، حرّم الله أن تكون المفاضلة إلاّ على أساس من التّقوى والخوف منه؛ فلماذا يكون ربّ بني إسرائيل محابيا إذا كانت التّوراة تصدر من مشكاة واحدة مع القرءان؟ فها هو ذا نراه يفضّل بني إسرائيل على من سواهم من الشّعوب، وفي بني إسرائيل نراه يفضّل بني لاوي؛ وقد يقول قائل: «فالله كذلك فضّل أمّة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم على بقيّة الأمم، وكان ذلك أمرا صريحا في سورة البقرة حين يقول: «وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيدا.» وفي سورة آل عمرن، الّتي تلي مباشرة سورة البقرة، يقول الحقّ جلّ ذكره: «كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون.» قلنا: إنّ الله إنّما شرط ذلك ولم يطلقه، فنحن خير أمّة أخرجت للنّاس ما أقمنا على أمر الله تعالى نأمر بالمعروف الّذي سنّه

ودلّ عليه، وننهى عن المنكر الّذي حدّده، ونؤمن به واحدا أحدا لاشريك له، نقرّله بالعبوديّة ونخضع لفردانيّته ونبتعد عن الشّرك به؛ وهي أشياء نأى عنها أكثر أهل الكتاب، ومن أهل الكتاب بنو إسرائيل؛ فإذن فالأمر ليس سواء فيما بين التّوراة والقرءان، وبين الإسلام واليهوديّة، وإنّما بينهما بون شاسع.» وكان مرتاحا لما يفكّر فيه، فبدا له أن يدوّنه، ليس على الحاشية هذه المرّة ولكن في دفتره الّذي كان حدّد في رأسه التّاريخ؛ وبعد أن اطمأنّ إلى سلامة ما كتبه وراجعه ليصحّح أخطاءه، بدا له أن يذكر طرفا من شمائل موسى عليه السّلام الّذي كان جعله الله سببا في نجاة بني إسرائيل، كما بدا له أيضا أنّ كلّ هذا الخلل الّذي كان يفكّر فيه لم يكن منشؤه نبيّ الله وإنّما كان على أيدي مجهولين كانوا أزمعوا التّحريف والتّصحيف لخدمة أغراضهم وتبيين أنّ بني إسرائيل دونا عن غيرهم هم شعب الله المختاروأنّ الله قد مكّن لهم في الأرض وجعل باقي الشّعوب الأخرى الّذين كانوا يسمّونهم الأميّين خولا لهم وعبيدا. وقد ذكر الحافظ ابن كثير في كتاب «البداية والنّهاية» الكثير من تلك الشّمائل فقال: «باب فضائل موسى عليه السّلام وشمائله وصفاته ووفائه. قال الله تعالى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣).» وقال تعالى: «قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي.» وتقدّم في الصّحيحين عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تفضّلوني على موسى فإنّ النّاس يصعقون يوم القيامة فأكون أوّل من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطّور.» وقدّمنا أنّه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من باب الهضم والتّواضع وإلاّ فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيّد ولد آدم في الدّنيا والآخرة قطعا جزما لا يحتمل النّقيض وقال تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى

نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ.» إلى أن قال: «وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤).» وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩).» قال الإمام أبو عبدالله البخاريّ حدّثنا إسحق بن إبراهيم بن روح بن عبادة عن عوف عن الحسن ومحمّد وخلاس عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «إنّ موسى كان رجلا حييّا ستيرا لا يرى جلده شيء استحياء منه فأذاه من أذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التّستّر إلاّ من عيب بجلده إمّا برص أو أدرة وإمّا آفة وأنّ الله عزّ و جلّ أراد أن يبرّئه ممّا قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثمّ اغتسل فلمّا فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأنّ الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتّى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وبرّأه ممّا يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إنّ بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا قال: فذلك قوله عزّ و جلّ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩).» «وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبدالله بن شقيق وهمّام بن منبّه عن أبي هريرة به وهو في الصّحيحين من حديث عبدالرّزّاق عن معمر عن همّام عنه به ورواه مسلم من حديث عبدالله بن شقيق العقيليّ عنه.» و«قال بعض السّلف كان من وجاهته أنّه شفع في أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيرا فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبيّا كما قال: «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)» ثمّ قال البخاريّ حدّثنا أبو الوليد حدّثنا شعبة حدّثنا الأعمش سألت أبا وائل قال سمعت عبدالله قال قسم رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قسما فقال رجل إنّ هذه قسمة

ما أريد بها وجه الله فأتيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فغضب حتّى رأيت الغضب في وجهه ثمّ قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر.» وكذا رواه مسلم من غيروجه عن سليمان بن مهران عن الأعمش به وقال الإمام أحمد حدّثنا أحمد بن حجّاج سمعت إسرائيل ابن يونس عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان عن زيد بن أبي زائد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئا فإنّي أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصّدر.» قال وأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مال فقسّمه قال فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه والله ما أراد محمّد بقسمته وجه الله ولا الدّار الآخرة فثبتّ حتّى سمعت ما قالا ثمّ أتيت رسول الله فقلت يا رسول الله إنّك قلت لنا لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا وإنّي مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فاحمرّ وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشقّ عليه ثمّ قال: «دعنا منك فقد أوذي موسى أكثر من ذلك فصبر.» وهكذا رواه أبو داود والتّرمذيّ من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به وفي رواية للتّرمذيّ ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السّدّيّ عن الوليد به وقال التّرمذيّ غريب من هذا الوجه وقد ثبت في الصّحيحين في أحاديث الإسراء أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرّ بموسى وهو قائم يصلّي في قبره ورواه مسلم عن أنس وفي الصّحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه مرّ ليلة أسري به بموسى في السّماء السّادسة فقال له جبريل هذا موسى فسلّم عليه قال: «فسلّمت عليه فقال مرحبا بالنّبيّ الصّالح والأخ الصّالح فلمّا تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال أبكي لأنّ غلاما بعث بعدي يدخل الجنّة من أمّته أكثر ممّا يدخلها من أمّتي.» وذكر إبراهيم في السّماء السّابعة وهذا هو المحفوظ وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس من أنّ إبراهيم في السّادسة وموسى في السّابعة بتفضيل

كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفّاظ أنّ الّذي عليه الجادّة أنّ موسى في السّادسة وإبراهيم في السّابعة وأنّه مسند ظهره إلى البيت المعمور الّذي يدخله كلّ يوم سبعون ألفا من الملائكة ثمّ لا يعودون إليه آخر ما عليهم واتّفقت الرّوايات كلّها على أنّ الله تعالى لمّا فرض على محمّد صلّى الله عليه وسلّم وأمّته خمسين صلاة في اليوم واللّيلة فمرّ بموسى قال ارجع إلى ربّك فسله التّخفيف لأمّتك فإنّي قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشدّ المعالجة وأنّ أمّتك أضعف أسماعا وأبصارا وأفئدة فلم يزل يتردّد بين موسى وبين الله عزّوجلّ ويخفّف عنه في كلّ مرّة حتّى صارت إلى خمس صلوات في اليوم واللّيلة وقال الله تعالى هي خمس وهي خمسون أي بالمضاعفة فجزى الله عنّا محمّدا صلّى الله عليه وسلّم خيرا وجزى الله عنّا موسى عليه السّلام خيرا وقال البخاريّ حدّثنا مسدّد حدّثنا حصين ابن نمير عن حصين بن عبد الرّحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوما فقال: «عرضت عليّ الأمم ورأيت سوادا كثيرا سدّ الأفق فقيل هذا موسى في قومه.» هكذا روى البخاريّ هذا الحديث ههنا مختصرا وقد رواه الإمام أحمد مطوّلا فقال حدّثنا شريح حدّثنا هشام حدّثنا حصين بن عبد الرّحمن قال كنت عند سعيد بن جبير فقال أيّكم رأى الكوكب الّذي انقضّ البارحة قلت أنا ثمّ قلت إنّي لم أكن في صلاة ولكن لدغت قال وكيف فعلت قلت استرقيت قال وما حملك على ذلك قال قلت حديث حدّثناه الشّعبيّ عن بريدة الأسلميّ أنّه قال لا رقية الاّ من عين أو حمّة فقال سعيد يعني ابن جبير قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ثمّ قال حدّثنا ابن عبّاس عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النّبيّ ومعه الرّهط والنّبيّ معه الرّجل والرّجلان والنّبيّ وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فقلت هذه أمّتي فقيل هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم ثمّ قيل انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم فقيل هذه أمّتك

ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب.» ثمّ نهض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدخل فخاض القوم في ذلك فقالوا من هؤلاء الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم لعلّهم الّذين صحبوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقال بعضهم لعلّهم الّذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا قطّ وذكروا أشياء فخرج إليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «ما هذا الّذي كنتم تخوضون فيه.» فأخبروه بمقالتهم فقال: «هم الّذين لا يكنوون ولا يسترقون ولا يتطيّرون وعلى ربّهم يتوكّلون.» فقام عكاشة بن محيصن الأسديّ فقال أنا منهم يا رسول الله قال أنت منهم ثمّ قام آخر فقال أنا منهم يا رسول الله فقال: «سبقك بها عكاشة.» وهذا الحديث له طرق كثيرة جدّا وهو في الصّحاح والحسان وغيرها وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صفة الجنّة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السّلام في القرآن كثيرا وأثنى عليه وأورد قصّته في كتابه العزيز مرارا وكرّرها كثيرا مطوّلة ومبسوطة ومختصرة وأثنى عليه بليغا وكثيرا ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمّد صلّى الله عليه وسلّم وكتابه كما قال في سورة البقرة: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) .» وقال تعالى: «الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤) .» وقال تعالى في سورة الأنعام: « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢).» فأثنى تعالى على التّوراة ثمّ مدح القرآن العظيم مدحا عظيما وقال تعالى في آخرها: «ثُمَّ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥).» وقال تعالى في سورة المائدة: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) .» إلى أن قال: «وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ.» الآية. فجعل القرآن حاكما على سائر الكتب وجعله مصدّقا لها ومبيّنا ما وقع فيها من التّحريف والتّبديل فإنّ أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها لهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهومهم وقصورهم في علومهم ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البيّن على الله وعلى رسوله ما لا يحدّ ولا يوصف وما لا يوجد مثله ولا يعرف وقال تعالى في سورة الأنبياء: «وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠).» وقال الله تعالى في سورة القصص: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩).» فأثنى الله على الكتابين وعلى الرّسولين

عليهما السّلام وقالت الجنّ لقومهم إنّا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى وقال ورقة بن نوفل لمّا قصّ عليه رسول الله صلّى الله عليه و سلّم خبر ما رأى من الأوّل الوحي وتلا عليه: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) .» قال سبّوح سبّوح هذا النّاموس الّذي أنزل على موسى بن عمران. وبالجملة فشريعة موسى عليه السّلام كانت عظيمة وأمّته كانت أمّة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعبّاد وزهّاد وألبّاء وملوك وأمراء وسادات وكبراء لكنّهم كانوا فبادوا وتبدّلوا كما بدّلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير ثمّ نسخت بعد كلّ حساب ملّتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله وبه الثّقة وعليه التكلان.»

وذكر ابن كثير أيضا حجّة موسى عليه السّلام في كتابه فقال: «حجّته عليه السّلام إلى البيت العتيق. قال الإمام أحمد حدّثنا هشام حدّثنا داود بن أبي هند عن أبي العالية عن ابن عبّاس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرّ بوادي الأزرق فقال: «أيّ واد هذا؟» قالوا: «وادي الأزرق.» قال: «كأنّي أنظر إلى موسى وهو هابط من الثّنيّة وله جؤار إلى الله عزّوجلّ بالتلبية.» حتّى أتى على ثنيّة هرشاء فقال: «أيّ ثنيّة هذه؟» قالوا: «هذه ثنيّة هرشاء.» قال: «كأنّي أنظر إلى يونس بن متّى على ناقة حمراء عليه جبّة من صوف خطام ناقته خلبة (قال هشيم يعني ليفا) وهو يلبّي.» أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به وروى الطّبرانيّ عن ابن عبّاس مرفوعا إنّ موسى حجّ على ثور أحمر وهذا غريب جدّا وقال الإمام أحمد حدّثنا محمّد بن أبي عديّ عن ابن عون عن مجاهد قال كنّا عند ابن عبّاس فذكروا الدّجّال فقال إنّه مكتوب بين عينيه ك ف رقال ما يقولون قال يقولون مكتوب بين عينيه ك ف رفقال ابن عبّاس لم أسمعه قال ذلك ولكن قال أمّا إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم وأمّا موسى فرجل آدم جعد الشّعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة

كأنّي أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبّي قال هشيم الخلبة اللّيف ثمّ رواه الإمام أحمد عن أسود عن إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عبّاس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأمّا عيسى فأبيض جعد عريض الصّدر وأمّا موسى فآدم جسيم قالوا فإبراهيم قال انظروا إلى صاحبكم وقال الإمام أحمد حدّثنا يونس حدّثنا شيبان قال حدّث قتادة عن أبي العالية حدّثنا ابن عمّ نبيّكم ابن عبّاس قال قال نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا طوالا جعدا كأنّه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرّأس.» وأخرجاه من حديث قتادة به وقال الإمام أحمد حدّثنا عبد الرّزّاق حدّثنا معمر قال الزّهريّ وأخبرني سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين أسري بي لقيت موسى فنعته فقال رجل قال حسبته قال مضطرب رجل الرّأس كأنّه من رجال شنوءة ولقيت عيسى فنعته رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال ربعة أحمر كأنّما خرج من ديماس يعني حمّاما قال ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولد به الحديث وقد تقدّم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل. «ذكر وفاته عليه السّلام» . قال البخاريّ في صحيحه (وفاة موسى عليه السّلام) حدّثنا يحيى بن موسى حدّثنا عبد الرّزّاق أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السّلام فلمّا جاءه صكّه فرجع إلى ربّه عزّوجلّ فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطّت يده بكلّ شعرة سنة قال أي ربّ ثمّ ماذا قال ثمّ الموت قال فالآن قال فسأل الله عزوجلّ أن يدنيه من الأرض المقدّسة رمية بحجر قال أبو هريرة فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «فلو كنت ثمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطّريق عند الكثيب الأحمر.» قال وأنبأنا معمر عن همّام عن أبي هريرة عن النّبيّ صلّى الله

عليه وسلّم نحوه وقد روى مسلم الطّريق الأوّل من حديث عبد الرّزّاق به ورواه الإمام أحمد من حديث حمّاد بن سلمة عن عمّار بن أبي عمّار عن أبي هريرة مرفوعا وسيأتي وقال الإمام أحمد حدّثنا الحسن حدّثنا ابن لهيعة حدّثنا أبو يونس يعني سليم بن جبير عن أبي هريرة قال الإمام أحمد لم يرفعه قال جاء ملك الموت إلى موسى عليه السّلام فقال أجب ربّك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها فرجع الملك إلى الله فقال إنّك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت قال وقد فقأ عيني قال فردّ الله عينه وقال ارجع إلى عبدي فقل له الحياة تريد فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فإنّك تعيش بها سنة قال ثمّ مه قال ثمّ الموت قال فالآن يا ربّ من قريب تفرّد به أحمد وهو موقوف بهذا اللّفظ وقد رواه ابن حبّان في صحيحه من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال معمر وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله فذكره ثمّ استشكله ابن حبّان وأجاب عنه بما حاصله أنّ ملك الموت لمّا قال له هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السّلام كما جاء جبريل في صورة أعرابيّ وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أوّلا وكذلك موسى لعلّه لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه لأنّه دخل داره بغير إذنه وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن ثمّ أورد الحديث من طريق عبد الرّزّاق عن معمر عن همّام عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه قال له أجب ربّك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه.» وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاريّ ثمّ تأوّله على أنّه لمّا رفع يده ليلطمه قال له أجب ربّك وهذا التّأويل لا يتمشّى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله أجب ربّك فلطمه ولو استمرّ على الجواب الأوّل لتمشّى له وكأنّه لم يعرفه في تلك الصّورة ولم يحمل قوله هذا على أنّه مطابق إذا لم

يتحقّق في السّاعة الرّاهنة أنّه ملك كريم لأنّه كان يرجو أمورا كثيرة كان يحبّ وقوعها في حياته من خروجه من التّيه ودخولهم الأرض المقدّسة وكان قد سبق في قدرة الله أنّه عليه السّلام يموت في التّيه بعد هارون أخيه كما سنبيّنه إن شاء الله تعالى وقد زعم بعضهم أنّ موسى عليه السّلام هو الّذي خرج بهم من التّيه ودخل بهم الأرض المقدّسة وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين وممّا يدلّ على ذلك قوله لمّا اختار الموت ربّ أدنني إلى الأرض المقدّسة رمية حجر ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لمّا كان مع قومه بالتّيه وحانت وفاته عليه السّلام أحبّ أن يتقرّب إلى الأرض الّتي هاجر إليها وحثّ قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ولهذا قال سيّد البشر ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر: «فلو كنت ثمّ لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر.» وقال الإمام حدّثنا عفّان حدّثنا حمّاد حدّثنا ثابت وسليمان التّيميّ عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلّي في قبره عند الكثيب الأحمر.» ورواه مسلم من حديث حمّاد بن سلمة به وقال السّدّيّ عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصّحابة قالوا ثمّ إنّ الله تعالى أوحى إلى موسى إنّي متوفّ هارون فائت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها وإذا هم ببيت مبنيّ وإذا هم بسرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيّبة فلمّا نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه قال يا موسى إنّي أحبّ أن أنام على هذا السّرير قال له موسى فنم عليه قال إنّي أخاف أن يأتي ربّ هذا البيت فيغضب عليّ قال له لا ترهب أنا أكفيك ربّ هذا البيت فنم قال يا موسى نم معي فإن جاء ربّ هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعا فلمّا ناما أخذ هارون الموت فلمّا وجد حسّه قال يا موسى خدعتني فلمّا قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشّجرة ورفع السّرير به إلى السّماء فلمّا رجع موسى إلى قومه

وليس معه هارون قالوا فإنّ موسى قتل هارون وحسده حبّ بني إسرائيل له وكان هارون أكفّ عنهم وألين لهم من موسى وكان في موسى بعض الغلظة عليهم فلمّا بلغه ذلك قال لهم ويحكم كان أخي أفتروني أقتله فلمّا أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين ثمّ دعا الله فنزل السّرير حتّى نظروا إليه بين السّماء والأرض ثمّ إنّ موسى عليه السّلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء فلمّا نظر إليها يوشع ظنّ أنّها السّاعة فالتزم موسى وقال تقوم السّاعة وأنا ملتزم موسى نبيّ الله فاستلّ موسى عليه السّلام من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع فلمّا جاء يشوع بالقميص آخذته بنو إسرائيل وقالوا قتلت نبيّ الله فقال لا والله ما قتلته ولكنّه أستلّ منّي فلم يصدّقوه وأرادوا قتله قال فإذا لم تصدّقوني فأخّروني ثلاثة أيّام فدعا الله فأتى كلّ رجل ممّن كان يحرسه في المنام فأخبر أنّ يوشع لم يقتل موسى وإنّا قد رفعناه إلينا فتركوه ولم يبق أحد ممّن أبى أن يدخل قرية الجبّارين مع موسى إلاّ مات ولم يشهد الفتح وفي بعض هذا السّياق نكارة وغرابة والله أعلم وقد قدّمنا أنّه لم يخرج أحد من التّيه ممّن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنّا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرّجلان المذكوران فيما تقدّم اللّذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدّخول عليهم وذكر وهب بن منبّه أنّ موسى عليه السّلام مرّ بملأ من الملائكة يحفرون قبرا فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج فقال يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد من عباد الله كريم فإن كنت تحبّ أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدّد فيه وتوجّه إلى ربّك وتنفّس أسهل تنفّس ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فصلّت عليه الملائكة ودفنوه وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنّه مات وعمره مائة وعشرون سنة وقد قال الإمام أحمد حدّثنا أميّة بن خالد ويونس قالا حدّثنا حمّاد بن سلمة عن عمّار بن أبي عمّار عن أبي هريرة عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال يونس رفع هذا الحديث إلى النّبيّ صلّى

الله عليه وسلّم قال كان ملك الموت يأتي النّاس عيانا قال فأتى موسى عليه السّلام فلطمه ففقأ عينه فأتى ربّه فقال يا ربّ عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لعتبت عليه وقال يونس لشققت عليه قال له اذهب إلى عبدي فقل له فليضع يده على جلد أو مسك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة فأتاه فقال له فقال ما بعد هذا قال الموت قال فالآن قال فشمّه شمّة فقبض روحه قال يونس فردّ الله عليه عينه وكان يأتي النّاس خفية وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب بن المقدام عن حمّاد بن سلمة به فرفعه أيضا.» وكتب طاجيك: «ولولا أنّي أخاف الإطالة لأطلت ولأفضت؛ ولكنّها أويقات صفاء أغتنمها بين الفينة والفينة لأنسى؛ لأتدارك ما فاتني من أمري، وقد كنت أحسب أنّ الله تعالى قد منّ عليّ بقرب الفرج، فإذا أيّامي كما هي، مداومة على وحدة دون زوجة أو أبناء أو والد يفرّج قربه عنّي أو والدة أرتاح إلى جوارها؛ ولله الأمر... وأنا على العهد الّذي قطعته على نفسي أن أنهي ما بدأت فيه من هذه الأحاديث الّتي أمزج فيها بين ما أجده في أسفار العهد القديم وما تسنح الفرصة للعثور عليه في كتب المتقدّمين وبعض المتأخّرين من مؤرّخي الإسلام جزاهم الله عنّا خير الجزاء؛ و....» أخذته سنة خفيفة، لم ير أخفّ منها على النّفس، ولكن رغم خفّتها فلها ثقل على القلب الّذي تزايدت ضرباته، وأصبح كأنّما قائم عليه ضارب على طبل لا ينفكّ على نقره صعودا ونزولا، وهو يرى قلبه حتّى وهو نائم؛ وفي مكان خفيّ من باطنه الّذي لا يرى بدا له أنّه يسمع صراخا أو عويلا، وكلّما ارتفع ذلك الصّراخ أو العويل يحسّ كأنّ منخسا ينغرز في حشاشة قلبه فيحدث ذلك ألما في نفسه؛ ويروم التّعبير عن الألم الّذي يحسّه، عن قلّة حيلته وقلّة صبره؛ فلو رام ذلك وطاوعته جوارحه لكان استغاث، طلب نجدة ممّن هو قريب منه أو بعيد عنه، ولوشت استغاثته بمكانه، فجاءه ممّن كان سمع لينقذه ممّا هو فيه من التّهافت، من السّقوط، الّذي كان يشدّه إلى الأعماق،

إلى هوّة ما لها قرار... وهو يريد أن يعرف صاحب الصّراخ على الأقل، أن يعرف مصدر ألمه، فيركّز عينيه، يستجمع كلّ قواه في نظراته الّتي كانت ترتدّ إليه خاسئة وهي حسيرة؛ وبعد المجاهدة والمكابرة على الاستسلام، بدأت تتضّح لعينيه كما من وراء ستار أو كأنّما أخيلة على جدار، مجرّد ظلال على حائط، ذكّرته بشيء كان رآه في إحدى حواضر الإسلام حين سأل قال له قائل إنّه شيء يتّخذونه في المسامرات لإلهاء النّاس، ويسمّونه عندهم مسرح الظّلّ، لا يرى أجسادا حقيقيّة رغم أنّ الأصوات الّتي كانت تصدرهي أصوات آدميّة، والشّيء الوحيد الّذي كان يذكّر بما هو بشريّ في تلك القعدات كانت الحركات وحدها، الّتي قال له ذلك القائل إنّ هناك أشخاصا في مكان ما هم الّذي يحرّكون تلك الدّمى الّتي كانت تأتي تلك الحركات؛ وقد كان ذلك شيئا جديدا عليه، ولم يصدّقه بينه وبين نفسه، بل كان يضحك عليه في سرّه؛ ولكنّه يراه الآن يتكرّر من جديد أمام ناظريه؛ وكان الّذي يراه في البداية كأنّما شخص جالس، وكأنّما شخص آخر يجلس قبالته على مبعدة، وكأنّ أحدهما يلقّن الاخر أو يعلّمه أو يشهده؛ وذكّره ذلك بمجالس درسه في بغداد؛ إلاّ أنّ البون بين تلك المجالس وما يراه الآن أمامه كبير، ولا يوصف، ولا يمكن الإحاطة بمداه، فليس هناك كتب ولا دفاتر، ولا كنانيش صغيرة، ولا أقلام قصب، ولا مداد ولا حبر، ولكن كان الدّرس تمرينا على الصّراخ، كان تمرينا على إحداث الألم بالكلمات أو الإشارات، أو كأنّما كان تمرينا على الوساوس وبالوساوس... والأيدي، والأفواه، وكلّ الجوارح كانت تعمل في نفس الوقت، وأصوات دفوف تأتي من أكثر الاماكن بعدا؛ وذانك الشّخصان يفصحان أخيرا في ظلالهما، ويتحوّل أحدهما إلى شيخ، والاخر شابّ أو شابّ يستعدّ لمفارقة شبابه إلى كهولته؛ وما أن تهدأ أصوات الدّفوف حتّى تبدأ الكلمات، ويخفّ الصّراخ، ويسمع النّغم والجرس آتيين من جهة الشّيخ الّذي كان ظلّه يقول إنّ له لحية كثّة كبيرة، وإنّ يديه اللّتين

كانتا تتحرّكان كأنّ وجدا باطنا كان يحرّكهما فتنطلقان إلى الأعالي كانتا رقيقتين مستدقّتين، وإنّ عينيه كانتا مغلقتين بينما كان الفم يرحل في مساررة بلا حدود؛ وفي سنته الخفيفة كان طاجيك يحاول أن يفهم تلك الكلمات الّتي كانت تأسره، كانت تشدّه إليها فتبعث فيه خدرا، تبعث فيه لذاذات لم يجرّبها من قبل في حياته؛ وأخيرا بعد جهد سمع، خيّل إليه أنّه يشهد المبعث، أنّه يشهد الولادة، ويشهد الخلق من عدم، وصوت الشّيخ يسافر فيه، وذلك الجالس قبالته يغبّر مع تغبيره، يردّد ما كان يقوله ليتعلّم، ليصعد مع النّبر، وتتردّد روحه في الجرس الصّاعد إلى ذرى وسماوات لا تدرك: «قال رضي الله عنه: طس، سراج من نور الغيب، وبدا وعاد، وجاوز السّراج وساد، قمر تجلّى من بين الأقمار، برجه في فلك الأسرار، سمّاه الحقّ «أميّا» لجمع همّته، و «حرميّا» لعظم نعمته، و «مكيّا» لتميكنه عند قربه. شرح صدره، ورفع قدره، وأوجب أمره فأظهر بدره، أضاء سراجه من معدن الكرامة. ما أخبر إلاّ عن بصيرته، ولا أمر بسنّته إلاّ عن حقّ سيرته، حضر فأحضر، وأبصر فخبر، واندلّ فحدّد، ما أبصره أحد على التّحقيق سوى الصّدّيق؛ لأنّه وافقه ثمّ رافقه لئلاّ يبقى بينهما فريق، ما عرفه عارف إلاّ جهل وصفه: «الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون.» أنوار النبوّة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في النّوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم، همّته سبقت الهمم ووجوده سبق العدم وإسمه سبق القلم؛ لأنّه كان قبل الأمم ما كان في الآفاق ووراء الآفاق ودون الآفاق أظرف وأشرف وأعرف وأنصف وأرأف وأخوف واعطف من صاحب هذه القضيّة، وهو سيّد البريّة، الّذي إسمه أحمد، ونعته أوحد، وأمره أوكد، وذاته أوجد، وصفته أمجد وهمّته أفرد يا عجبا ما أظهره وأنظره وأكبره وأشهره وأنوره وأقدره وأبصره لم يزل كان، كان مشهورا قبل الحواديث والكواين والكوان

ولم يزل كان مذكورا قبل القبل، وبعد البعد والجواهر والألوان جوهره صفويّ، كلامه نبويّ، علمه علويّ، عبارته عربيّ، قبيلته لا «مشرقيّ ولا مغربيّ» جنسه أبويّ، رفيّه رفويّ، صاحبه أمّيّ، بإشارته أبصرت العيون، به عرفت السّرائر والضّمائر، والحقّ أنطقه، والدّليل صدّقه، والحقّ أطلقه، هو الدّليل والمدلول، هو الّذي جلا الصّدأ عن الصّدر المغلول. هو الّذي أتى بكلام قديم، لا محدث ولا مقول، ولا مفعول بالحقّ موصول غير مفصول، الخارج عن المعقول، هو الّذي أخبّ عن البداية والنّهايات، ونهايات النّهاية. رفع الغمام، أشار إلى البيت الحرام. هو التّمام، هو الهمام، هو الّذي أمر بكسر الأصنام، الّذي أرسل إلى الأنام، والأجرام فوقه غمامة برقت وتحته برقة لمعت، أشرقت، وأمطرت، وأثمرت، العلوم كلّها قطرة من بحره، الحكم كلّها غرفة من نهره، الأزمان كلّها ساعة من دهره، الحقّ به، وبه الحقيقة هو الأوّل في الوصلة، هو الآخر في النّبوّة، والباطن بالحقيقة، والظّاهر بالمعرفة، ما وصل إلى علمه عالم، لا اطّلع على فهمه حاكم، الحقّ ما أسلمه إلى خلقه؛ لأنّه هو، وأنّى هو، وهو هو، ما خرج عن ميم (محمّد)، وما دخل في حائه أحد، حاؤه ميم ثانية، والدّال ميم أوّله، دالّه دوامه، ميمه محلّه، حاؤه حاله، حاله ميم ثانية، أظهر مقاله، أبرز أعلامه، أشاع برهانه، أنزل فرقانه، أطلق لسانه، أشرق جنانه، أعجز أقرانه، أثبت بنيانه، رفع شانه. إن هربت من ميادينه فأين السّبيل؟ فلا دليل، يا أيّها العليل، وحكم الحكماء عند حكمته كثيب مهيل.»

وفي الظّلال بين الظّلّ والظّلّ، والأصوات ترتفع وتنخفض، ولا أنيس سوى الشّيخ والجليس، ولا نور إلاّ ما كان من نور يصدر عنهما، فيجلّي الخفاء، خفاء النّفوس والظّلمات الدّاجيات، وعلى ذبالة نور قرأ، خيّل إليه على حائط خارج الظّلال، «الحلاّج، حلاّج القلوب والنّفوس، ومجلّي كدوراتها، القائل بالحقّ، العالم بأسرار الأرواح، من خالف الزّمان إلى مابعد الزّمان، وأوجد مخرجا من المكان خارج المكان، أبو

المغيث الحسين بن منصور، بيضاء فارس مسكنه، وبواسط العراق محلّه... صحب السّادة والمشايخ أهل الأحوال، الجنيد، وأبا الحسن النّوريّ، وعمرا المكّي، والفوطيّ، وغيرهم من أفاضل زمانهم... والمشايخ فى أمره مختلفون. ردّه أكثر المشايخ، ونفوه، وأبوا أن يكون له قدم فى التّصوّف. وقبله من جملتهم أبو العبّاس بن عطاء؛ وأبو عبد اللّه، محمّد خفيف؛ وأبو القاسم، إبرهيم بن محمّد نصر أبادي؛ وأثنوا عليه، وصحّحوا له حاله، وحكوا عنه كلامه، وجعلوه أحد المحقّقين؛ حتّى قال محمّد بن خفيف: «الحسين بن منصور عالم ربّانىّ.» قتل ببغداد بباب الطّاق، يوم الثّلاثاء، لستّ بقين لذي القعدة، سنة تسع وثلثمائة.***

١ - سمعت عبد الواحد بن بكر، يقول: سمعت أحمد بن فارس، يقول: سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((حجبهم بالاسم فعاشوا؛ ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا؛ ولو كشف لهم الحجاب عن الحقيقة لماتوا)). ٢ - قال، وكان الحلاّج، يقول: ((إلهى! أنت تعلم عجزى عن مواضع شكرك، فاشكر نفسك عنّى، فإنّه الشّكر لاغير)). ٣ - قال، وسمعت الحلاّج، يقول: ((من لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له؛ ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال)). ٤ - وسمعت عبد الواحد، يقول: سمعت أحمد بن فارس، يقول: سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((أسماء اللّه تعالى، من حيث الإدراك إسم؛ ومن حيث الحقّ حقيقة)). ٥ - قال، وسمعت الحسين ، يقول: ((خاطر الحقّ هو الّذى لايعارضه شيء)). ٦ - قال، وسمعت الحسين، يقول: ((إذا تخلّص العبد إلى مقام المعرفة أوحى اللّه تعالى إليه بخاطره، وحرس سرّه أن يسنح فيه خاطر غير الحقّ)). ٧ - قال، وسئل الحسين: ((لم طمع موسى - عليه السّلام - فى الرّؤية وسألها؟)). فقال: ((لأنّه انفرد للحقّ، وانفرد الحقّ به، فى جميع معانيه. وصار الحقّ مواجهه فى كلّ منظور إليه، ومقابله دون كلّ محظور لديه؛ على

الكشف الظّاهر إليه، لا على التّغيّب: فذلك الّذي حمله على سؤال الرّؤية لاغير)). ٨ - سمعت أبا الحسين الفارسيّ، قال: أنشدنى ابن فاتك، للحسين ابن منصور: أنت بين الشّغاف والقلب تجرى مثل جري الدّموع من أجفانى وتحلّ الضّمير، جوف فؤادي كحلول الأرواح فى الأبدان ليس من ساكن تحرّك إلاّ أنت حرّكته. خفي المكان ياهلالاً، بدا لأربع عشر لثمان، وأربع، وثنتان)). ٩ - سمعت عبد الواحد السّياريّ، يقول: سمعت فارسا البغداديّ، يقول: سألت الحسين بن منصور عن المريد، فقال: ((هو الرّامي بقصده إلى اللّه عزّ وجلّ: فلا يعرج حتّى يصل)). ١٠ - وبه قال: سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((المريد الخارج عن أسباب الدّارين، أثرة بذلك على أهلها)). ١١ - سمعت محمّد بن محمّد بن غالب، يقول: قال الحسين بن منصور: ((إنّ الأنبياء - عليهم السّلام - سلّطوا على الأحوال، فملكوها، فهم يصرّفونها، لا الأحوال تصرّفهم. وغيرهم سلّطت عليهم الأحوال، فالأحوال تصرّفهم، لاهم يصرّفون الأحوال)). ١٢ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور يقول: ((الحقّ هو المقصود إليه[بالعبادات، والمصمود إليه] بالطّاعات، لايشهد بغيره، ولا يدرك بسواه. بروائح مراعاته تقوم الصّفات، وبالجمع إليه تدرك الرّاحات)). ١٣ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((لايجوز لمن يرى أحدا، أو يذكر أحدا، أن يقول: إنّى عرفت الأحد، الّذى ظهرت من الآحاد)). ١٤ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((ألسنة مستنطقات، تحت نطقها مستهلكات. وأنفس مستعملات تحت استعمالها مستهلكات)). ١٥ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((حياء الرّبّ أزال عن قلوب أوليائه سرور المنّة: بل حياء الطّاعة أزال عن قلوب اوليائه شهود سرور الطّاعة)). ١٦ - وبه قال، أنشدت للحسين بن منصور: ((مواجيد حقّ، أوجد الحقّ كلّها وإن عجزت عنها فهوم الأفكار وما الوجد إلاّ خطرة، ثمّ نظرة تثير لهيبا بين تلك السّرائر إذا سكن الحقّ

السّريرة ضوعفت ثلاثة أحوال، لأهل البصائروحال به رمت ذرى السّرّ فانثنت إلى منظر أفناه عن كلّ ناظر)). ١٧ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((من أسكرته أنوار التّوحيد، حجنته عن عبادة التّجريد؛ بل من أسكرته أنوار التّجريد، نطق عن حقائق التّوحيد؛ لأنّ السّكران هو الّذى ينطق بكلّ مكتوم)). ١٨ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((من التمس الحقّ بنور الإيمان، كان كمن طلب الشّمس بنور الكواكب)) - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول لرجل من أصحاب الجبّائيّ: ((لمّا كان اللّه تعالى أوجد الأجسام بلا علّة، كذلك أوجد فيها صفاتها بلا علّة. وكما لايملك العبد أصل فعله، كذلك لايملك فعله)). ٢٠ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((ما انفصلت البشريّة عنه، ولا اتّصلت به)).» وهو لا يريد أن يتحدّث عن نفسه، ويتحدّث بلسان من لزمه قربه، ومن لم تجافه مجالسته، وكان في قربه بعد، وفي بعده قرب، وأسرار القلوب لا تحدّها الحدود، ولأنّه عرف فقد تجافى وابتعد، وظنّه من لم يعرف جاهلا قد تسربل في ظنونه، وفي مجافاته قد احتجنه جنونه. فقارق ولم يقارب؛ وكان الوحيد في جماعة، وخارج الجماعة، وأغروا به فنابذوه، وأوغروا صدور الخلق عليه فناكفوه؛ ورغم وحدانيّته فقد كان قريبا، وكان للحقّ نسيبا، فلم يلهه بغض الخلق عن الغرق في بحار الشّوق، ولم يلهه غباره عن دثاره، ولا أوظاره عن أذكاره، وكان يتكلّم بغير لسان، وإذا أشار فإنّما كانت إشارته بالبنان، فيعرف من عرف عنه، أنّه كان بالجنان أهيب، وفي وضع الفرديّة أصوب، فقال، ولم يقل، وأفهم ولم يفهم، وكان النّاس في أمره شذر مذر، بين مشفق شفيق، وبين مبغض لا يرضيه من أمره إلاّ أن يورده موارد الهلكة... وتطلّع إلى القادم من أرض النّور، وهو نور، ورغم الحداثة في طريق السّلوك كان قد عرف أشياء كثيرة من مخاطر الطّريق، ومن خطرات القلوب، وغيره كان رأى آخرين، وعرف من أحوالهم، والتبس بلباسهم، وصار واحدا من

جملة من حضر، وواحدا من جملة من غاب فكان حاضرا؛ وأشار إليه ليفهمه، ومن ثمّ أشار إلى جوار المباعدة في الزّمان، والمساكنة في تلافيف المكان، فكان في زيّ اليفاعة، مع شيخ من الشّيوخ، في بغداد أو واسط، أو الكوفة، أو البصرة، ولم يكن من أمر الأسماء ما يهمّ سوى أنّ يظلّ أثرا لمن ضيّع، أو علامة لمن رام الرّؤية بالعين الّتي هي خلاف رؤيا القلب بغير بصر النّاظرة، وهي العين... وكان رأى، وكان يرى بعد أن رأى، ولم تفارقه مرائيه، وكان يجد منها همّ المهمومين، وضنك المشرفين على الموت، وحاول أن ينسى أنّه ابتلي بالرّؤيا، فجاء الشّيخ، جانبه قليلا، وجلس منه على مبعدة... كان الشّيخ يراه في غير حاله، وعلم من أمره شيئا يسيرا فأمسك، وترك له أن يفصح.

قال:

-رأيت، يا شيخي؛ فماذا أفعل؟

أجابه شيخه،

-اكتم ما وسعك الإمكان.

قال:

- لقد كتمت فما وسعني الكتمان؛ فماذا أفعل، يا شيخي؟

قال الشّيخ:

- اكتم. إنّ أمرك ليس ممّا تتّسع له الصّدور، وتنفتح له أذهان النّاس فيفهمونه؛ ولو سمعه سامع منك لحرّض عليك؛ ولسبقتك العامّة قبل الخاصّة إلى الوثوب بك؛ وأنت وحيد...

قال:

- إنّي لست وحيدا. معي الله.

قال الشّيخ:

-ونعم بالله؛ ولكنّك ستكون في مقام البلاء... وستكون في مقام الابتلاء...

كان صدره يمور، وكان تقاطبه الكثير من الأمور، واستحال إلى

كلام من غير كلام، ورام أن يكتم، أن يترك الصّوت حبيسا ، فجاش باطنه، واستثارته أحزان، ووطّن العزم على الخوض في الغماروتحدّي الأخطار... والشّيخ يرى اليافع الّذي كانه، فتخضلّ لحيته بدموع فرحة علويّة، وهوروح شافّة بعد أن كان جسدا خالصا وكانت الرّوح سجينة فيه، والرّوح اليوم هفهافة، تطير من غير أجنحة، والعين طاقة على ما كان، ولم يكن في الحسبان؛ وقال للنّور، الّذي ما كان نورا، وصار اليوم نورا على نور دون نور الله... وقد قال حين أعجزه الكتمان، وقال أمام شيخه، ما لا يحيط به لسان، قبل أن تتلقّفه الأزقّة والنّواصي، وقبل أن يسافر إلى بلدان وراءها بلدان، وهو المقيم الظّاعن الّذي لم يسافر... وتفكّر الجالس قبالته على مبعدة يسيرة وذكر لقاءه مع العدويّة، وكيف أسرته بشعرها وكلامها، وكيف كان يصغي إليها، وهو يريد أن يتعلّم، يريد أن يخطو أولى خطوات على الدّرب الّذي يضيق إلاّ على السّالكين، الواصلين من أهل الله؛ وبينما ذكراه تحمله إلى الأقاصي، كان شيخه الجديد يتطّلع ببصر حديد كأنّه يرى الأمور عيانا بيانا، وبإشارة جديدة من يده كان يريه مقامات الوقوف، في ذلك المكان الّذي ربّما كان واسط أو بغداد، أو البصرة أو الكوفة، وكان اليافع يقول شعرا، وكأنّه يلفظ مع كلّ كلمة أو حرف فلذة من كبده:

(والله ما طلعت شمس ولا غربت*إلاّ وحبّك مقرون بأنفاسي/ ولا جلست إلى قوم أحدّثهم*إلاّ وأنت حديثي بين جلاّسي/ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا*إلاّ وأنتَ بقلبي بينَ وَسواسي/ولا هممتُ بشربِ الماء من عطشٍ*إلاّ رأيتُ خيالًا منكَ في الكاسِ/ولو قدرت على الإتيانِ جئتُكُمُ*سعيًا على الوجهِ أو مشيًا على الرّاسِ/ويا فتى الحيِّ إنّ غنَّيتَ لي طربًا*فغَنّني وَاسَفًا من قلبِك القاسي/ما لي وللنّاسِ كم يلحونَني سفهًا*ديني لِنفسي ودينُ النّاس للنّاسِ)

وخرج من مسالك طريق إلى طريق، وامتدّ به الطّريق، وهو يريد أن يفصح، أن يدلّهم عليه بما كان ينشد، لأنّ الكلام لم يعد قادرا على جلاء ما كان بالنّاس محصورا؛ وقال إنّ الحقّ هو غير الحقّ الّذي كانوا يعرفونه، وأنّه جاء إليهم ليعلمهم أنّ الأوان قد حان، وأنّ العيان ليس عيان العين المجرّدة، وأنّ هناك حقيقة أخرى، لا بدّ لمن رام معرفتها أن يجلّي النّفس عن كدوراتها ويرى بعين قلبه، فالقلب موطن الأسرار، ومصدر المواجيد؛ وأوشك أن يقول شيئا، أن يقول لهم كما قال يسوع لمن كان يلتقيهم من حواريه، اتركوا أموالكم، اتركوا كلّ ما تملكون، واتبعوني إلى الملكوت، أحجم لأنّه أحسّ أنّ الأوان لم يحن بعد، ولكنّ الأوان قد آن لهم لأن يصلبوه، لأنّهم أيسوا من مجادلته وخافوا على أنفسهم من حقيقته؛ وكان قال لهم إنّ ما يعبدون ليس ما يعبد، وما يعبدون دنيا زائلة، غرّارة، فمن كان همّه المال اهتمّ به، وترك من هو أهل الهمّة والاهتمام، وقال لهم أفيقوا من غفوتكم، أفيقوا من نومتكم؛ وكان أكثر ما أثقل عليهم منه شعره وشطحاته، وروعاته حين تأخذه السّنة، ويغشى عليه، وكان واضحا أنّ مقامه ليس مقامهم، وأنّهم في وادي، وهو في وادي آخر، على الضّفة الأخرى من الحياة، حياتهم الفانية الزّائلة... وحين يفيق، يقول بعلّو الصّوت فيسمعه القاسي والدّاني، وكأنّه من فلاة يؤذّن لمحشر قريب:

(لبَّيكَ لبَّيكَ يا سرِّي ونجوائي*لبَّيك لبَّيك يا قصدي ومعنائي/أدعوكَ بلْ أنت تدعوني إليك فهلْ*ناديتُ إيّاك أم ناجيتَ إيَّائي/يا عين عين وجودي يا مدى هممي*يا منطقي وعباراتي وإيمائي/يا كلَّ كلِّي يا سمعي ويا بصري*يا جملتي وتباعيضي وأجزائي/يا كلَّ كلِّي وكلَّ الكلِّ ملتبس*وكلّ كلِّك ملبوس بمعنائي/يا من به عُلقَتْ روحي فقد تلفت*وجدًا فصرتَ رهينًا تحت أهوائي/أبكي على شجني من فرقتي وطني*طوعًا ويسعدني بالنّوحِ أعدائي/أدنو فيبعدني خوف فيقلقني*

شوقٌ تمكَّن في مكنونِ أحشائي/فكيف أصنع في حبٍّ كلِفْتُ به*مولاي قد ملَّ من سقمي أطبَّائي/قالوا: تداوَ به منه، فقلت لهم: يا قوم هل يتداوى الدّاء بالدائي/حبِّي لمولاي أضناني وأسقمني*فكيف أشكو إلى مولاي مولائي!)

وجاءه الشّيوخ، أصحاب العمائم، وتقاطروا عليه من كلّ حدب وصوب، وتركوا حلقات درسهم، وكتبهم، وأضابيرهم، وأنهوا صلاتهم على عجل، واصطحبوا معهم العامّة، وكانوا قد أزمعوا صلبه في ذلك اليوم؛ وخلال أيّام كان الحاضر ينذر الغائب، وعلم الجميع أنّه على مفارقتهم مقيم، ولم يفهموا منطقه، وحسبوه يجدّف، وقالوا إنّه ترك المحجّة، وترك الملّة، واستفتوا فجاءت الفتيا بفعل الأفاعيل به، وجاوزوا قليلا ما سنّه الشّرع في ذلك... وقالت طائفة: «نفعل به ما ذكر الله في كتابه في حدّ المفسد في الأرض.» وفتح أحدهم الكتاب الشّريف الّذي كان بين يديه، فتحه على سورة المائدة، وقرأ: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [٣٣].» واستدرك عليهم أحدهم فقال: «نستتيبه، فقد قال الله تعالى بعد تلك الآية مباشرة: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٤].»

قالوا له يريدون تخويفه من الموت:

- تب إلى الله. اشتر حياتك بالتّوبة قبل فوات الأوان.

قال:

- حبيبي أدرى بحالي.

قال أحدهم مستهجنا:

- ومن حبيبك؟

فأجابه واحد منهم:

- يعني الله.

قال شيخ معمّم:

- الكافر، ويتقوّل على الله أيضا. فمتى كان الله حبيبا لأحد؟...

فقاطعه شيخ آخر كان يقف إلى جانبه، وتعمّد أن يسرّ إليه وأن لا يسمعه الآخرون، فقد أراد ان يلفت نظره إلى شيء موجود في كتاب الله وذكره الله في سورة آل عمران يؤكّد أنّه لا غضاضة في أن يحبّ الله عباده وأن يحبّهم وأن يحضّهم على محبّته ومحبّة رسوله:

- يا شيخ إذا كان يعني ذلك فلا ضرر منه فالله تعالى يقول: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) .»

تراجع الشّيخ قليلا، غير أنّه ظلّ على رأيه في استتابته:

- تب إلى الله... قل إنّي أبرأ إليه ممّا أقول.

قال:

- المحبّون لا يتراجعون عن حبّ من يحبّون؛ فإذا كان ثمن حبّهم الموت فمرحى مرحى...

وقال أناس ممّن حضر محاكمته، وكانوا لا يريدون أن يتحمّلوا جريرة إهداردمه:

- فلنكتف بتعزيره... فلندرأ حدّ موته بشبهة أنّه التاث، وأنّه ليس في وعيه وهو يقول على الله ما يقول...

ولكنّ أصحاب العمائم كانوا يصرّون على قتله، على كتم صوته، على قتل الشّعر فيه، لأنّ شعره كان يحمل شيئا لا يفهمونه، ربّما كان الله هناك، وهم لا يريدون أن يروا الله في شعر المحبّين، لأنّهم طوال حياتهم كانوا يحاربون الشّعراء؛ والله الّذي أنزل فيهم ما أنزل لا يمكن لأيّ مجدّف أن يقحمه في أبيات الشّعر كما تقحم الجمل الاعتراضيّة الاعتباطيّة في الجمل المفيدة؛ ومازالوا يقرأون، ويجلدون أسماع معارضيهم بالآية تلو الآية من سورة الشّعراء... «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ

الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) .» (غير أنّ أحدا منهم وإن كان يتلو بقيّة الآيات في سرّه وجهره، وصلاته، وقيامه وقعوده، لم يفطن إلى الاستثناء الّذي ذكره الله؛ وقد كان فريق من الصّحابة الكرام فيهم من هو شاعر قد اهتمّ لتلك الآيات وخاف من عذاب الله حين أنزل ما أنزل فسألوا الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم فطمأنهم وأخبرهم أنّ الشّعر ليس كلّه سواء فمن رام فيه القصد ونافح فيه عن الدّين كما كان حسّان ابن ثابت . رضي الله عنه . يفعل فلا خوف عليه من ذلك؛ ونزل جبريل الأمين ببقيّة الآيات، فكانت بردا وسلاما على الشّعراء من أصحاب النّبيّ؛ ومازالت الآيات تتلى وتتردّد، وفيها طمأنة وسكينة، وفيها إقرار من الله تعالى وهو يقول: «إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.»

وأخذوه... قطعوا يده اليمنى، وهو يترنّم ويقول:

(عجبتُ منك ومنّي*يا مُنْيةَ المُتَمَنّي/أدنيتَني منك حتّى*ظننتُ أنَّك أنِّي/وغبتُ في الوجد حتَّى*أفنيتني بك عنِّي/يا نعمتي في حياتي*وراحتي بعد دفني/ما لي بغيرك أُنسٌ*من حيث خوفي وأمني/يا من رياض معانيه*قد حوت كلّ فنِّي/وإن تمنيْت شيْئًا*فأنتَ كلُّ التّمنِّي)

وأخذوه ثانية فقطعو يده اليسرى، وهو يترنّم أيضا. كان مع مولاه، ولمولاه، وهو يعلم أنّهم سيقتلون فيه جسدا لطالما سجن روحه الّتي ما فتئت تتمرّد، تريد أن تفارق سجنها إلى الأعالي، إلى الأقاصي الّتي لا يعلم مداها إلاّ من أحبّ بشوق، أحبّ بحرقة، أحبّ بصدود، وأحبّ بقرب، وأحبّ في البعد، وهو الدّائم الاتّصال، ودائم الانفصال، وهو القريب البعيد، المتباعد المتداني، الّذي يدرك الحدود ولا تدركه الحدود... وكان يترنّم ويقول، والشّيخ الّذي كان جالسا على مبعدة يري

النّور صاحب النّور ما كان يقول:

(أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا*نحن روحانِ حَلَلْنا بَدَنا/فإذا أبصرتَني أبصرتَه*وإذا أبصرتَه كان أنا/روحُه روحي وروحي روحُهُ*مَن رأى روحيْنِ حَلّا بدنَا)

وأخذوه مرّة ثالثة... أخذوه أمام الملأ، إلى طرف قصيّ من أطراف المدينة، أطراف بغداد الّتي ما ضاقت يوما بالوافدين عليها، وقد ضاقت اليوم بأحد أبنائها، وهو يحمل ليصلب، وقبل صلبه، يقطعون فيه كلّ شيء يمكن أن يقطع؛ وقطعوا هذه المرّة رجله اليمنى، فما أحسّ شيئا، ولم يتأثّر بألم البتر، وكأنّ الجسد الّذي يقطّع هو جسد لرجل آخر، أو لكائن آخر، ولم يبق فيه شيء كان يشعر أنّه منه، ولا يمكن أن ينفصل عنه غير لسانه، وهو يترنّم، وهو يشدو، وهو لا يتوقّف عن التّغبير، فكان النّاس من حوله يسمعون ولا يفهمون، ولم يحضر محنته من أصحابه وخلاّنه وأهل مودّته إلاّ القليل، وهؤلاء وحدهم كانوا يفهمون عنه، ولا يدرون أيبكون أم يضحكون، يبكون لأنّهم لم يروا أحدا فعل به كما يفعل الآن بسيّدهم، بشيخهم، ويضحكون لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّه يرحل إلى عالم غير عالمهم، إلى أرض تنعدم فيها العوارض، ولا تبقى من الإنسان سوى جواهره الّتي لا يحتويها وعاء، وتظلّ تسافر من سماء إلى سماء؛ وكانوا ينظرون إليه، وتمنّوا لو كانوا معه، أو كانوا مكانه، وهو يقول:

(يا موضع النّاظر من ناظري*ويا مكان السّرّ من خاطري/يا جملة الكلّ الّتي كلّها*أحبّ من بعضي ومن سائري**سكوتٌ ثمّ صمتٌ ثمّ خَرَسُ*وعِلْمٌ ثم وَجْدٌ ثم رَمْس/و طينٌ ثم نارٌ ثمّ نورٌ*و بردٌ ثمّ ظلّ ثمّ شمس**مَن سارروه فأبدى كلّما ستروا*ولم يراع اتّصالاًكان غَشَّاشا/إذا النّفوس أذاعت سرّما علمت*فكلّ ما خلت من عقلها حاشا**أَنْعَى إليك نفوسا طاح شاهدُها*فيما وراء الحيثِ يَلْقَى شاهد القِدَم/أنْعي إليك قلوباً طالما هَطَلَتْ*سحائبُ الوحي فيها أبْحُر الحكم**أشار لحظي

بعين علِم*بخالصٍ من خِفّي وَهْم/و لائحٌ لاح في ضميري*أدقّ من فهم وهم همّي**لم يبق بيني وبين الحقّ تِبْيَاني*ولا دليل ولا آيات برهان/هذا تجلّي طلوعِ الحقّ ِ نائرةً*قد أَزْهَرَتْ في تلألئها بسلطان**عجبتُ منك و منّي*يا مُنْيَةَ المُتَمَنّي/أدنيتَني منك حتّى*ظننتُ أنّك أنّي**آقْتُلوني يا ثقاتي*إنّ في قتْلي حياتي/ومماتي في حياتي*و حياتي في مماتي**إذا دهمَتْك خيول البعاد*ونادى الإياس بقطع الرّجا/فخُذْ في شمالك ترس الخضوعِ*و شُدّ اليمين بسيف البكا**و أيّ أرض تخلو منك حتّى*تعالوا يطلبونك في السّماء/تراهم ينظرون إليك جهرا*وهم لا يبصرون من العماء**و أَطْلُبُ منك الفضل من غير رغبةٍ*فلم أر قبلي زاهدا فيك راغب/كَفَى حَزَناً أنّي أُناديك دائما*كأنّي بعيدٌ أو كأنّك غائب**سرّ السّرائر مَطْوِيٌّ بإثْبَات*في جانب الأُفْق ِمن نور بِطيَّات/ فكيف والكيف معروف بظاهره*فالغيب باطنه للذّاتِ بالذّات**أنتم ملكتم فؤادي*فهِمْت في كلّ وادي/ودقّ عليّ فؤادي*فقد عدمت رقادي**الحبّ ما دام مكتوماً على خطرٍ*وغاية الأمْنِ أن تدنو من الحذر/و أطيب الحبّ ما نمّ الحديث به*كالنّار لا تأتِ نفعاً وهي في الحجر**فيا من بات يخلو بالمعاصي*وعين الله شاهدة تراه/أتطمع أن تنال العفو ممّا*عصمتَ وأنت لم تطلب رضاه**كانت لقلبي أهواءٌ مفرّقة*فاستجمعَتْ مُذْ راءَتْك العين أهوائي/فصار يحسدني من كنت أحسده*وصرتُ مولى الورى مُذْ صرتَ مولائي**حقيقة الحقّ مُسْتنِيَر*صارخه بالنّبإ خبير/حقيقة الحقّ ِقد تجلّتْ*مَطْلب من رامها عسير**أنت المُوَلِّهُ لي لا الذّكر ولَّهني*حاشا لقلبي أَنْ يَعْلَق به ذِكَري*الذكر واسطةٌ تُخْفِيك عن نظري*إذا توشَّحَهُ من خاطري فكري)

أرادوا أن يضعوا شيئا على فمه، أن يكمّموه، أن يسكتوا صوته، الّذي كان كأنّه يخرج ليس من جوفه ولكن يأتي من أمكنة وزوايا

متعدّدة، من الأرض، ومن تحت الأرض، ومن أجواز السّماء العلى؛ وتقدّم رجلان صليبان من أهل القوّة والشّجاعة المعروفين في الكرخ والرّصافة، وأمسكه أحدهم من عضده، وسارع الآخر إلى إغماض عينيه بخرقة سوداء، ثمّ شدّ على حلقه شدّة قويّة وأدخل شيئا مثل الحبل بين شفتيه ولفّه حول رأسه وهو يروم إخماد تلك الأصوات الّتي كانت تأتي من اللاّمكان... ولكن كان صوته يخرج دائما، أقوى من ذي قبل، والشّعر الّذي كان يؤذيهم لم يكن ليتوقّف أبدا؛ ولمّا أعياهم أمره تقدّم منه نفر من النّاس وقطعوا رجله اليسرى، وكان هو أثناء ذلك قد طلّق الأرض مرّة، وإلى الأبد، وكانت روحه الّتي لم تخرج بعد تضطرب بين جنبات جسده، وتريد أن ترفرف، أن تحلّق بعيدا، في حريّة، في الفضاء الرّحب بعيدا عن القهر، والملاحاة، والمظنّة، ووسوسات الشكّ، وخطرات الخوف... وكانت تروم اليقين؛ وكان هو يترنّم... كان ينشد، وهو يعلم أنّه بعد قليل سيفارق، سيغادر هؤلاء إلى أولئك، وسينتبذ ممّن يعذّبونه مكانا قصيّا، فيه من الملذّات أفانين، ومن الصّحبة أجملها، ومن الحديث أمتعه وآثره على النّفس، ومن الحبّ ما مدارجه في العشق والوجد والهيام، ومن النّفس ما شفّت وهفت إلى القربى، ومن المشاعر أجزلها وأوفرها، ومن اليقين أصفاه، ومن القوّة أوثقها، « فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤)»:

(مواجِيدُ حَقّ أَوْجَدَ الحقُّ كلُّها*وإنْ عجزَتْ عنها فهوم الأكابر/وما الوجد إلا خطرة ثم نظرة*تُنَشّي لهيبا بين تلك السّرائر**عَقْدُ النّبوّة مِصْباح من النّور*مُعَلَّقُ الوَحي في مشكاة تأمور/بالله يُنْفَخُ نَفخ الرّوح في جَلَدِي*بخاطري نَفْخَ إسرافيلَ في الصّور**لأنوار نور الدّين في الخلق أنوارُ*وللسّرّ في سرّ المسرّين أسرار/وللكون في الأكوان كون مُكَوّن*يكنُّ له قلبي ويهدي ويختار**سكنتَ قلبي وفيه منك أسرار*فليَهْنِك الدّار

بلْ فليهنك الجارُ/ما فيه غيرك من سرٍّ عَلِمْتُ به*فانْظُرْ بعينك هل في الدّار ديّار**غِبْتَ وما غبتَ عن ضميري*وصرْتَ فرحتي وسروري/ وانفصل الفصل بافتراق*فصار في غيبتي حضوري**يا شمس يا بدر يا نهار*أنت لنا جنّة و نار/تَجنُّبُ الإثِم فيك ثمّ إثمٌ*وخاصّية العارفيك عار)

وأخذوه، وكان الجمع من حوله محتشد، والكلّ بين مهلّل ومكبّر، وصلبوه على جذع نخلة، وطرحوا ذلك الجذع على أحد مداخل بغداد، وتركوه هناك ثلاثة أيّام بلياليها؛ وكان الّذين يمرّون عليه في صباحهم ومسائهم يقولون: «عمّا قريب ستفوح رائحة جثّته الكريهة، عمّا قليل سينتشر وباء عفونته، عمّا قليل سيأتي جنود الخليفة وينزلونه ثمّ يرمونه في حفرة مهجورة ويهيلون عليه التّراب...!!»

وقال الشّيخ الّذي مات للنّور الّذي كان يجلس قبالته، ولم يعد جسدا وإن كان طاجيك يراه الآن مكتمل الهيئة سليم الأعضاء والجوارح:

- لقد خاب ظنّهم، لأنّي لم أكن أتاجر مع الشّيطان، و قلبي كان متعلّقا بالله...

ثمّ صمت مليّا وأشار إلى ألواح كانت تلوح على البعد عليها قراءة لم يميّزها طاجيك، وقرأ فخرج صوته كما كان يخرج في تلك الأيّام بردا وسلاما على من يحبّه ونقمة على الّذين كانوا يبغضونه ويكرهون شعره:

- كانت بدل الرّائحة الّتي كانوا يؤمّلونها رائحة المسك ورائحة العنبر وروائح أخرى لم يشمّ أهل بغداد مثلها؛ وبلغ الأمر الخليفة وأصحاب العمائم فخافوا الفتنة، وكان يحزنهم أن أتحوّل عند العامّة إلى شهيد من شهداء الحقّ: فجاء الجنود ليلا وأنزلوا تلك الجثّة الّتي ظنّوا أنّها جثّتي وأخفوها في مكان لا يعلمه غيرهم .

سمع طاجيك بدر النّور وهو يقول للشّيخ الّذي كانت أنواره تحفّه:

- فجثّة من كانت تلك الجثّة؟

قال الشّيخ:

- كانت تلك جثّة الفاني الأوّل.

ولم يزد على ذلك.

سأله بدر النّور مرّة ثانية:

- وهل هناك فان آخر غير الّذي يعرفه كلّ النّاس؟

قال الشّيخ:

- هناك فاني الدّنيا.

قال الجالس قبالته:

- وهذا نعرفه، يا شيخي؛ فمن يكون الفاني الثّاني؟

قال الشّيخ، وكانت الألواح الّتي يقرأ منها تتّضح شيئا فشيئا:

- إنّ الفاني الثّاني هو فاني الحقّ؛ إنّه فاني العشق... وفاني الدّنيا قد ذهب، وأخفوه، وفاني الحقّ حملته روحه إلى أشواقه ومنبع مساراته...

وكانت الألواح تتلو الألواح، وكانا وهما يجلسان أحدهما قبالة الآخر كأنّما وجدا هناك ليشهداه، هو النّائم أو اليقظان، أو في مقام بين بين بينهما... وبدا له أنّه يسمع صوتا يناديه، وكان صوت أشبه بالمناجاة: «طاجيك... طاجيك، يا ابن لامار!» التفت لاإراديّا ناحية مصدر الصّوت فوجد النّور الّذي كان يلاحقه، كان يطارده منذ أيّام، ومن مكان إلى مكان، وحال بينه وبين من يحبّ. حال بينه وبين أشواق قلبه؛ وربّما حدس ذلك النّور . الّذي كان شيخه أو شيخ بدر النّور أو شيخهما معا، لأنّ الّذي كان يريه ما يرى لم يقل له إن كان هو هو أو هو آخر، إن كان هو بدر النّور، أو طاجيك الّذي اشتراه سيّده، وكان أسره الأعداء فأتوا به إلى بغداد بعد أن تخلّصوا من عائلته وفرّقوا بينه وبينها: «طاجيك، يا ولدي، لا أريدك أن تحقد عليّ؛ ولا يذهبنّ في خلدك

أنّي حرمتك وحلت بينك وبين قوت القلوب: هناك أشياء ستفهمها في حينها، وأنا عبد مأمور أتيت لأوقظك من سبات ولأطلعك على ما لم يحط به الآخرون... إنّك، يا ولدي، تتقلّب في مجاز المقامات والأحوال: والأحوال والمقامات لا تنضبط بوقت أو بمكان، لأنّها، يا ولدي، في كلّ زمان ومكان...!!»

وقال له:

- انظر!!

ونظر طاجيك إلى حيث أشار له أن ينظر، فقرأ على نور من فوقه نور ومن تحته نور وعلى شماله نور وعلى يمينه نور، ومن بين يديه نور ومن خلفه نور، ومن تحته نور ومن فوقه نور: «أفهام الخلائق لا تتعلّق بالحقيقة، والحقيقة لا تتعلّق بالخليقة. الخواطر علائق، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق، والإدراك إلى علم الحقيقة صعب، فكيف إلى حقيقة الحقيقة؟ الحقّ وراء الحقيقة، والحقيقة دون الحقّ. الفراش يطير حول المصباح إلى الصّباح، ويعود إلى الأشكال، فيخبرهم عن الحال، بألطف مقال، ثمّ يمرح بالدّلال، طمعا في الوصول إلى الكمال، ضوء المصباح علم الحقيقة، وحرارته علم الحقيقة، والوصول إليه حقّ الحقيقة، لم يرض بضوئه وحرارته، فيلقي جملته فيه، والأشكال ينتظرون قدومه، فيخبرهم عن النّظر، حين لم يرض بالخبر، فحينئذ، يصير متلاشيا متصاغرا متطائرا، فيبقى بلا رسم ولا جسم وإسم ووسم، فلأيّ معنى يعود إلى الأشكال؟ وبأيّ حال بعد ما حاز؟ صار من وصل إلى النّظر، استغنى عن الخبر، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النّظر. لا تصحّح هذه المعاني للمتواني، ولا الفاني، ولا الجاني، ولا لمن يطلب الأماني، كأنّي كأنّي، وكأنّي هو، أو أنّي، لا توق عنّي، إن كنت أنّي. يا أيّها الظّانّ، لا تحسب أنّي أنا الآن، أو يكون أو كان، (يا ربّ لا تظنّ أنّني أنا، أو أكون، أو كنت، إلاّ أنّني العارف المتجلّد، وهذا هو حالي غير نزيه، إن كنت له، ليس أنا هو). إن كنت

تفهم فأفهم، ما صحّت هذه المعاني لأحد سوى أحمد («ما كان محمّد أبا أحد»)... إلى النّبيّين، وغاب عن الثّقلين، وغمض العين عن الأين حتّى لم يبق له رين ولا مين، فكان قاب قوسين، حين وصل إلى مفرزة علم الحقيقة أخبر عن الفؤاد وخبر؛ ولمّا وصل إلى حقّ الحقيقة ترك المراد، واستسلم للجواد، وحين وصل إلى الحقّ عاد فقال: (سجد لك سوادي، وآمن بك فؤادي)، لمّا وصل إلى غاية الغايات قال: (لا أحصي ثناء عليك)، وحين وصل إلى حقيقة الحقيقة قال: (أنت كما أثنيت على نفسك). جحد الهوى فلحق المنى: (ما كذب الفؤاد ما رأى) عند سدرة المنتهى، ما التفت يمينا إلى الحقيقة، ولا شمالا إلى حقيقة الحقيقة: (ما زاغ البصر وما طغى).»

وقال له النّور الّذي هو شيخه؛ وكانت ما تزال الألواح تتواتر بين يديه في نورها، فكان نورها كأنّه نوره ونوره هو نورها:

- أنظر، يا ولدي!

ونظر حيث أشار له أن ينظر، فكان ذلك النّور الآخر هناك، وهو يقرأ لبدر النّور الّذي كان يجلس قبالته: «الحقيقة دقيقة، طرقها مضيقة، فيها نيران شهيقة، ودونها مفاوز عميقة. الغريب سلكها، يخبر عن قطع مقام الأربعين مثل: مقام الآدب، والرّهب، والسّبب، والطّلب، والعجب، والعطب، والطّرب، والشّره، والنّزه، والصّفاء، والصّدق، والرّفق، والعتق، والتّسويح، والتّرويح، والتّماني، والشّهود، والوجود، والعدّ، والكدّ، والرّدّ، والامتداد، والاعتداد، والانفراد، والانقياد، والمراد، والشّهود، والحضور، والرّياضة، والحياطة، والافتقاد والاصطلاد، والتّدبّر، والتّحيّر، والتّفكّر، والتّصبّر، والتّغيّر، والرّفض، ، والنّقض، والرّعاية، والهداية، والبداية، فهي مقام أهل الصّفاء والصّفويّة. ولكلّ مقام معلوم مفهوم وغير مفهوم. ثمّ دخل على المفازة وحازها، ثمّ جازها، فما لأهل المهل من السّهل والجبل: «فلمّا قضى موسى الأجل» ترك الأهل حين صار للحقيقة أهلا ومع ذلك رضي بالخبر

دون النّظر، ليكون فرقا بينه وبين خبر البشر، فقال: لعلّي آتيكم منها بخبر فإذا رضي المهتدي بالخبر، فكيف لا يكون المقتدي على الأثر؟ من الشّجرة من جانب الطّور ما سمع من شجرة، ما سمع من برزه ومثلي مثل تلك الشّجره، هذا كلامه. فالحقيقة، والحقيقة خليقة، دع الخليقة لتكون أنت هو، أو هو أنت من حيث الحقيقة؛ لأنّي واصف، والموصوف واصف، والواصف بالحقيقة، فكيف الموصوف؟ فقال له الحقّ: «أنت تهدي إلى الدّليل، لا إلى المدلول، وأنا دليل الدّليل: صيّرني الحقّ بالحقيقه/هناك سرّي وذي الطّريقه*شاهد سرّي بلا ضميري/ هناك سرّي وذي الطّريقه* قال الحقّ: وحدّثني عن قلبي، ومن علم بلساني، وقرّبني له بعد بعدي وجعلني من الخواصّ واصطفاني.»

وقال له:

- انظر.

فكان ينظر ويقرأ من الألواح.

وقال له:

- انظر.

فينظر، وكان في الألواح عجب من الأعاجيب: وكانت أنوار، وما كانت الأنوار الّتي ظلّ يراها في دنيا الفانين هي أنوار الأنوار الّتي يراها الآن، وقد استحالت كلاما لم يسمع به من قبل، ولا تعلّمه في مجالس علمه ببغداد؛ وتساءل بينه وبين نفسه: «أين كان هذا النّور على أفواه الّذين يراهم الآن أمامه؟» ورأى أيضا ما لم يكن رآه في حياته، وطويت له الأزمنة، وأزمنة الأزمنة، ورأى العدويّة، وأبا المغيث، والنّفّريّ، وأبا يزيد البسطاميّ، وأبا القاسم الجنيد، والشّبليّ، وغيرهم من الأصفياء الأنقياء؛ وقد شهد أيضا صلب من صلب، وشهد مشهد من كان قتل؛ وكان يتعلّم وهو ينظر؛ وتساءل عن النّور الّذي كان هو بدر: «كيف خرج؟ ومتى خرج؟ ومن أخرجه؟» ورأى في لحظة من اللّحظات شيئا لم يكن يعرفه أيضا، وتراءت له العتبة الخضراء، ومقام الشّهيد سيّد

الشّهداء رضي الله عنه أبي عبد الله الحسين بن عليّ وابن الزّهراء رضي الله عنهما، وسبط النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ ورأى مقام السّيّدة زينب، ومقام السّيّدة نفيسة؛ والتبست الحقائق في ذهنه؛ وبدا له أنّ الزّمان لم يعد أزمنة زمانا زمانا، وأنّ الأماكن متعدّدة في واحد، وهي واحد؛ وتساءل أيضا عن الحقيقة، وكانت الحقيقة من قبل في ذهنه أواحد حقيقة وحقيقة وحقيقة . أي أنّ الحقيقة كانت من قبل حقائق؛ وانقلبت الآن إلى حقيقة واحدة أزليّة، وهي ليست الحقيقة الّتي كان يعرفها... واختلطت عليه الأمور، وهو بين بين، بين يقظة ومنام، وبين إقدام وإحجام، وانشطاروانسجام، ووقوف وقيام، ومظنّة وإيقان؛ وكان النّور هناك، ينظر إليه ولا يتعجّب، وكأنه يعرف أمره من مبدئه إلى منتهاه، ويريد أن يريه فوق ما رأى في دنيا الفانين حقائق الواصلين السّالكين ليتعلّم، أوربّما ليعود إلى الأصل الّذي كان عليه، ويلتبس بشبيهه، أوالّذي كان هو هو، بدرالنّور؛ فإذا كان هو هو، ذلك القائم قبالة الشّيخ الآخر، على ضفاف الحياة الأخرى، فما نفع الأسئلة الّتي كان سألها من قبل؟ وهل كان وهو يتصوّر أنّه يعرف لم يكن يعرف؟ وأنّ الّذي كانه كان مجرّد وهم من الأوهام، وأنّ الحقيقة هي غير الحقيقة الّتي كان يعرفها؟ وأنّه كان في زمان غير الزّمان الّذي كان يجب عليه أن يكون فيه، وفي مكان غير مكانه؟ وهو وإن كان اليوم انشطارفهو التئام في الّذي كان يراه على مبعدة منه، وهو هو، وأجزاؤه أجزاؤه وجوارحه جوارحه؛ وكانا كأنّما يتعلّمان في التّخاطر وإن كانا واحدا؛ فالسّفر لمن كان مقدّرا له أن يسافر في حاجة إلى رفيق طريق، فإذا اكتمل الطّريق رجعت العناصر إلى بعضها، وارتدّت الفروع إلى أصولها، والأشباه إلى حقائقها.

وقال له نور الشّيخ الّذي كان رآه في محنة زواجه:

.انظر، يا ولدي!

ونظر حيث أشار له أن ينظر فرأى لوحة أخرى من الألواح، وقد

انفصلت عن أخواتها، وقاربته ودانته حتّى كانت في مرمى عينيه تماما، وهي تشعّ بالكتابة الّتي كانت عليها، فقرأ: «البرّاني ما وصل إليها والثّاني وصل وانقطع. والثّالث ظلّ في مفازة «حقيقة الحقيقة». الباء باب ثان في الدّائرة مثل «ب». وهو ذلك الباب حيث الوصول، وفيه التّيه، والثّالث مفاوز الحقيقة، وهي حقيقة ذلك الباب، الّذي كالباء، ويقابله بابان تحت الدّائرة الثّانية. وهيهات من يدخل الدّائرة، والطّريق مسدود والطّالب مردود، ونقطة الفوقانيّ همّته. ونقطة التّحتانيّ رجوعه إلى أصله، ونقطة الوسطانيّ تحيّره. قرب الدّائرة نقطة التّحتانيّ، حيث رجوعه بالأصل يطلب النّقطة الّتي في جهة اليمين، نقطة الوسطانيّ تحيّره، وبالوسطانيّ تلك الّتي على يسار الدّائرة. والدّائرة ما لها باب. والنّقطة الّتي في وسط الدّائرة هي الحقيقة. ومعنى الحقيقة شيء لا تغيب عنه الظّواهر والبواطن، ولا يقبل الأشكال. فإذا أردت فهم ما أشرت إليه: «فخذ أربعة من الطّير فصرهنّ إليك»؛ لأنّ الحقّ لا يطير. الغيرة أحضرتها بعد الغيبة، والهيبة منعتها، والحيرة سلبتها، هذه معاني الحقيقة. وأدقّ من ذلك فهم الفهم، لإخفاء الوهم، ذا من حول الدّائرة ينظر لا من وراء الدّائرة. وأمّا علم الحقيقة حرميّ، والدّائرة حرمته، فلذلك سمّي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم «حرميّا» ما خرج من دائرة الحرم، وهو وراءه فقال: «آه».»

وقال له نور الشّيخ الّذي كان رآه أوّل ما رآه في غرفته بالخان، حينما كان ما يزال حوشيّا يكتب على حواشي سفر التّكوين:

- انظر، يا ولدي.

ونظر حيث أشار فقرأ على لوح من الألواح، الّذي انتسب أخيرا إلى أخواته، فرآها كأنّما واحد في متعدّد أو متعدّد في واحد: «الدّارة الأولى مشيئته، والثّانية حكمته، والثّالثة قدرته، والرّابعة معلومته وأزليّته. قال إبليس: إن دخلت في الدّائرة الأولى ابتليت بالثّانية، وإن حصّلت في الثّانية ابتليت بالثّالثة، وإن قنعت بالثّالثة ابتليت بالرّابعة.

فلا، ولا ولا، ولا، ولا. فبقيت على الأولى، فلعنت إلى الثّاني وطرحت إلى الثّالث، وأين منّي الرّابع، لو علمت أنّ السّجود ينجيني لسجدت، ولكن قد علمت أنّ وراء تلك الدّائرة الدّوائر، فقلت في حالي: هب نجوت من هذه الدّائرة كيف أنجو من الثّانية، والثّالثة، والرّابعة. والألف الخامس هو (الحيّ)»

وقال طاجيك: «ونظرت إلى نور الشّيخ الّذي كنت رأيته في المسجد الجامع في بخارى، وكان كأنّما يستعدّ لرحيل وشيك، فأشار إليّ مرّة إلى ذلك الشّيخ الآخر الّذي كانوا صلبوه على جذع نخلة حين كان آدميّا غير حرميّ ولا منتسبيّ، وصار بعد صلبه روحانيّا أثيريّا هوائيّا طائريّا من طوائر السّماء المحلّقين بأجنحة مرّة، وبغير أجنحة مرّة أخرى؛ وأشار إلى بدر النّور الّذي ربّما كنت أنا فيه، أو كان هو فيّ أنا، وكنّا متنافرين، وربّما أصبحنا متقاربين، بعد الّذي كان من المرائي، ومرائي المرائي الّتي كانت دائما تقود إلى المراقي، في علّيات لا يعلى عليها؛ ثمّ أشار إلى الألواح الّتي كانت تطير، في البدء واحدة، ثمّ بعد ذلك متفرّقة، ثمّ متفرّقة، وبعد ذلك واحدة، وكان صفاؤها هذه المرّة ليس ككلّ صفاء، ولا نقاؤها ككلّ نقاء، وأشار بعد ذلك إلى واحدة بعينها كانت تعلو على غيرها من الألواح، وقال: «اقرأ.» فقرأت على اللّوح: «والحقّ واحد، أحد وحيد موحّد. والواحد والتّوحيد (في) و (عن). وصورة صورة في هذا المعنى. علم التّوحيد مفرد، مجرّد، صورة التّوحيد هكذا. التّوحيد، صفة الموحّد، لا صفة الموحّد، وإن قلت: (أنا)، قال: (أنا)، فلك، لا له، وإن قلت رجوع التّوحيد إلى الموحّد. وإن قلت: توحيد، كيف يرجع المتوحّد إلى التّوحيد؟ وإن قلت من الموحّد إلى الموحّد، فقد نسبته إلى الحدة. إن قلت: التّوحيد خلق منه، فإنّي صيّرت الذّات ذاتين، والّذي وجد ذات، وعندما لا يكون الذّات ذاتا، فإنّه ذات، ولا يكون ذاتا، اختفى عندما ظهر، أين اختفى الّذي (أين لا يكون)؟ إن (ما) و(إذا) لا يتضمّنان.»

قال طاجيك: «ورأيت النّور يعلو قليلا، ولم أستطع أن أستثبت

وجوده أكان على الأرض تماما، ولم يكن على الأرض، أم كان قد جاز السّماء، وانتقل من سماء إلى سماء، أم أنّه خرج من إطار السّماء، فلا هو كان أرضيّا أرضيّا، ولا كان سمائيّا سماويّا؛ ورغم أنّي كنت أسمع صوتا، فلا أعلم أكان ذلك الصّوت صوته، أم كان صوتا غير صوته، وهو صوته؛ وتعجّبت في أوّل أمري حين جاءني، وسألت عن سبب قدومه عليّ في مرّة بعد مرّة، وهل كان مجيئه لإشهادي، أم لتعريفي بنفسي، وقد جهلت نفسي من قبل، وحين جهلتها فقد جهلت قدرها، أم أنّ وجوده كان بقصد إخراجي من دائرة الشّهود إلى دائرة الوجود، ومن شهد فقد رأى بعينه النّاظرة، ومن وجد فقد خرج من ناظرته إلى باصرة غيره، وهو هو، في حال وجوده وعدمه، إلاّ أنّ العدم وجود بالقوّة، والوجود هو وجود بالوجود وهو موجود. وقال لي: «اقرأ.» فقرأت، على لوح من نور، محاط بكلّ الأنوار الّتي كانت تصدر عن أنوار تلك الألواح الأخرى: «الأسرار نازعة منه وإليه، وازعة فيه، وغير لازمة فيه، الأسرار منه فازعة، وإليه نازعة لأنّه وازعة. ضمر التّوحيد ضمائره، لأنّي مضمر، بل ضمير المضمر «هاؤه»، «هاؤه». إن قلت: «واه»، قالوا: «آه». ألوان وأنواع، والإشارة إلى المنقوص لا يلوص: «كأنّهم بنيان مرصوص»، هي حدّ، والحدّ لا يستثني عليه أحديّته، والحدّ حدّ، وأوصاف الحدّ إلى المحدود، والموحّد لا يحدّ. الحقّ مأوى الحقّ، لا الحقّ، ما قال التّوحيد؛ لأنّ المقال والحقيقة لا تصحّان للخلق، فكيف تصحّان للحقّ؟ والّذي لا يأخذ العرض لا يكون إلاّ جوهرا . والّذي لا يفارق الجسم لا يكون إلاّ جسما، . لا يفارق الرّوح لحظة، ولا يكون إلاّ روحا. إنّنا هضمة روحانيّة رجعنا إلى ما يتضّمنه. من مشموله وهاضمه، ومقوله وهاشمه، ومحموله. الأوّل مفعولات، والثّاني مرسومات، لدوائر الكونين، والنّقطة معنى للتّوحيد، وليس التّوحيد، ولو أنّ الدّائرة منفصلة.»

قال طاجيك: «وما كنت في الزّمن السّالف ممّن اشتغل بالأسرار،

وكان كلّ إيماني بما هو معلوم بالضّررورة من مسائل الشّريعة، وما كنت أتلقّاه من سادتي الشّيوخ الأجلاّء؛ وقد عرفت من الصّوفيّة بعض أحوالهم، وكان ذلك من باب العلم لا غير؛ ولم أكن أحسب أنّه سيصيبني منهم ما يصيبني الآن؛ وأنّ أسرارهم من الأشياء الّتي كانت متخفيّة فيّ، وقد كانت دائما تتربّص لي؛ ولم أنزعج لذلك لأنّي أعلم أنّ المصائر أمور مقدّرة يقدّرها صاحب الأمر، وهو الّذي أمر القلم أن يكتب ما هو صائر في الأزمنة الزّمن بعد الزّمن من مصائر الكون ومصائر العباد في الكون؛ وأزمعت أن أترك نفسي على سجيّتها، أن آخذ الأشياء على علاّتها؛ وقلت لنفسي: «ما نفع السّؤال؟ وما هي مزيّة هذا السّؤال إذا كان سيؤدّي إلى أسئلة أخرى ربّما لن تجد أجوبة لها؟ وهب أنّي عرفت الإجابات على أسئلتي، فما هو نفعها إذا كانت لا تجدي شيئا؟» ورضيت بمصيري، واكتفيت بالرّؤية البصريّة، وضربت صفحا عن المجادلات الّتي كانت تذكّرني بما كنت قرأته من مجادلات المجادلين من أمثال المعتزلة ومن لفّ لفّهم من أصحاب تغليب العقل على النّقل؛ وها أنذا الآن أكتشف أنّ وراء العقل عقولا، وأنّ النّقل ظاهره نقل، ووراء النّقل أحوال القلوب وفهوم وراء الفهوم الّتي نعرفها... وظللت أمنّي نفسي، وأنا بين اليقظة والمنام، بإغماض جفني، ولم أدركم مرّ عليّ من الوقت وأنا على تلك الحالة؛ واعتقدت أنّي قد مرّت عليّ ساعات بطولها، إلاّ أنّ طيفا بداخلي كان يوسوس لي أنّها لم تكن سوى مجرّد لحظات هي ما كان يستغرقها حلم من الأحلام، أو. إن شئت . رؤيا من الرّؤى؛ ورجّحت أنّها كانت رؤى، وإن لم تكن كذلك فهي حقيقة واقعة، لأنّ ما كنت أراه لم يكن جديدا عليّ؛ وهؤلاء الّذين كانوا يتداولون في أفق خيالي قد كنت عرفت بعضهم أو عرفتهم كلّهم في سابق أيّامي بهذه المدينة الّتي رأيت فيها الأعاجيب، مدينة بخارى... وقال لي نور الشّيخ، وكان يتلاشى كما تتلاشى أخر خيوط الظّلمة وهي تفسح المجال لأنوار النّهار الغازية: «انظر.» فنظرت فكان على آخر لوح

انفصل عن باقي الألواح الّتي كانت تطايرت في أجواز الفضاء واختفت تماما: «هذه الجملة، جمل حسب أقاويل أهل الملل، والمهل، والمقل، والسّبل. هو الظّاهر أوّلا، وهو الباطن ثانيا، وهو الإشارة ثالثا «يعني هذه الدّوائر». هذه الجملة مكوّنة، ومتكوّنة، ومحوّرة، ومطروقة، ومسمورة، ومنكورة، ومغرورة، ومبهورة. وفي الضّمائر دائرة، ومائرة، وحائرة، وعائرة، ونائرة، وصائرة. هذه الجملة مكوّنة، والله منزّه عن هذه الأساطير. إذا أقول: «هو»، لا يقولون بالتّوحيد. إذا أقول: أصبح صحيحا توحيد الحقّ يقولون صحيح. إذا أقول: بلا أرض، يقولون: إنّ معنى التّوحيد تشبيه، والتّشبيه ليس بمناسب لأوصاف الحقّ، ولا ينسبون التّوحيد، ولا إلى الخلق، لأنّه تجاوز عن الحدّ. إن تزد في التّوحيد فهو حادث، والحادث ليس بصفة للحقّ. الذّات واحد الحقّ، والباطل عن عين الذّات. إذا أقول: التّوحيد كلام، فالكلام صفة للذّات. إذا قلت: حواسّ يكون واحدا، الإرادة صفة الذّات، ومراد المخلوق. وإذا أقول: يكون الله توحيد الذّات، ويكون توحيد الذّات. إذا أقول: ليس بالذّات، فأكون قد سمّيته مخلوقا. إذا أقول: الإسم والمسمّى واحد، فماذا يكون معنى التّوحيد. إذا أقول: الله، الله، الله، يكون عين العين، و «هو هو». هذا مكان الطّاء والسّين ففي العلل، وهذه الدّوائر مع هذه اللاّم صورة الألفاظ. الأوّليّ أزليّ، والثّاني مفهومات، والثّالث جهة، والرّابع معلومات. لا يكون الذّات من دون صفات. الأوّل يجيء، ومن قبيل «العلم»، ولا يرى الثّاني يجيء، ومن قبيل «الصّفاء»، ولا يرى، وليس بذا «ذات»، وليس بالسّين «شيء»، وليس بالقاف «قال»، وليس بالميم ماهيّته. العزّة لله الّذي تقدّس بقدمه عن سبل أهل المعارف، وإدراك أهل الكواشف. هذه مكان الطّاء والسّين، والنّفي والإثبات. النّقش الأوّل فكر عامّ، والثّاني فكر خاصّ، ودائرة علم الحقّ مدار الوسط، لهؤلاء اللاّمات والألفات الّتي توجد بدائرة المحيط منزّهة عن جميع الجهات، هذان الحاءان حاملان

لجوانب الأجانب، يبغيان توحيد ما وراء هذه الحوادث. أفكار العوامّ تغوص في بحر الأوهام، وأفكار الخواصّ تغوص في بحر الأفهام، هذان البحران ينشقّان، والطّريق مقدّسة، وهذان الفكران ينقطعان، وهاتان النّتيجتان تضمحلاّن، وهذان الكونان يفنيان، والحجج تروح، ويتلاشى العرفان. الله الرّحمان هو المنزّه عن الحدث، هو سبحانه منزّه عن كلّ العلل والنّقائص، قويّ البرهان، عزيز السّلطان، ذو الجلال والمجد والكبرياء، واحد لا من حيث العدد، واحد لا كواحد، ليس له حدّ، ولا عدّ ولا ابتداء، ولا انتهاء، مبدع الكون، منزّه عن الكون . لا يعرفه إلاّ هو ذو الجلال والإكرام .والأرواح، والأجسام.»

لم أدر متى نمت، ولا متى أفقت؛ ولكنّي حين فتحت عينيّ كانت الظّلمة ما تزال رائنة على الغرفة، وكان كلّ ما حولي صامتا، ساكنا، كأنّي في مقبرة، وكأنّ الأصوات الّتي غالبا ما كنت أسمعها في الرّواق قد ولّت دون رجعة؛ وكان من عادة مسعود أن يأتيني في أوقات بعينها من النّهار فيسألني إن كنت سأتناول الغداء أو العشاء في مطبخ الخان أو أنّي أفضّل أن يجلب لي الطّعام إلى الغرفة. فآمره بحسب ما يمليه عليّ مزاجي أحيانا، أو حسب ما تمليه عليّ مشاغلي في أحايين أخرى. قلت في نفسي: «قد أكون نمت ليلتين متواصلتين؟» وبدا لي ذلك منطقيّا بالنّظر إلى ما كنت رأيته لأنّه كان من الطّول بحيث لا يمكنه أن يستغرق مجرّد ليلة أو بعض اللّيلة؛ ثمّ أعود فأقول لنفسي مرّة ثانية: «ولكن ما يدريني أنّها مجرّد ليلة أو بعض ليلة؟ فلماذا لا تكون مجرّد لحيظات كما قال لي ذلك الصّوت الموسوس بداخلي وهو يحاول إقناعي أنّ ما أراه ليس سوى حلم من الأحلام أو رؤيا من الرّؤى، وهذا أو تلك لا يستغرقان إلاّ وقتا يسيرا؟» واختلطت عليّ الأمور فقرّرت أن أضع حدّا لكلّ هذه التّساؤلات الّتي لا تغني شيئا، وفتحت باب الغرفة وأجلت بصري في الرّواق الّذي كان غارقا في سكون مطلق اللّهمّ إلاّ ما كان من ذبالة نور لم تكن قادرة على تجلية كلّ الظّلمة الّتي كانت تحيط

كلّ شيء من حولي... وأدركت أنّه اللّيل، ربّما نكون في هزيعه الأوسط أو الأخير، ورجّحت أنّي لم أنم سوى هذه اللّيلة، لأنّي لم أشعر بشيء غير عاديّ طرأ على جسمي، مثل ثقل مفاجىء أوتعب أوما شابه، وهي أشياء غالبا ما تطرأ عليّ حين أكون أفرطتّ في النّوم؛ ولم ألبث أن سمعت أصوات الدّيكة وهي تعلو إيذانا بطلوع الفجر، فدخلت وتوضّأت وقرّ عزمي على أن أصليّ الفجر حاضرا في المسجد الجامع؛ وحين أنهيت وضوئي خرجت، وكانت بخارى تسعدّ لاستقبال يوم جديد...!!!

٦. التّثنية

لم يأنس في نفسه نشاطا بعد الصّلاة حتّى يعرّج على القهوة أو يزور أيّا من الأصدقاء الّذين كان عرفهم طوال إقامته في بخارى، أو يحاول ولو مجرّد محاولة أن يرى كبير الشّرطة في ديوانه أو يسأل عنه في البيت؛ وقال في نفسه إنّ من شأن ذلك أن ينكأ جروحه وأن يعيد إلى ذاكرته مشاهد تلك اللّيلة الأليمة الّتي جعلته يرتّد كسيرا جريحا مهدورا شرف رجولته أمام المرأة الّتي كان يؤمّل أن تصبح له زوجة وأمّا لأولاده في قابل أيّامه؛ وفضّل أن يعود إلى غرفته ثانية ليقرأ ما تيسّر، وليكتب ما تيسّر، وهو لا يعلم بعد ما يمكنه أن يفعل بعد ذلك... وقد كان تغيّر الطّقس المفاجئ، وبداية البرد الّذي هجم على حين غرّة في ذلك العام، والزّوابع الّتي كانت تثور في الفينة بعد الفينة، من شأنها أن تقنعه بالمكوث في غرفته مستأنسا بكتبه ودفاتره؛ ثمّ يتذكّر المقهى وصديقه علاء الدّين، فيقول: «لا بأس من أن أتخفّف قليلا من عبء الكتابة وأستريح لبعض الوقت في القهوة!!» خلال إقامته في بخارى تعوّد على كلّ شيء، على التّعب، على المسغبة، على الألم، على مواجيد قلبه الطّارئة، على الرّؤى الّتي كان يراها حيثما ولّى وجهه، وعلى أكثر المواقف حرجا؛ إلاّ أنّ الشّيء الوحيد الّذي لم يكن يستطيع عليه صبرا هو الدّخان، الأركيلة بحضورها الأنثويّ الأخّاذ، والشّرود، والهروب إلى أماكن قصيّة ينتفي فيها كلّ ما كان يعانيه، وهو يسحب الدّخان إلى صدره، مغمض العينين، محاولا أن ينسى كلّ شيء: حنينه إلى بغداد، ومن خلّفهم في بغداد، رحلاته الكثيرة الّتي كانت تقوده إلى مجاهل لم يكن يعلم عنها شيئا في حياته، آلامه، أسقامه... وهذه الأسقام لم تكن

سوى أسقام قلبه الّذي بات غير قادر على إسعافه بالطّمأنينة الّتي كان ينشدها... ومن مجاهل أعماقه يطلق آهة، ويقول: «ليت ما كان لم يكن!!» ثمّ يرتدّ إلى نفسه مرّة ثانية، ويقول: «سلّم الأمر للقضاء، فهو للنّفس أنفع!!» ويجلس إلى نضده، ويجمع من حوله كتبه ودفاتره، ويأخذ قلمه وهو يستعدّ لتدوين ملاحظاته، ولكنّ الباب ينفتح فجأة، ويدخل عليه مسعود وفي يده طبق الإفطار... كان منظر الخادم كفيلا بأن يذكّره أنّه لم يأكل منذ زمن ليس باليسير، وأنّه إذا واصل على هذه الوتيرة ربّما يصاب بمرض لم يكن في الحسبان، من شأنه أن يمنعه من مواصلة ما كان بدأ فيه من سعيه لأن يكون عالما من العلماء. واستقبل الخادم بابتسامة امتنان، وأشار إليه أن يجلس ليتناول الإفطار معه. كانت تلك متعة لا تعادلها متعة بالنّسبة إليه، ليس فقط لأنّ مسعودا كان أثيرا لديه، وهو الّذي أعانه في أوقات شدّته على استكمال بعض ما كان فيه من العمل، ولكنّ مسعودا أيضا كان بوّابته إلى مجاهل بخارى، إلى ما كان يحدث فيها من الأمر والأحداث؛ وقال له وهو يراه يجلس قبالته:

- هيه، كيف حالك، يا مسعود؟

نظر إليه الخادم بعينين ملؤهما الامتنان، وهو يقول:

- الحمد لله، يا سيّدي.

سأله طاجيك ثانية من باب تشجيعه على الكلام، لأنّه كان يعتقد أنّ الجلوس على الطّعام من المناسبات الّتي يحلو فيها الكلام ويسود فيها الأنس والألفة، فيتقارب المتباعدون، وتسيل شجونهم، وينهار ما كان قائما بينهم من الحرج والكلفة:

- هل هناك من جديد؟

تريّث مسعود قليلا، وهو يرفع إصبعه في حركة عفويّة إلى أرنبة أنفه، وقال بعد لأي، وهو يكاد يطير فرحا:

- لقد منّ الله عليّ أخيرا، يا سيّدي.

سأله طاجيك:

- خيرا إن شاء الله.

قال مجيبا:

- كلّ الخير، يا سيّدي. سأتزوّج أخيرا.

كان طاجيك على وشك أن يرفع لقمة إلى فمه، وما أن سمع كلمات مسعود الأخيرة حتّى غشيته حالة من الحزن كانت من الوطاة بحيث استرعت انتباه مسعود الّذي قال في إشفاق:

- أرى أنّ الخبر قد أزعجك، يا سيّدي.

أراد طاجيك أن يتدارك أمره بشكل ما، فدفع باللّقمة إلى فمه وهو يتظاهر بالابتسام؛ وقد أراد بتلك الحركة أن يعطي نفسه فرصة ليتدبّر ما يمكن أن يقوله، وقال بعد أن شعر أنّ ما به من الحزن قد بدأ يتطامن:

- أبدا. أبدا. لا تراع. إنّها مجرّد حالة تطرأ عليّ من وقت لآخر. وليس في الأمر إلاّ الخير إن شاء الله. مبارك عليك، يا أخي...

ثمّ بعد أن اطمأنّ تماما أنّه قد عاد إلى ما كان عليه من التّبسّط والصّفاء:

- هيه، قل لي، يا مسعود، ومن سعيدة الحظّ الّتي ستحظى بقربك؟ أتراها من بخارى؟

قال مسعود:

- هي من بخارى وليست من بخارى، يا سيّدي.

سأله طاجيك متضاحكا:

- هل هذا لغز؟ كيف يكون الشّخص من مكانين مختلفين في نفس الوقت؟

قال:

- هي من بخارى لأنّها نشأت فيها وترعرعت؛ إلاّ أنّ عائلتها جاءت من سمرقند واستقرّت هنا منذ زمن بعيد.

قال طاجيك، وهو يمسح يديه محمدلا، ثمّ وهو يأخذ كوب القرفة ويحسو منه بضع حسوات:

- فهمت الآن. وهل عائلتها من العوائل المعروفة في البلد؟

قال:

- إنّ والدها من النّسّاجين المعدودين؛ وعائلتها موسرة، وهم أناس طيّبون.

استغرب طاجيك بينه وبين نفسه كيف أمكن لخادم مثل مسعود في حاله ولا يملك الشّيء الكثير من أمور دنياه أن يرتبط بقرينة رجل هو من المعدودين في موسري أهل البلد؛ إلاّ أنّه مع ذلك لم يرد أن يجرح مشاعره، ولعلّ مسعود لاحظ ذلك في وجهه فأراد أن يجنّبه حرج السّؤال، فقال بطيبة ولكن بثقة:

- ليس كلّ النّاس يبحثون عن المال، يا سيّدي؛ هناك من يعتبر أنّ السّترة هي أهمّ من المال بكثير؛ وقد كانت عائلة المرأة الّتي سأتزوّجها عائلة متواضعة الحال، ولكن حين منّ الله عليها ظلّت على حالها من الطّيبة وكرم الأخلاق؛ وقد خبروني واطّلعوا على جليّة أمري، فأدركوا أنّي أهل للثّقة، وأنّي رجل يستأمن على بنات النّاس...

بدا لطاجيك أن يقاطعه، ليس من باب التّندّر لأنّه كان أبعد ما يكون عن ذلك، ولكن من باب الطّرافة وإبعاد ما يكون طرأ على مسعود من الكدر جرّاء ما يكون استنتجه من أنّه يكون قد استهان بأمره أو قلّل من شأنه:

- وكيف تعرّفت إليهم وأنت نادرا ما تغادر الخان؟

فقال مسعود:

- إنّ أباها غالبا ما يتردّد على الخان، وقد كان أثناء زياراته يراقبني عن قرب؛ وفي يوم من الأيّام قال لي: «يا ولدي، إنّك رجل طيّب ومؤتمن، وأنا أريد أن أستامنك على شيء...» وانتظر قليلا فقدّرت أنّه يريد أن أقاطعه فأسأله، فقلت: «يا سيّدي، لم يسبق أن يكون هناك تعارف

بيننا، وأنت تريد أن تستأمنني، فعمّاذا تريد أن تستأمنني؟» فقال، وهو يبتسم مشجّعا ومهوّنا عليّ بعض ما طرأ عليّ من المفاجأة: «يا ولدي، لا تستغرب؛ فأمثالنا من النّاس الّذين يخافون الله يريدون أن يستروا على بناتهم، فيبحثون لهنّ عمّن يمكن أن يكون لهنّ سندا في الحياة، وأنا أريد أن أستأمنك على فلذة كبدي، ابنتي.» فنظرت إلى حالتي وقلّة ذات يدي وفقري، فقلت إنّ الرّجل يضحك عليّ أو يسخر منّي، فجابهته بكلّ ذلك، ولكنّه قال مهوّنا عليّ أمري: «يا ولدي، أنا لا أشتري فقرك وخصاصتك، ولكنّي أشتري ثقتك ورجولتك وأمانتك.» فهوّن عليّ كلامه بعض أمري، وهكذا تمّ كلّ شيء على أحسن ما يرام ببركة الله.

قال طاجيك، وهو يستعدّ لإنهاء تلك الجلسة الصّباحيّة ليتفرّغ إلى فصل جديد من فصول أسفار العهد القديم، وما يمكن أن يضيف إليه من كتب المؤرّخين الّذين كان يحتفظ بالشّيء غير اليسر ممّا كتبوه:

- ومتى سيكون بناؤك بها إن شاء الله.

فقال مسعود وهو يحمل الطّبق الفارغ بين يديه، ويستعدّ للخروج:

- الخميس القادم، إن شاء الله.

ثمّ وهو يستدير ويستقبل الباب:

- هل أطمع أن تشرّفني، يا سيّدي، بالحضور؟

فردّ عليه طاجيك، وهو بين الفرح والحزن، الفرح لأنّه لا يريد أن يكسر خاطر هذا الرّجل الّذي أحبّه من كلّ قلبه، والحزن لأنّه استذكر تلك اللّيلة وما وقع له فيها:

- سيشرّفني ذلك؛ وسأكون أوّل من يحضر ويهنّئك، إن شاء الله.

وخرج مسعود أخيرا، فشعر طاجيك بالارتياح لأنّه سيفرغ إلى نفسه أخيرا، وبالامتنان لهذا الرّجل الّذي ذكّره بطعامه فلن يكون مضطّرا إلى الخروج ثانية وقطع حبال أفكاره من أجل إسكات جوعه... أخذ كتاب العهد القديم الّذي لم يكن سوى مجموعة ضخمة من

الجلود الرّقيقة الّتي كان بعضها مشدودا إلى البعض الآخر، وأخذ
يقلّبها في أناة، إلى أن انتهى إلى سفر التّثنية. فبدأ يقرأ: «١هذَا هُوَ الْكَلاَمُ
الَّذِي كَلَّمَ بِهِ مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ، فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ، فِي الْبَرِّيَّةِ فِي الْعَرَبَةِ،
قُبَالَةَ سُوفَ، بَيْنَ فَارَانَ وَتُوفَلَ وَلاَبَانَ وَحَضَيْرُوتَ وَذِي ذَهَبٍ. ٢أَحَدَ
عَشَرَ يَوْمًا مِنْ حُورِيبَ عَلَى طَرِيقِ جَبَلِ سِعِيرَ إِلَى قَادَشَ بَرْنِيعَ. ٣فَفِي
السَّنَةِ الأَرْبَعِينَ، فِي الشَّهْرِ الْحَادِي عَشَرَ فِي الأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ، كَلَّمَ مُوسَى
بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ كُلِّ مَا أَوْصَاهُ الرَّبُّ إِلَيْهِمْ. ٤بَعْدَ مَا ضَرَبَ سِيحُونَ
مَلِكَ الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنَ فِي حَشْبُونَ، وَعُوجَ مَلِكَ بَاشَانَ السَّاكِنَ فِي
عَشْتَارُوثَ فِي إِذْرَعِي. ٥فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ، فِي أَرْضِ مُوآبَ، ابْتَدَأَ مُوسَى يَشْرَحُ
هذِهِ الشَّرِيعَةَ قَائِلاً:

٦«اَلرَّبُّ إِلهُنَا كَلَّمَنَا فِي حُورِيبَ قَائِلاً: كَفَاكُمْ قُعُودٌ فِي هذَا الْجَبَلِ،
٧تَحَوَّلُوا وَارْتَحِلُوا وَادْخُلُوا جَبَلَ الأَمُورِيِّينَ وَكُلَّ مَا يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبَةِ
وَالْجَبَلِ وَالسَّهْلِ وَالْجَنُوبِ وَسَاحِلِ الْبَحْرِ، أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّ وَلُبْنَانَ إِلَى
النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ. ٨اُنْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكُمُ الأَرْضَ. ادْخُلُوا
وَتَمَلَّكُوا الأَرْضَ الَّتِي أَقْسَمَ الرَّبُّ لآبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ
يُعْطِيَهَا لَهُمْ وَلِنَسْلِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

٩«وَكَلَّمْتُكُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ قَائِلاً: لاَ أَقْدِرُ وَحْدِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ. ١٠اَلرَّبُّ
إِلهُكُمْ قَدْ كَثَّرَكُمْ. وَهُوَذَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ فِي الْكَثْرَةِ. ١١الرَّبُّ
إِلهُ آبَائِكُمْ يَزِيدُ عَلَيْكُمْ مِثْلَكُمْ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَيُبَارِكُكُمْ كَمَا كَلَّمَكُمْ. ١٢كَيْفَ
أَحْمِلُ وَحْدِي ثِقْلَكُمْ وَحِمْلَكُمْ وَخُصُومَتَكُمْ؟ ١٣هَاتُوا مِنْ أَسْبَاطِكُمْ
رِجَالاً حُكَمَاءَ وَعُقَلاَءَ وَمَعْرُوفِينَ، فَأَجْعَلَهُمْ رُؤُوسَكُمْ. ١٤فَأَجَبْتُمُونِي
وَقُلْتُمْ: حَسَنٌ الأَمْرُ الَّذِي تَكَلَّمْتَ بِهِ أَنْ يُعْمَلَ. ١٥فَأَخَذْتُ رُؤُوسَ
أَسْبَاطِكُمْ رِجَالاً حُكَمَاءَ وَمَعْرُوفِينَ، وَجَعَلْتُهُمْ رُؤُوسًا عَلَيْكُمْ، رُؤَسَاءَ
أُلُوفٍ، وَرُؤَسَاءَ مِئَاتٍ، وَرُؤَسَاءَ خَمَاسِينَ، وَرُؤَسَاءَ عَشَرَاتٍ، وَعُرَفَاءَ
لأَسْبَاطِكُمْ. ١٦وَأَمَرْتُ قُضَاتَكُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ قَائِلاً: اسْمَعُوا بَيْنَ
إِخْوَتِكُمْ وَاقْضُوا بِالْحَقِّ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَأَخِيهِ وَنَزِيلِهِ. ١٧لاَ تَنْظُرُوا إِلَى

الْوُجُوهِ فِي الْقَضَاءِ. لِلصَّغِيرِ كَالْكَبِيرِ تَسْمَعُونَ. لاَ تَهَابُوا وَجْهَ إِنْسَانٍ لأَنَّ
الْقَضَاءَ لِلهِ. وَالأَمْرُ الَّذِي يَعْسُرُ عَلَيْكُمْ تُقَدِّمُونَهُ إِلَيَّ لأَسْمَعَهُ. ١٨وَأَمَرْتُكُمْ
فِي ذلِكَ الْوَقْتِ بِكُلِّ الأُمُورِ الَّتِي تَعْمَلُونَهَا.
١٩«ثُمَّ ارْتَحَلْنَا مِنْ حُورِيبَ، وَسَلَكْنَا كُلَّ ذلِكَ الْقَفْرِ الْعَظِيمِ الْمَخُوفِ
الَّذِي رَأَيْتُمْ فِي طَرِيقِ جَبَلِ الأَمُورِيِّينَ، كَمَا أَمَرَنَا الرَّبُّ إِلهُنَا. وَجِئْنَا إِلَى
قَادَشَ بَرْنِيعَ. ٢٠فَقُلْتُ لَكُمْ: قَدْ جِئْتُمْ إِلَى جَبَلِ الأَمُورِيِّينَ الَّذِي أَعْطَانَا
الرَّبُّ إِلهُنَا. ٢١أُنْظُرْ. قَدْ جَعَلَ الرَّبُّ إِلهُكَ الأَرْضَ أَمَامَكَ. اصْعَدْ تَمَلَّكْ
كَمَا كَلَّمَكَ الرَّبُّ إِلهُ آبَائِكَ. لاَ تَخَفْ وَلاَ تَرْتَعِبْ. ٢٢فَتَقَدَّمْتُمْ إِلَيَّ جَمِيعُكُمْ
وَقُلْتُمْ: دَعْنَا نُرْسِلْ رِجَالاً قُدَّامَنَا لِيَتَجَسَّسُوا لَنَا الأَرْضَ، وَيَرُدُّوا إِلَيْنَا
خَبَرًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي نَصْعَدُ فِيهَا وَالْمُدُنِ الَّتِي نَأْتِي إِلَيْهَا. ٢٣فَحَسُنَ
الْكَلاَمُ لَدَيَّ، فَأَخَذْتُ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً. رَجُلاً وَاحِدًا مِنْ كُلِّ سِبْطٍ.
٢٤فَانْصَرَفُوا وَصَعِدُوا إِلَى الْجَبَلِ وَأَتَوْا إِلَى وَادِي أَشْكُولَ وَتَجَسَّسُوهُ،
٢٥وَأَخَذُوا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ وَنَزَلُوا بِهِ إِلَيْنَا، وَرَدُّوا لَنَا خَبَرًا
وَقَالُوا: جَيِّدَةٌ هِيَ الأَرْضُ الَّتِي أَعْطَانَا الرَّبُّ إِلهُنَا.
٢٦«لكِنَّكُمْ لَمْ تَشَاءُوا أَنْ تَصْعَدُوا، وَعَصَيْتُمْ قَوْلَ الرَّبِّ إِلهِكُمْ،
٢٧وَتَمَرْمَرْتُمْ فِي خِيَامِكُمْ وَقُلْتُمْ: الرَّبُّ بِسَبَبِ بُغْضَتِهِ لَنَا، قَدْ أَخْرَجَنَا
مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لِيَدْفَعَنَا إِلَى أَيْدِي الأَمُورِيِّينَ لِكَيْ يُهْلِكَنَا. ٢٨إِلَى أَيْنَ نَحْنُ
صَاعِدُونَ؟ قَدْ أَذَابَ إِخْوَتُنَا قُلُوبَنَا قَائِلِينَ: شَعْبٌ أَعْظَمُ وَأَطْوَلُ مِنَّا.
مُدُنٌ عَظِيمَةٌ مُحَصَّنَةٌ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَيْضًا قَدْ رَأَيْنَا بَنِي عَنَاقَ هُنَاكَ.
٢٩فَقُلْتُ لَكُمْ: لاَ تَرْهَبُوا وَلاَ تَخَافُوا مِنْهُمْ. ٣٠الرَّبُّ إِلهُكُمُ السَّائِرُ أَمَامَكُمْ
هُوَ يُحَارِبُ عَنْكُمْ حَسَبَ كُلِّ مَا فَعَلَ مَعَكُمْ فِي مِصْرَ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ ٣١وَفِي
الْبَرِّيَّةِ، حَيْثُ رَأَيْتَ كَيْفَ حَمَلَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ كَمَا يَحْمِلُ الإِنْسَانُ ابْنَهُ فِي
كُلِّ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكْتُمُوهَا حَتَّى جِئْتُمْ إِلَى هذَا الْمَكَانِ. ٣٢وَلكِنْ فِي هذَا
الأَمْرِ لَسْتُمْ وَاثِقِينَ بِالرَّبِّ إِلهِكُمُ ٣٣السَّائِرِ أَمَامَكُمْ فِي الطَّرِيقِ، لِيَلْتَمِسَ
لَكُمْ مَكَانًا لِنُزُولِكُمْ، فِي نَارٍ لَيْلاً لِيُرِيَكُمُ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسِيرُونَ فِيهَا، وَفِي
سَحَابٍ نَهَارًا. ٣٤وَسَمِعَ الرَّبُّ صَوْتَ كَلاَمِكُمْ فَسَخِطَ وَأَقْسَمَ قَائِلاً: ٣٥لَنْ

يَرَى إِنْسَانٌ مِنْ هؤُلاَءِ النَّاسِ، مِنْ هذَا الْجِيلِ الشِّرِّيرِ، الأَرْضَ الْجَيِّدَةَ الَّتِي أَقْسَمْتُ أَنْ أُعْطِيَهَا لآبَائِكُمْ، [٣٦]مَا عَدَا كَالِبَ بْنَ يَفُنَّةَ. هُوَ يَرَاهَا، وَلَهُ أُعْطِي الأَرْضَ الَّتِي وَطِئَهَا، وَلِبَنِيهِ، لأَنَّهُ قَدِ اتَّبَعَ الرَّبَّ تَمَامًا. [٣٧]وَعَلَيَّ أَيْضًا غَضِبَ الرَّبُّ بِسَبَبِكُمْ قَائِلاً: وَأَنْتَ أَيْضًا لاَ تَدْخُلُ إِلَى هُنَاكَ. [٣٨]يَشُوعُ بْنُ نُونَ الْوَاقِفُ أَمَامَكَ هُوَ يَدْخُلُ إِلَى هُنَاكَ. شَدِّدْهُ لأَنَّهُ هُوَ يَقْسِمُهَا لإِسْرَائِيلَ. [٣٩]وَأَمَّا أَطْفَالُكُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ يَكُونُونَ غَنِيمَةً، وَبَنُوكُمُ الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا الْيَوْمَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَهُمْ يَدْخُلُونَ إِلَى هُنَاكَ، وَلَهُمْ أُعْطِيهَا وَهُمْ يَمْلِكُونَهَا. [٤٠]وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَحَوَّلُوا وَارْتَحِلُوا إِلَى الْبَرِّيَّةِ عَلَى طَرِيقِ بَحْرِ سُوفَ.

[٤١]«فَأَجَبْتُمْ وَقُلْتُمْ لِي: قَدْ أَخْطَأْنَا إِلَى الرَّبِّ. نَحْنُ نَصْعَدُ وَنُحَارِبُ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَنَا الرَّبُّ إِلهُنَا. وَتَنَطَّقْتُمْ كُلُّ وَاحِدٍ بِعُدَّةِ حَرْبِهِ، وَاسْتَخْفَفْتُمُ الصُّعُودَ إِلَى الْجَبَلِ. [٤٢]فَقَالَ الرَّبُّ لِي: قُلْ لَهُمْ: لاَ تَصْعَدُوا وَلاَ تُحَارِبُوا، لأَنِّي لَسْتُ فِي وَسَطِكُمْ لِئَلاَّ تَنْكَسِرُوا أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ. [٤٣]فَكَلَّمْتُكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا بَلْ عَصَيْتُمْ قَوْلَ الرَّبِّ وَطَغَيْتُمْ، وَصَعِدْتُمْ إِلَى الْجَبَلِ. [٤٤]فَخَرَجَ الأَمُورِيُّونَ السَّاكِنُونَ فِي ذلِكَ الْجَبَلِ لِلِقَائِكُمْ وَطَرَدُوكُمْ كَمَا يَفْعَلُ النَّحْلُ، وَكَسَرُوكُمْ فِي سِعِيرَ إِلَى حُرْمَةَ. [٤٥]فَرَجَعْتُمْ وَبَكَيْتُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، وَلَمْ يَسْمَعِ الرَّبُّ لِصَوْتِكُمْ وَلاَ أَصْغَى إِلَيْكُمْ. [٤٦]وَقَعَدْتُمْ فِي قَادَشَ أَيَّامًا كَثِيرَةً كَالأَيَّامِ الَّتِي قَعَدْتُمْ فِيهَا.» وفي الدّفتر الّذي كان خطّ فيه بعض ما جادت به عليه قريحته. خطّ أيضا: «وحسب ما ورد، ويعتقد بنو إسرائيل أنّه هو الصّحيح ممّا ورد إليهم عن أخبار الأيّام السّالفة، أنّ الله قد مهّد لهم الطّريق بأن هزم أعداءهم من الأموريّين والباشانيّين؛ ثمّ أمر موسى عليه السّلام أن يأمرهم أن يدخلوا تلك الأرض الّتي فتحها لهم بقدرته وعزّته وجبروته. فتلكّأوا عليه، وتباطأوا، وقالوا ليذهب منّا من يتحسّس أمر هؤلاء المهزومين؛ وقد كانوا في قرارهم يخشونهم لما علموا من قوّة أجسامهم وشدّة بطشهم؛ وقد عزّت عليهم الحياة وأرادوا أن تأتيهم الأمور على هينة دون أن يبذلوا في ذلك جهدا أو مشقّة فعوقبوا. كما أخبر بذلك السّفر. أن لا يدخلوا تلك

الأرض إلاّ ما كان من أمر كالب بن يوفنّا ويوشع بن نون اللّذين أطاعا أمر الربّ ولم يرتابا فيما كان أخبر به... (وفي هذا الموضع، نقول إنّ أمر الربّ لم يكن مؤجّلا، ولكنّه كان معجّلا، فمن يعصي أمره يعاقب في حينه، ولا يؤجّله الربّ إلى فترة من الزّمن ليتدارك أمره أو يتراجع بالتّوبة ـ ولعلّ الأمر في ذلك، والله أعلم، أنّ الربّ قد خبر بني إسرائيل وعرفهم على حقيقتهم، فهم دائمو التّذمّر وردّ الأمر عليه؛ فما من شيء يأمرهم به إلاّ راجعوه فيه؛ ولم يرضوا بمشيئته، وتكبّروا عليه، لأنّهم كانوا يعتبرون أنّه واحد كأيّهم، وأنّ أمره فيه ما يقبل وما يردّ؛ فلذلك كان عقابه إيّاهم مشدّدا لا هوادة فيه؛ وفي القرءان نجد بعض ما ذكر في السّفر مجملا، لأنّ الله تعالى حين يذكر الرّجلين المؤمنين في سورة المائدة لم يخبر بإسميهما اللّذين يذكرهما سفر التّثنية، وهما كالب بن يوفنّا ويوشع بن نون، فنقرأ في القرءان الكريم: « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦).» فكما نرى فقد كنّى الله تعالى على كالب بن يوفنّا ويوشع بن نون بالرّجلين اللّذين يخافانه، وهما الوحيدان من بين جميع بني إسرائيل اللّذان أطاعا أمر الرّبّ ولم يرتابا لحظة واحدة في أنّ وعده الحقّ وأنّه لا يمكن أن يخلف هذا الوعد... وأقول أنا طاجيك

بن لامار إنّ هؤلاء القوم لو كانوا بالله مؤمنين وعليه متوكّلين لعلموا أنّه حينما يأمرهم بشيء فقد مكّن له منذ البداية وأنّ ما عليهم إلاّ أن يتوكّلوا عليه ويعزموا؛ غير أنّه كما قلنا آنفا من اعتبارهم الله تعالى واحدا كأيّهم جعلهم يعتقدون في قصوره. تعالى الله عن ذلك علوّا كثيرا. فكان العقاب مشدّدا وكانت النّتيجة وخيمة بحيث حرمهم دخول تلك الأرض المقدّسة، وزاد على ذلك بأن جعلهم يتيهون في الأرض أربعين سنة... وقد ذكر المؤرّخون العرب هذين الرّجلين المؤمنين وعرّفوا بهما وأسهبوا في ذلك، فنجد أنّ الحافظ بن كثير مثلا قد ذكر خبرا مختصرا عنهما في الفصل الموسوم بـ «جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السّلام» حيث يقول: «قال ابن جرير في تاريخه لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السّالفين من أمّتنا وغيرهم أنّ القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنّا يعني أحد أصحاب موسى عليه السّلام وهو زوج أخته مريم وهو أحد الرّجلين اللّذين ممّن يخافون الله وهما يوشع وكالب وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: «ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين.» قال ابن جرير ثمّ من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيل بن يوذي وهو الّذي دعا الله فأحيا الّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.» غير أنّ الإمام أبا جعفر بن جرير حين ذكر الخبر عنهما قد أسهب في ذلك، وممّا ورد فيما كتبه نجد مذكورا بالرّسم: «ذكر يوشع بن نون عليه السّلام. ثمّ ابتعث الله عز وجلّ بعد موسى عليه السّلام يوشع بن نون بن إفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبيّا وأمره بالمسير إلى أريحا لحرب من فيها من الجبّارين فاختلف السّلف من أهل العلم في ذلك وعلى يد من كان ذلك ومتى سار يوشع إليها في حياة موسى بن عمران كان مسيره إليها أم بعد وفاته. فقال بعضهم لم يسر يوشع إلى أريحا ولا أمر بالمسير إليها إلاّ بعد موت موسى وبعد هلاك جميع من كان أبى المسير إليها مع موسى

بن عمران حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبّارين وقالوا مات موسى وهارون جميعا في التّيه قبل خروجهما منه. ذكر من قال ذلك . حدّثني عبدالكريم بن الهيثم قال حدّثنا إبراهيم بن بشّار قال حدّثنا سفيان قال قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عبّاس قال قال الله تعالى لمّا دعا موسى يعني بدعائه قوله: «رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ .» قال فدخلوا التّيه فكلّ من دخل التّيه ممّن جاوز العشرين سنة مات في التّيه قال فمات موسى في التّيه ومات هارون قبله قال فلبثوا في تيههم أربعين سنة وناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبّارين فافتتح يوشع المدينة. . حدّثنا بشر قال حدّثنا يزيد بن زريع قال حدّثنا سعيد عن قتادة قال قال الله تعالى: «إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.» الآية، حرّمت عليهم القرى فكانوا لا يهبطون قرية ولا يقدرون على ذلك أربعين سنة. وذكر لنا أنّ موسى مات في الأربعين سنة ولم يدخل بيت المقدس منهم إلا أبناؤهم والرّجلان اللّذان قالا ما قالا. حدّثني موسى بن هارون الهمدانيّ قال حدّثنا عمرو قال حدّثنا أسباط عن السّدّيّ في الخبر الّذي ذكرت إسناده فيما مضى لم يبق أحد ممّن أبى أن يدخل مدينة الجبّارين مع موسى إلاّ مات ولم يشهد الفتح ثمّ إنّ الله عزّوجلّ لمّا انقضت الأربعون سنة بعث يوشع بن نون نبيّا فأخبرهم أنّه نبيّ وأنّ الله قد أمره أن يقاتل الجبّارين فبايعوه وصدّقوه فهزم الجبّارين واقتحموا عليهم فقتلوهم فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرّجل يضربونها لا يقطعونها. حدّثنا ابن بشّار قال حدّثنا سليمان بن حرب عن هلال عن قتادة في قول الله تعالى: «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ.» قال أبدا. حدّثني المثنّى قال حدّثنا مسلم بن إبراهيم عن هارون النّحويّ عن الزّبير بن الخرّيت عن عكرمة في قوله فإنّها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض قال التّحريم التّيه. وقال آخرون إنّما فتح أريحا موسى ولكنّ

يوشع كان على مقدّمة موسى حين سار إليهم. ذكر من قال ذلك ـ حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق قال لمّا نشأت النّواشي من ذراريهم يعني من ذراري الّذين أبوا قتال الجبّارين مع موسى وهلك آباؤهم وانقضت الأربعون سنة الّتي تيهوا فيها سار بهم موسى ومعه يوشع بن نون وكالب بن يوفنّا وكان فيما يزعمون على مريم ابنة عمران أخت موسى وهارون فكان لهم صهرا فلمّا انتهوا إلى أرض كنعان وبها بلعم بن باعور المعروف وكان رجلا قد آتاه الله علما وكان فيما أوتي من العلم اسم الله الأعظم فيما يذكرون الّذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى. حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة عن محمّد بن إسحاق عن سالم أبي النّضر أنّه حدّث أنّ موسى لمّا نزل أرض بني كنعان من أرض الشّام وكان بلعم ببالعة قرية من قرى البلقاء فلمّا نزل موسى ببني إسرائيل ذلك المنزل أتى قوم بلعم إلى بلعم فقالوا له يا بلعم هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بني إسرائيل ويسكنها وإنّا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدّعوة فاخرج فادع الله عليهم فقال ويلكم نبيّ الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم قالوا مالنا من منزل فلم يزالوا به يرقّقونه ويتضرّعون إليه حتّى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجّها إلى الجبل الّذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسبان فما سار عليها غير قليل حتّى ربضت به فنزل عنها فضربها حتّى أذلقها فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتّى ربضت به ففعل مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتّى ربضت به فضربها حتّى إذا أذلقها أذن الله لها فكلّمته حجّة عليه فقالت ويحك يا بلعم أين تذهب ألا ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا أتذهب إلى نبيّ الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينزع عنها يضربها فخلّى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت حتّى إذا أشرفت به على جبل حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم فلا يدعو عليهم بشيء إلا

صرف الله لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه أتدري يا بلعم ما تصنع إنّما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا أملك هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت الآن منّي الدّنيا والآخرة فلم يبق إلاّ المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال جمّلوا النّساء وأعطوهنّ السّلع ثمّ أرسلوهنّ إلى العسكر يبعنها فيه ومروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنّه إن زنى رجل واحد منهم كفيتموهم ففعلوا فلمّا دخل النّساء العسكر مرّت امرأة من الكنعانيّين اسمها كستى ابنة صور رأس أمّته وبني أبيه من كان منهم في مدين هو كان كبيرهم برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثمّ أقبل حتّى وقف بها على موسى فقال إنّي أظنّك ستقول هذه حرام عليك قال أجل هي حرام عليك لا تقربها قال فوالله لا نطيعك في هذا ثمّ دخل بها قبّته فوقع عليها فأرسل الله الطّاعون في بني إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان رجلا قد أعطي بسطة في الخلق وقوّة في البطش وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع فجاء والطّاعون يحوس في بني إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلّها ثمّ دخل عليهما القبّة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثمّ خرج بهما رافعهما إلى السّماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار فجعل يقول اللّهمّ هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطّاعون فحسب من يهلك من بني إسرائيل في الطّاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلّل لهم يقول عشرون ألفا في ساعة من النّهار فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص بن العيزار بن هارون من كلّ ذبيحة ذبحوها القبّة والذّراع واللّحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إيّاها

بذراعه وإسناده إيّاها إلى لحيته والبكر من كلّ أموالهم وأنفسهم لأنّه كان بكر العيزار ففي بلعم بن باعور أنزل الله تعالى على محمّد صلّى الله عليه وسلّم: « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا .» يعني بلعم بن باعور: «فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ .» إلى قوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.» يعني بني إسرائيل أنّي قد جئتهم بخبر ما كان فيهم ممّا يخفون عليك لعلّهم يتفكّرون فيعرفون أنّه لم يأت بهذ الخبر عمّا مضى فيهم إلا نبيّ يأتيه خبر من السّماء. ثمّ إنّ موسى قدّم يوشع بن نون إلى أريحا في بني إسرائيل فدخلها بهم وقتل بها الجبابرة الّذين كانوا فيها وأصاب من أصاب منهم وبقيت منهم بقيّة في اليوم الّذي أصابهم فيه وجنح عليهم اللّيل وخشي إن لبسهم اللّيل أن يعجزوه فاستوقف الشّمس ودعا الله أن يحبسها ففعل عزّ وجلّ حتّى استأصلهم ثمّ دخلها موسى ببني إسرائيل فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم ثمّ قبضه الله إليه لا يعلم بقبره أحد من الخلائق. فأمّا السّدّيّ في الخبر الّذي ذكرت عنه إسناده فيما مضى فإنّه ذكر في خبره ذلك أنّ الّذي قاتل الجبّارين يوشع بن نون بعد موت موسى وهارون وقصّ من أمره وأمرهم ما أنا ذاكره وهو أنّه ذكر فيه أنّ الله بعث يوشع نبيّا بعد أن انقضت الأربعون سنة فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنّه نبيّ وأنّ الله قد أمره أن يقاتل الجبّارين فبايعوه وصدّقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم وكان عالما يعلم الإسم الأعظم المكتوم فكفروأتى الجبّارين فقال لا ترهبوا بني إسرائيل فإنّي إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون فكان عندهم فيما شاء من الدّنيا غير أنّه كان لا يستطيع أن يأتي النّساء من عظمهنّ فكان ينكح أتانا له وهو الّذي يقول الله عزّوجلّ فيه: « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا.» أي فبصر، «آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ »، إلى قوله: «وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ.» فكان بلعم يلهث كما يلهث الكلب فخرج يوشع يقاتل الجبّارين في النّاس وخرج

بلعم مع الجبّارين على أتانه وهو يريد أن يلعن بني إسرائيل فكلّما أراد أن يدعو على بني إسرائيل جاء على الجبّارين فقال الجبّارون إنّك إنّما تدعو علينا فيقول إنّما أردت بني إسرائيل فلمّا بلغ باب المدينة أخذ ملك بذنب الأتان فأمسكها وجعل يحرّكها فلا تتحرّك فلمّا أكثر ضربها تكلّمت فقالت أنت تنكحني باللّيل وتركبني بالنّهار ويلي منك ولو أنّي أطقت الخروج لخرجت بك ولكنّ هذا الملك يحبسني فقاتلهم يوشع يوم الجمعة قتالا شديدا حتّى أمسوا وغربت الشّمس ودخل السّبت فدعا الله فقال للشّمس إنّك في طاعة الله وأنا في طاعة الله اللّهمّ اردد عليّ الشّمس فردّت عليه الشّمس فزيد له في النّهار يومئذ ساعة فهزم الجبّارين واقتحموا عليهم يقتلونهم فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرّجل يضربونها لا يقطعونها وجمعوا غنائمهم وأمرهم يوشع أن يقرّبوا الغنيمة فقرّبوها فلم تزل النّار تأكلها فقال يوشع يا بني إسرائيل إنّ لله عزّ وجلّ عندكم طلبة هلمّوا فبايعوني فبايعوه فلصقت يد رجل منهم بيده فقال هلمّ ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالياقوت والجوهر كان قد غلّه فجعله في القربان وجعل الرّجل معه فجاءت النّار فأكلت الرّجل والقربان. وأمّا أهل التّوراة فإنّهم يقولون هلك هارون وموسى في التّيه وإنّ الله أوحى إلى يوشع بعد موسى وأمره أن يعبر الأردنّ إلى الأرض الّتي أعطاها بني إسرائيل ووعدها إيّاهم وأنّ يوشع جدّ في ذلك ووجّه إلى أريحا من تعرّف خبرها ثمّ سار ومعه تابوت الميثاق حتّى عبر الأردنّ وصار له ولأصحابه فيه طريق فأحاط بمدينة أريحا ستّة أشهر فلمّا كان السّابع نفخوا في القرون وضجّ الشّعب ضجّة واحدة فسقط سور المدينة فأباحوها وأحرقوها وما كان فيها ما خلا الذّهب والفضّة وآنية النّحاس والحديد فإنّهم أدخلوه بيت المال ثمّ إنّ رجلا من بني إسرائيل غلّ شيئا فغضب الله عليهم وانهزموا فجزع يوشع جزعا شديدا فأوحى الله إلى يوشع أن يقرع بين الأسباط ففعل حتّى انتهت القرعة إلى الرّجل الّذي

غلّ فاستخرج غلوله من بيته فرجمه يوشع وأحرق كلّ ما كان له بالنّار وسمّوا الموضع باسم صاحب الغلول وهو عاجر فالموضع إلى هذا اليوم غور عاجر ثمّ نهض بهم يوشع إلى ملك عايي وشعبه فأرشدهم الله إلى حربه وأمر يوشع أن يكمن لهم كمينا ففعل وغلب على عايي وصلب ملكها على خشبة وأحرق المدينة وقتل من أهلها اثني عشر ألفا من الرّجال والنّساء واحتال أهل عماق وجيعون ليوشع حتّى جعل لهم أمانا فلمّا ظهر على خديعتهم دعا الله عليهم أن يكونوا حطّابين وسقّائين فكانوا كذلك وأن يكون بازق ملك أورشليم يتصدّق ثمّ أرسل ملوك الأرمانيّين وكانوا خمسة بعضهم إلى بعض وجمعوا كلمتهم على جيعون فاستنجد أهل جيعون يوشع فأنجدهم وهزموا أولئك الملوك حتّى حدروهم إلى هبطة حوران ورماهم الله بأحجار البرّ فكان من قتله البرد أكثر ممّن قتله بنو إسرائيل بالسّيف وسأل يوشع الشّمس أن تقف والقمر أن يقوم حتّى ينتقم من أعدائه قبل دخول السّبت ففعلا ذلك وهرب الخمسة ملوك فاختفوا في غار فأمر يوشع فسدّ باب الغار حتّى فرغ من الانتقام من أعدائه ثمّ أمر بهم فأخرجوا فقتلهم وصلبهم ثمّ أنزلهم من الخشب وطرحهم في الغار الّذي كانوا فيه وتتبّع سائر الملوك بالشّام فاستباح منهم أحدا وثلاثين ملكا وفرّق الأرض الّتي غلب عليها ثمّ مات يوشع فلمّا مات دفن في جبل أفراييم وقام بعده سبط يهوذا وسبط شمعون بحرب الكنعانيّين فاستباحوا حريمهم وقتلوا منهم عشرة آلاف ببازق وأخذوا ملك بازق فقطعوا إبهامي يديه ورجليه فقال عند ذلك ملك بازق قد كان يلقط الخبز من تحت مائدتي سبعون ملكا مقطّعي الأباهيم فقد جزاني الله بصنيعي وأدخلوا ملك بازق أورشليم فمات بها وحارب بنو يهوذا سائر الكنعانيّين واستولوا على أرضهم وكان عمر يوشع مائة سنة وستّا وعشرين سنة وتدبيره أمر بني إسرائيل منذ توفّي موسى إلى أن توفّي يوشع بن نون سبعا وعشرين سنة...» قال طاجيك بن لامار: «وقد أوردتّ هذه الأطراف من كتب

المتقدّمين من مؤرّخي المسلمين حتّى أسدّ ما يمكن أن يطرأ من الخلل بين ما هو موجود في أسفار العهد القديم ومثيلاتها من أسفار التّاريخ الكثيرة الّتي كان أمرها لا يخلو، في أحايين كثيرة، وعند الكثير من المشتغلين بصناعة التّاريخ، من إقحام الكثير من الإسرائيليّات الّتي لم تثبت، وإنّما زيدت إمّا لهدف التّضليل أو التّهويل، أو غيرها من الأسباب المستترة... وفي الأخبار الّتي ذكرتها من طريق ابن جرير، يتّضح للعيان أنّ الرّجل إنّما كان يورد بدل الرّواية الواحدة روايات، وبدل الرّاوي رواة متعدّدين، حتّى يجمع أكثر ما يمكن من البراهين؛ غير أنّه . رحمه الله . لم يكن همّه أن يوازن بين هذه الرّوايات أو أن يجرح الأسانيد أو يعدّلها، وإنّما كان قصارى ما يقوم به أن يضع القارئ أمام خيار الاختيار بنفسه. ولعلّ القارئ إذا أعوزته ملكة التّمييز سيقف أمام هذه الرّوايات موقف من يعتبرها مادّة للمتعة باعتبارها قصّة أو مجرّد خبر أو ما شابههما؛ وما دام ذلك كذلك، فلن يكون همّه التّمحيص، أو تخريج الأحاديث إن وجدت، أو إرجاع الآيات إلى سورها إن ذكر بعضها، لأنّ هذه الأشياء إنّما ستكون منوطة بمحدّث نحرير أو عالم خبير. ثمّ إنّ طريقة المؤرّخين المسلمين في استثبات مادّتهم والاشتغال بعلمهم إنّما تختلف شكلا ومضمونا عمّا هو وارد في الأسفار؛ حيث أنّنا نجد بالأسفار ذكرا واحدا للخبر، وهذا الخبر لا يرد إلاّ في سياق وحيد وبسند وحيد، وعلّة ذلك . والله أعلم . أنّ تلك الأسفار في العهد القديم إنّما ينظر إليها على أنّها الحقيقة الكلّيّة المطلقة، لأنّ الّذي أملاها أو أوحاها إنّما هو الرّبّ الّذي لا يختلف القرءان ولا التّوراة على أنّه كلّم موسى عليه السّلام دون أن ينظر إليه؛ وفي القرءان الكريم أنّ موسى حين طلب من الله تعالى أن يراه، قال له جلّ ذكره: «إنّك لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإنّ استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صعقا.»

كان وهو يكتب يريد أن يأتي بشيء جديد لم يسبقه إليه أحد؛ وكان

يعي أنّه بمقارنته بين كتب التّاريخ الّتي هي من وضع بشر فانين وبين الأسفار أو غيرها من الكتب المعدودة فيما هو مقدّس في الأديان يمكنه أن يستخلص ما عجزت عن تجليته كلّ من هذه الكتب منفصلة بعضها عن البعض الآخر؛ ولكن تظلّ هناك مسائل، (كان يقول في نفسه)، لا بدّ من توضيحها والإشارة إليها؛ وأوّل هذه المسائل أنّ السّياقات ليست واحدة، كما أنّ الأطر الّتي تتنزّل فيها هذه الكتب ليست واحدة، ولو أنّ الأمر لا يخلو من أنّ بعض من كتب من المسلمين قد يكون اتّصل ببعض أهل الكتاب من المعتقدين في التّوراة، وقد كانت تجري بين الفريقين في الكثير من الأحيان مجادلات تنتهي بأن يأخذ أحد الطّرفين من الآخر، ويعلم بعض ما كان مجهولا لديه، فيسدّ الرّتق فيما كان يكتبه؛ وهكذا كان من شأن الرّؤية أن تتّسع في كلّ مرّة، وأن تتّصل عرى التّواصل؛ وكان المستفيد في كلّ مرّة هي هذه الكتب وهذه الأسفار، فيفصّل فيها ما كان مجملا، وبالشّروح عليها كان يذهب الغموض، وبالكتابة على الحواشي كانت تنجلي المشكلات تماما، وتصبح تلك الكتب معلومة للجميع، فيعمل من يريد العمل بها، ويتسنّى للفقيه أن يستخرج منها الأحكام، وللمتكلّم أن يستقي منها البراهين، وللأصوليّ أن يستدلّ بها على ما يلزمه من إثبات وحدانيّة الله وربوبيّته... (ورغم شغفه في أوقات بعينها ببعض مباهج الحياة اليسيرة إلاّ أنّه خلال تلك السّاعات الّتي كان يخصّصها لكتابته يتلبسّه عناد الخلوّ تماما إلى ما هو فيه والقبوع في غرفته، مكتفيا بالصّمت ومحاورة تلك الكتب الّتي كانت تتحوّل إلى كائنات من لحم ودم يحاورها ويبثّها أشجانه وتساؤلاته، وقلقه، وهواجسه الكثيرة؛ وكانت تلك الكتب، على صمتها وجمودها، لا تبخل عليه بالقرب، وكان يحسّ ذلك فيما كان ينكشف له من أسرار، ومن فتوحات، ومن مغاليق كانت تتراءى له مثبتة في أصول أبواب ضخمة كبيرة، ثمّ تتحرّك تلك المغاليق فجأة في تلك الأبواب وتجلّي له ما كان خافيا وراءها... ومن باب إلى باب، ومن

مجاز إلى مجاز، كان يرى ويتعجّب، ويستغرب استغراب من يعلم علم اليقين أنّ العلم لا يحدّ، ولكن مع ذلك حين يظفر بفتح جديد يساوره شعور بالنّدم أنّ المعرفة ليست نهائيّة وأنّه كلّما ظنّ أنّه اقترب من منبع المعرفة والكمال اكتشف أنّه ما يزال في بداية الطّريق... وكانت الأبواب لا تنتهي أبدا، والمغاليق تفضي إلى مغاليق جديدة؛ والغرفة الّتي كانت تسند وحدته كان يتصوّها في أوقات كثيرة قلعة من القلاع العصيّة، أو مخبأ من المخابئ كتلك المخابئ الّتي كان يخبّئ فيها اللّصوص كنوزهم؛ غير أنّ كنوزه هو لا تقدّر بثمن؛ وقد انضاف إليها كنز آخر هو أكبر من كلّ الكنوز ـ لم يكن يعلم الوقت تماما، وقد تطاولت عليه السّاعات، واستغرقته الكتابة الّتي كانت تتشعّب في كلّ مرّة؛ ولم يكن لديه إحساس ثابت بنهار كان يتصرّم أو ليل كان ينتشر يسيرا يسيرا فيغطّي على كلّ شيء، ويتسربل في أتونه كلّ ما كان ظاهرا في مملكة النّهار؛ والصّوت أو الطّرق على الباب، أو هكذا يخيّل إليه، لا يستطيع أن يؤكّد لنفسه أنّه كان يسمعه كشيء حقيقيّ لا مراء فيه؛ وربّما هذا ما جعله لا يتشجّع أن يترك أوراقه ويذهب إلى الباب لتفقّد من عساه يكون هذا الّذي يريد أن يقتحم عليه عزلته وانفراده، إن كان هناك من أحد أصلا؛ وكان قد ذهب بعيدا في المجازات الّتي كانت تتعقّبه، واجتاز أبوابا لم يعد يذكر عددها، وبانت له، ربّما في محيط خياله أو في الحقيقة الظّاهرة الّتي كانت هي تلك الأبواب والمغاليق وما يحيط بها من الأسرار الّتي كانت تأخذ في كلّ مرّة أشكالا لكائنات أو حيوانات صغيرة، أو وديان أو أنهار، أو جبال تغطّيها خضرة لم ير مثلها من قبل، وأشياء أخرى بمختلف الألوان والأحجام؛ وربّما لم يرها لا هنا ولا هناك، ولكن في المكان الّذي لم يكن يتصوّر أن تفاجئه منه؛ ولم يكن يظهر منه حين تطلّعت إليه سوى خلوّه وسهومه، وكانت هي تغرق في سوادها، وقد تنكرّت في زيّ طارئ من طارئي الخان حتّى لا يتعرّف عليها أحد؛ وكان هو رآها أو لم يرها، أو خيّل إليه أنّه لم يرها؛ أو ربّما لأنّه ظنّ

أنّ أحدا ممّن يعرفهم من غير الممكن أن يتجشّم مشقّة إزعاجه في ذلك الوقت. فلم يقدّر أنّ ذلك الصّوت أو الطّرق الّذي خيّل إليه أنّه سمعه عند الباب قد يكون حقيقيّا؛ وبدا له أنّه يراها أخيرا. ثمّ تراجع قليلا وعزا إلى عينيه نيّة خداعه؛ واستمرّ في تهويماته عبر الأبواب والمغاليق. وبينما كان يستعدّ لقطع مجاز لم يعد يذكر من هيأته سوى أنّه كان مضاء إضاءة خفيفة. وتحيط به أشجار سرو عالية. وفي نهايته كان هناك جدول يجري بماء مثل اللّجين؛ وعلى بساط من الحشائش الياقوتيّة. تراءت له على البعد في حلّة قشيبة بعد أن نزعت سوادها. وأشارت إليه قائلة. وقد التبست شفتاها اللّعساوان بابتسامة أضاء لها المجاز وما حوله:

- تعال.

وفي مسافة العيان. الّذي ليس بعده برهان؛ في تلك المسافة الّتي يرفدها الصّمت الّذي كان يتكثّف من حوله. صمت أبكم. جفول. مشاكس حين يريد. وعنيد حين لا يريد أن يفضي أو أن يفضح ما بداخله من أسرار تمور مورا. بدا لطاجيك أنّ المكان خال تماما. وأنّ بداخله. كما في خارجه في فضاء المكان الّذي هو غرفته. لم يكن هناك سوى عقله الباطن الّذي كان يزوّده بما يريد إملاءه أو كتابته؛ ثمّ تلي تلك المسافة من العيان مسافة أخرى. هي مسافة الوهم. وصمتها. وإشرافها عليه من أعالي لم يعتدها من قبل. فتحيط به من كلّ جانب وتملك عليه ليس صوابه فحسب ولكن كلّ أمره ولا تدع له مجالا لأن ينشغل بغيرها؛ ففي تلك المسافة بالذّات لحظها. رآها. كما لو أنّه يرى شيئا من وراء ستار أو من وراء حجاب. وكانت تظهر وتختفي. وتظهر وتختفي. كأنّما هي كائن وليست كائنا. أو هي حقيقة كانت تتداول مع الوهم الّذي كان يمدّها بكلّ طاقة هي في حاجة إليها للتّخفي والمناورة... وكان قلبه ينازعه إليها. وكان عقله يقول: «تريّث!!» فربّما كان كلّ الأمر مجرّد خطرة من الخطرات الّتي يفرزها في أغلب الأحيان ذهن مجهد

وقوى قد استغرقتها ليال بأكملها من التّعب والضّنى؛ وبين المسافتين (مسافة العيان ومسافة الوهم)، وبين المتوالين (حقيقة كانت أو خيالا)، وبين رغبتيه (رغبته أن يكون ما يراه هو ما يرغب فيه حقّا ورغبة أخرى تجعله يودّ لو تنتفي عيناه تماما لأنّهما ربّما تكونان تخدعانه أو ترومان أن تلعبا معه لعبة ثقيلة ليس له قبل بما يمكن أن تجرّه عليه من ضياع وقته هدرا) ـ بين ذلك جميعا، كانت تشير إليه؛ وظلّل عينيه، ورأى فيما يرى النّائم أو اليقظان كأنّ تلك الّتي تجلس على ذلك البساط الياقوتيّ ترميه بكلّ وجد قلبها، ترميه بكلّ الآهات الدّفينة في أعماقها الّتي لم يكن يعلم عنها شيئا؛ وكانت أيضا ترميه بحاءات الحبّ من حلق كان يترقرق كأنّما بشدو لم يسمع مثله من قبل في حياته، وترميه بآهات الوجدان الّذي كان يخرج مع الكلام ويسافر إلى وجدانه فيلتبس بالتياثات حنينه وأشواقه، وترميه بحروف كثيرة، حرف في إثر حرف، ولم يكن يعلم تماما من أمرها شيئا حين كانت تفعل ذلك: هل كانت تبتسم؟ هل كانت تضحك؟ هل كانت قائمة؟ أو كانت جالسة؟ هل كانت إنسيّة أم جنّية؟ أم كانت هي نفس الشّخص في كلّ مرّة، بالإسم الّذي عرفها به في مكان لم يعد يذكر موقعه في خارطة ذاكرته أو تضاريس المدينة الّتي ضاعت وتلاشت في ذهنه؟ أو هي شخوص كانت تروم أن تسجنه في إطار من سلطتها فتنزع عنه كلّ ملكات تمييزه ملكة بعد ملكة، وترسله إلى أقيانوسات ومجاهل من دونها مغاليق كتلك المغاليق الّتي كان يديرها في أبواب خياله، ومن دون المغاليق مجازات لا يحصي عددها إلاّ الله تعالى... وفي فسحة من زمن أثيريّ، رأى في نومته أو يقظته، في تهويماته أو أسفار وعيه، كما لو أنّ شيئا مثل عينيها يسافر إليه؛ وليس عيناها فحسب، بل وفمها أيضا، ويداها، وكلّ فتنتها ومفاتنها وهي تحوطه إحاطة السّوار بالمعصم، وكانت وهي تفعل ذلك تتعلّق بأفقها أصوات لم يسمع أجمل منها فيما ولّى من سني عمره؛ وخيّل إليه أنّ جوقة

بأكملها، أو أنّ كورسا، بآلاته الكثيرة كان يغنّي من حوله؛ وبين مسافة الصّمت العصيّ والكلام المتأنّي، بين الصّمت الجفول أحيانا والكلام الحيّ، نبع من لاشيء العدم، فم رقيق، دقيق، شفتاه كأنّهما هلالان اختفيا لشهور وشهور ثمّ ظهرا أخيرا أشبه بخطّين بالكاد يراهما النّاظر إليهما، غير أنّ فيهما فتنة لا توصف، ولم يكن مع الفم شيء آخر، فم ولا جسد، ولا كلام أيضا، والصّمت الّذي كان يحفّه كان صمتا موحيا، أو هو صمت ينتظر الوقت المناسب ليتدفّق بما يمور به باطنه؛ وقد سمع أخيرا، في الوقت الّذي كان فيه الكورس والجوقة يعلوان بطبقة قرار تتلوها طبقة جواب، وهكذا؛ سمع كلاما أشبه بالتّرتيل أو الوجد، وحينما نظر إلى الأعلى، كان مرتّل، متسربل في البياض، يقول وكأنّما يبكي، ويقول وكأنّه يريد أن يسمع العالم، ويقول وكأنّه يتجرّد من كلّ شيء إلاّ من أثيريّة روح كانت تندف بجناحيها وتحلّق في أجواز الفضاء الّذي لا يرى ـ وكان المرتّل يغنّي، بلا غناء، ويبكي، دون بكاء، وكان الحبّ قد صار وجدا، وكلّ شيء صدر عنها كان يورد من جديد، ليلتئم مع كينونتها ووجودها، فرآها تستمع وقد استحالت إلى كوكب في السّماء، أو نجمة من النّجوم الجاريات دون توقّف، أو حوريّة من الحوريّات الّتي كانت تشفّ بما تحت إهابها؛ وبكى مع المرتّل، ولكنّ بكاءه كان بكاء تطغى عليه العبرات والغصص والدّموع، وكان يغنّي معه، مع المرتّل، وكان غناؤه نشوة ونشيجا في آن: «من حرّ الشّوق بعينيها، عمّد ترتيل الصّمت بقلبي، يا ربّ الصّمت العلويّ الأدنى، حرّقني في أكناف سناها وسلواها، وانثر. يا ربّ الشّعرى . على ضلعي من نار لظاها، حميّاها أذقني لأعرف أوّار الشّكوى، وأعذر في الحبّ كلّ العشّاق، ومن ذاقوا صبابات الفتنة والصّبوة: تختال أمامي، تخطر كالمهرة تشبّ، ببنان تسكب من حرّ كياني، عيناها الماء الضّالع في فوضى الكلمات، قراها الجوع الدّائم، والنّظرة تلو النّظرة لا تدعو، وتقتل بالرّمش المتهدّل، لا تدعو وتحيي بوعد الوصل، هي الأولى وأخراي المنذورة من طعم

الفصح ولون الخمر وبأساء الجسد المتلفّع بالشّوك وورد الشّعراء، هي الهجعة والهجدة، ما يعرو دمائي، ويجيش بخترفة الأحلام، أراها بحاءاتي الخمسين وازدادت عشرا، وباءاتي العشرين وانثالت عسرا، من بعد الإعسار سوار، وإساري عوار ودوار، إعساري يداها وسناها، وبريق محيّاها... إعساري بلاياها... رباها وسهوب مداها... وإعساري أستدعي خطاها، وأراقب في اللّيل بريق اللّمع بلألاها، فلا فمها الخمريّ، لميّاها تقيني فأوقّى حرفيها وحرّاها، ولا اللّيل المسدول المكحول يفرشني وطأه، يكسوني كما اللّحم المترع يكسو عظام الخلق، بعيد الإتراب، ومجّ النّطفة في أصل الظّلمات السّرّية، ثمّ الإنشاء من المضغة، حتّى العمر المرذول يوافي، أو قطع للعمر بمحكم آيات الهلكه، وهي شقائي ودوائي، وهي الدّاء المستأصل من شجر الزّقّوم، المزروع بعمق خوائي، وهي الجلوة والحلكة، وهي الأسماء بلاءات التّعريف جميعا، وهي الإنكار وكلّ التّنكير، وهي إذا قمت أراها، وإذا نمت أراها، وإذا صلّيت أرى الآيات تعبر فاها، أراها وأراها، تركع تسجد، يا ربّ كأنّي أنا، فاغفر، يا ربّ لي ولها، جرّعني هواها، واقتلني إذا متّ شهيد حماها، وانثر. يا ربّ الشّعرى. على ضلعي من نار لظاها، حميّاها أذقني لأعرف سرّ الخوف وآلام الشّعراء!!!!!»

وسمعها، أو خيّل إليه أنّه سمعها تقول:

- تعال.

ورام أن ينظر ناحية الجهة الّتي ربّما تصوّر أنّها قابعة فيها؛ وحينما فعل أخيرا رآها في كلّ مكان، وكأنّ عينيه تخدعانه مرّة أخرى فتصوّر انها له كأنّها انعكاس لصورة على عدد لا يحصى من المرايا؛ فأغمضهما بعنف وقد أصبح يخشى على نفسه من التّشظّي الّذي لو طال به سيتذّرى كما تتذرّى حبّات من القمح في يوم كثرت رياحه وأعاصيره؛ وبينما هو في غفوته تلك توقّف صوتها عن النّداء وترافق ذلك مع صوت المرتّل، وهو يبكي من جديد، أو هو يغنّي، أو هو ينشج، أو يشطح

على طريقته الّتي لا يحذقها سواه: «تغمرني. السّاعة. أشيائي بحجمي إذ أراني ممكنا؛ لا حرف للوصف، ولا صوت يقول البوح عكسا... لا اختبار... لا اختيار... كلّ شيء ممكن: حتّى الشّعور عارض... تمحوه أطياف النّهار... الخوف لا يكفي. إلهي! فامنح القلب الحزين شوقه، وأعطه، مجّده بنور، وانفض الغبراء عنه، سمّه من فيضك العلويّ أسماء، واسقه فصل الخطاب... الحرف لا يكفي، وقلبي ضالع في التّيه. لا تكفي الحروف كلّها... ماذا أسمّي هدبها؟ ماذا أسمّي شوقها... شوقي لها؟! كيف أسمّي همسها... ترنيمها... ماذا أسمّي نزعها قلبي، ولثمي ريقها... تغريدها...؟! كلّ الحروف لعنة... كلّ الكلام، واللّغه!! يا ربّ، أنسى إذ أراها أنّ لي قلبا... وحرفا واحدا... وأنّ لي حدّا، وشوقا واحدا... أنسى إلهي أنّني من طين هذي الأرض، من أعطافها الدّنيا، ومن ماء مهين آسن... لا ذنب لي. يا ربّ. إلاّ أنّني أحببتها؛ لكنّني. يا ربّ. لا أدري لأيّ اسم وصفها... لأيّ نعت سحرها... لا ذنب لي. يا ربّ. إلاّ أنّني عرّابها وسرابها... لا ذنب يكفي ذنبها الفتّان: فأعطني حرف الحروف كي أسمّي هدبها شيئا جديدا... شيئا بحجم الأخيله... كي أعتلي أشواقها مملكة، كلّ الهروب خلفها شوق إلى المجيء واحتفال بانشطار الأزمنه... صوتي هيوليّ العجيج، مثقل بالرّوع، مقصوص الشّفه!! ما ضرّ لو تمسي الحروف نغمة الكون، فتبني من سقوطي كلّ إمكان السّكون، تعتلي في سمّ روحي عجزها للقول... صه!! صمتا لئلاّ... لو... وإنّي... آه... خوفي... والسّقوط: هذه حمّى العذاب، أن ترى بحرا، فيأتي الماء رقراقا، وتمتصّ المياه شوقك الظّامي... تروم الكشف والإفصاح، لكن لا ضجيج غير أشتات من الحرف الرّكيك... هذه حمّاي: كيف أشتفي من لغة تضيق بالصّمت وأحرفها العتيقة... كيف يمسي صوتها نايا... ووجهها مرايا في بياض الياسمين... والشّفه: خطّين من طيب يثير القلب... يأتيني بصمت الكون... يعطيني الخفايا... والمرايا... وانشطار الأزمنه... ثمّ اللّغه!!»

وسمعها تقول للمرّة الثّالثة:

- تعال.

وحينما ولّى وجهه قبلها كانت تحلّق على علوّ ليس بالمرتفع تماما ولا المنخفض تماما؛ ولم تعد تلك الّتي خيّل إليه أنّها جاءت متنكرّة، ربّما من خلف الباب، أو من وراء مغاليقه ومجازاته، وإنّما كائن قد شفّ، وأصبح كلّه بياضا، ولم يكن به ما يعيب، لأنّه فارق تماما الجسد الّذي كانه، وما بقي منه روح أعادت تكوينه بأجزاء جديدة أخذت من شفافيّتها وأثيريّتها؛ وكان يتطلّع إلى كلّ ذلك بين رجاء ويأس، بين إقبال ونكوص، بين وعيه أنّ هناك غشاوات من سديم تغشّي عينيه، وأنّه يرى فعلا ما يراه بلا مراء، وهفت نفسه إليها، إلى عناقها في ذلك المسار الّذي يمضي صعدا إلى سماء من ورائها سماء، ومن وراء تلك السّماء سماوات؛ وفي طريقه إليها كان هو أيضا يتخفّف من عناصره الأولى، من خلاياه، وأنسجته، وعضلاته، ولحمه، ودمه، وكان يرى بأمّ عينيه أنّه يتحوّل إلى كائن أثيريّ يشبهها في كلّ شيء ـ والتقيا في المنتصف من كونهما، وكان مغناطيسهما يجذبانهما واحدهما إلى الآخر، وكان واضحا أنّ لقاء جديدا على الحدود، بلا عراقيل، ولا أصوات، ولا موانع، ولا إكراه، سيعيد صياغة تلك المجازات الّتي رآها تتحوّل إلى عرائش من الفضّة والذّهب، وتلك المغاليق تستبدل بأخرى دائمة البريق ولا تمنع القادم قبلها من الولوج إلى جنان من العقيق مليئة بطيور صادحة، وأنهار جارية، وفرش مبثوثة عليها غلمان وجوار لم ير أجمل منهم، ربّما في حياة أخرى فانية، وكانت هناك عطور ما أن تلج الأنوف حتّى تخدّرها، وأباريق قد اشتملت على خمور لا غول فيها ولا تأثيم، وكانت الخضرة في كلّ مكان؛ وحين اعتنقها اشتمّ فيها روائح الصّبا، ورأى في أقطابها الّتي لا تحدّها الحدود جمال الأزمنة الدّابرة، وأزمنة الحال، وأزمنة المآل؛ ورام الكلام فوجد أن القبلة الّتي طبعها على شفتيها كانت أبلغ من كلّ كلام الأرض... وكان الشّيخ هناك، كان

النّور على مبعدة منه، على مبعدة منهما، وبدا له أنّه يبتسم، وقبل أن يتكلّم، مدّ يده إلى وجهه الّذي لم يكن باديا، كأنّه يهمّ بتعديل شيء ما، أو تجلية حلقه قبل أن يقول:

- مبارك، هذا اللّقاء الّذي سبق اللّقاء!!

كان يريد أن يسأل، أن يقول:

- أيّ لقاء؟!

ولم يكن يبد عليها هي أنّها رأت الشّيخ، أو لحظت ذلك النّور، واستغربت قليلا نفرته، وهما على ما هما عليه من الانسجام، ولكن لم يلبث ذلك إلاّ قليلا لأنّ ذلك النّور الّذي نبع فجأة قد اختفى فجأة... وكانت تلك الجوقة، وذلك الكورس، يغنّون من حولهما، وهما يرقيان، وهما يجوزان: هي إلى سحابات قد وارتها تماما؛ وهو، حين فتح عينيه مرّة أخرى، كانت ذبالة الشّمعة الّتي يستأنس بنورها وهو يكتب قد انطفأت، وطغت الظّلمة على كلّ الغرفة... لم يستغرب ذلك الفراق المفاجئ لأنّه كان منذ االبداية غير متوقّع لذلك الظّهور، ولا ذلك الزّواج الأثيريّ الّذي حمله على كفّه إلى ذرى نشوة لم يذق الأحياء مثلها من قبل...!!! وانصرفت عيناه لاإراديّا إلى أسفاره وكتبه، وحينما جالتا على الأوراق وما كان كتبه بدا له أنّ هناك من الكتابة ما هو أكثر بكثير ممّا كان كتبه؛ وأنّ هناك كتابة ليس على دفاتره وحسب، وإنّما كذلك على الحواشي؛ وما استغربه حقّا أنّ تلك الكتابة كانت تتكلّم، أو هكذا خيّل إليه؛ أو حتّى يضع الحروف على النّقاط بشكل صحيح، كانت تلك الكتابة تنضح بآلاف الأصوات الّتي تتكلّم في وقت واحد، وقد طغى عليها صليل سيوف، واشتباك رماح، والتحام جنود، ومنجنيقات كانت تقذف في الهواء عشرات الحجارة باتّجاه قلاع غاية في الضّخامة والطّول... وكان صوت يقول، ويردّد في كلّ مرّة، فتتردّد نبراته حتّى تبلغ عنان السّماء:

- إنّه يوم من أيّام الله... الصّبر الصّبر... إنّما هو صبر ساعة وبعد

ذلك النّصر إن شاء الله...!!

كان ذلك صوتا مألوفا لديه، وإن كان غريبا بعض الشّيء؛ ورغم بعده فقد كان قريبا منه، وكأنّه يسمعه من الغرفة؛ وأرهف سمعه وهو يشرئبّ ناحية الجهة الّتي بدا له أنّ الصّوت آت منها، فألفاه يلتبس بأصوات أخرى، وأنّ تلك الأصوات كانت من القوّة بحيث كانت كافية لتقويض كلّ شيء، ليس فقط القلاع والحصون، بل واستئصال كلّ شيء في طريقها... وسمع صوته ثانية، صوت ذلك الرّجل (إن كان رجلا) الّذي كان سمعه أوّل مرّة، وكأنّه يتلو شيئا، أو يترنّم بشيء، أو يأسف على شيء، أو يريد فقط أن يذكّر نفسه حتّى لا ينسى:

- قال موسى، نبيّ الله، وكنت أنا ساعده الأيمن؛ وكان جميع بني إسرائيل ميّالين إلى تكذيبه، وحرصت أنا وكالب أن نكون معه... صحيح، كان معه أخوه هارون، وكان الرّبّ قبل ذلك معه، ولكن كان لا بدّ أيضا من عدد وعدّة، ومن عزيمة ونحن نروم دخول الأرض المقدّسة الّتي كتبها الرّبّ لنا... قال لهم موسى: «إنّ الرّبّ وعدني!» قالوا: «وما يدرينا؟» ولم يكن ذلك منهم تكذيبا له، ولكن تثاقلا عليه ومماطلة له لما كانوا يعلمون من قوّة وبأس من أمروا بمحاربتهم؛ وقالوا له: «اذهب أنت وربّك وأريانا ماذا بإمكانكما فعله...» وتلبّثوا في أماكنهم، فحرّم الله عليهم دخول الأرض الّتي وعدهم إيّاها وابتلاهم بالتّيه ـ وإنّي، وأنا أهمّ بتحقيق الوعد ودخول أرض الجبابرة، لتدمع عيناي لأنّ معلّمي ومولاي الّذي لازمته طوال سني عمري قد قضى قبل أن تتكحّل عيناه برؤية ما يراه تابعه وخادمه الآن؛ وإنّي لأذكر كلّ ما قاله لهم، وكان يعيد في كلّ مرّة، ومرّة بعد مرّة، أمر الرّبّ عليهم، وكان يخوّفهم، وكانوا كلّما ألحّ عليهم ازدادوا استهانة بأمر الله، وكانوا يقولون، بينهم وبين أنفسهم، وكلّما خلا أحدهم إلى نفسه: «ليذهب الله ويقاتل عنّا، فلا قبل لنا بجبابرة الكنعانيّين!!» وقال موسى، نبيّ الله: «[1]«ثُمَّ تَحَوَّلْنَا وَارْتَحَلْنَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ عَلَى طَرِيقِ بَحْرِ سُوفَ كَمَا كَلَّمَنِي الرَّبُّ، وَدُرْنَا بِجَبَلِ سِعِيرَ أَيَّامًا

كَثِيرَةً. ٢ثُمَّ كَلَّمَنِي الرَّبُّ قَائِلاً: ٣كَفَاكُمْ دَوَرَانٌ بِهذَا الْجَبَلِ. تَحَوَّلُوا نَحْوَ
الشِّمَالِ. ٤وَأَوْصِ الشَّعْبَ قَائِلاً: أَنْتُمْ مَارُّونَ بِتُخْمِ إِخْوَتِكُمْ بَنِي عِيسُو
السَّاكِنِينَ فِي سِعِيرَ، فَيَخَافُونَ مِنْكُمْ فَاحْتَرِزُوا جِدًّا. ٥لاَ تَهْجِمُوا عَلَيْهِمْ،
لأَنِّي لاَ أُعْطِيكُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَلاَ وَطْأَةَ قَدَمٍ، لأَنِّي لِعِيسُو قَدْ أَعْطَيْتُ
جَبَلَ سِعِيرَ مِيرَاثًا. ٦طَعَامًا تَشْتَرُونَ مِنْهُمْ بِالْفِضَّةِ لِتَأْكُلُوا، وَمَاءً أَيْضًا
تَبْتَاعُونَ مِنْهُمْ بِالْفِضَّةِ لِتَشْرَبُوا. ٧لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ قَدْ بَارَكَكَ فِي كُلِّ عَمَلِ
يَدِكَ، عَارِفًا مَسِيرَكَ فِي هذَا الْقَفْرِ الْعَظِيمِ. اَلآنَ أَرْبَعُونَ سَنَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ
مَعَكَ، لَمْ يَنْقُصْ عَنْكَ شَيْءٌ. ٨فَعَبَرْنَا عَنْ إِخْوَتِنَا بَنِي عِيسُو السَّاكِنِينَ
فِي سِعِيرَ عَلَى طَرِيقِ الْعَرَبَةِ، عَلَى أَيْلَةَ، وَعَلَى عِصْيُونَ جَابِرَ، ثُمَّ تَحَوَّلْنَا
وَمَرَرْنَا فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةِ مُوآبَ.
٩«فَقَالَ لِي الرَّبُّ: لاَ تُعَادِ مُوآبَ وَلاَ تُثِرْ عَلَيْهِمْ حَرْبًا، لأَنِّي لاَ أُعْطِيكَ
مِنْ أَرْضِهِمْ مِيرَاثًا، لأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أَعْطَيْتُ «عَارَ» مِيرَاثًا. ١٠اَلإِيمِيُّونَ
سَكَنُوا فِيهَا قَبْلاً. شَعْبٌ كَبِيرٌ وَكَثِيرٌ وَطَوِيلٌ كَالْعَنَاقِيِّينَ. ١١هُمْ أَيْضًا
يُحْسَبُونَ رَفَائِيِّينَ كَالْعَنَاقِيِّينَ، لكِنَّ الْمُوآبِيِّينَ يَدْعُونَهُمْ إِيمِيِّينَ. ١٢وَفِي
سِعِيرَ سَكَنَ قَبْلاً الْحُورِيُّونَ، فَطَرَدَهُمْ بَنُو عِيسُو وَأَبَادُوهُمْ مِنْ قُدَّامِهِمْ
وَسَكَنُوا مَكَانَهُمْ، كَمَا فَعَلَ إِسْرَائِيلُ بِأَرْضِ مِيرَاثِهِمِ الَّتِي أَعْطَاهُمُ الرَّبُّ.
١٣اَلآنَ قُومُوا وَاعْبُرُوا وَادِيَ زَارَدَ. فَعَبَرْنَا وَادِيَ زَارَدَ. ١٤وَالأَيَّامُ الَّتِي سِرْنَا
فِيهَا مِنْ قَادَشَ بَرْنِيعَ حَتَّى عَبَرْنَا وَادِيَ زَارَدَ، كَانَتْ ثَمَانِيَ وَثَلاَثِينَ سَنَةً،
حَتَّى فَنِيَ كُلُّ الْجِيلِ، رِجَالُ الْحَرْبِ مِنْ وَسَطِ الْمَحَلَّةِ، كَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ
لَهُمْ. ١٥وَيَدُ الرَّبِّ أَيْضًا كَانَتْ عَلَيْهِمْ لإِبَادَتِهِمْ مِنْ وَسَطِ الْمَحَلَّةِ حَتَّى فَنُوا.
١٦«فَعِنْدَمَا فَنِيَ جَمِيعُ رِجَالِ الْحَرْبِ بِالْمَوْتِ مِنْ وَسَطِ الشَّعْبِ،
١٧كَلَّمَنِي الرَّبُّ قَائِلاً: ١٨أَنْتَ مَارٌّ الْيَوْمَ بِتُخْمِ مُوآبَ، بِعَارَ. ١٩فَمَتَى قَرُبْتَ
إِلَى تُجَاهِ بَنِي عَمُّونَ، لاَ تُعَادِهِمْ وَلاَ تَهْجِمُوا عَلَيْهِمْ، لأَنِّي لاَ أُعْطِيكَ مِنْ
أَرْضِ بَنِي عَمُّونَ مِيرَاثًا، لأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أَعْطَيْتُهَا مِيرَاثًا. ٢٠هِيَ أَيْضًا
تُحْسَبُ أَرْضَ رَفَائِيِّينَ. سَكَنَ الرَّفَائِيُّونَ فِيهَا قَبْلاً، لكِنَّ الْعَمُّونِيِّينَ
يَدْعُونَهُمْ زَمْزُمِيِّينَ. ٢١شَعْبٌ كَبِيرٌ وَكَثِيرٌ وَطَوِيلٌ كَالْعَنَاقِيِّينَ، أَبَادَهُمُ

الرَّبُّ مِنْ قُدَّامِهِمْ، فَطَرَدُوهُمْ وَسَكَنُوا مَكَانَهُمْ. [٢٢]كَمَا فَعَلَ لِبَنِي عِيسُو
السَّاكِنِينَ فِي سِعِيرَ الَّذِينَ أَتْلَفَ الْحُورِيِّينَ مِنْ قُدَّامِهِمْ، فَطَرَدُوهُمْ
وَسَكَنُوا مَكَانَهُمْ إِلَى هذَا الْيَوْمِ. [٢٣]وَالْعُوِّيُّونَ السَّاكِنُونَ فِي الْقُرَى إِلَى
غَزَّةَ، أَبَادَهُمُ الْكَفْتُورِيُّونَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ كَفْتُورَ وَسَكَنُوا مَكَانَهُمْ.
[٢٤]«قُومُوا ارْتَحِلُوا وَاعْبُرُوا وَادِيَ أَرْنُونَ. اُنْظُرْ. قَدْ دَفَعْتُ إِلَى يَدِكَ
سِيحُونَ مَلِكَ حَشْبُونَ الأَمُورِيَّ وَأَرْضَهُ. ابْتَدِئْ تَمَلَّكْ وَأَثِرْ عَلَيْهِ حَرْبًا.
[٢٥]فِي هذَا الْيَوْمِ أَبْتَدِئُ أَجْعَلُ خَشْيَتَكَ وَخَوْفَكَ أَمَامَ وُجُوهِ الشُّعُوبِ
تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ. الَّذِينَ يَسْمَعُونَ خَبَرَكَ يَرْتَعِدُونَ وَيَجْزَعُونَ أَمَامَكَ.
[٢٦]«فَأَرْسَلْتُ رُسُلاً مِنْ بَرِّيَّةِ قَدِيمُوتَ إِلَى سِيحُونَ مَلِكِ حَشْبُونَ
بِكَلاَمِ سَلاَمٍ قَائِلاً: [٢٧]أَمُرُّ فِي أَرْضِكَ. أَسْلُكُ الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ، لاَ أَمِيلُ
يَمِينًا وَلاَ شِمَالاً. [٢٨]طَعَامًا بِالْفِضَّةِ تَبِيعُنِي لآكُلَ، وَمَاءً بِالْفِضَّةِ تُعْطِينِي
لأَشْرَبَ. أَمُرُّ بِرِجْلَيَّ فَقَطْ. [٢٩]كَمَا فَعَلَ بِي بَنُو عِيسُو السَّاكِنُونَ فِي سِعِيرَ،
وَالْمُوآبِيُّونَ السَّاكِنُونَ فِي عَارَ، إِلَى أَنْ أَعْبُرَ الأُرْدُنَّ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَانَا
الرَّبُّ إِلهُنَا. [٣٠]لكِنْ لَمْ يَشَأْ سِيحُونُ مَلِكُ حَشْبُونَ أَنْ يَدَعَنَا نَمُرَّ بِهِ،
لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ قَسَّى رُوحَهُ، وَقَوَّى قَلْبَهُ لِكَيْ يَدْفَعَهُ إِلَى يَدِكَ كَمَا فِي
هذَا الْيَوْمِ. [٣١]وَقَالَ الرَّبُّ لِي: اُنْظُرْ. قَدِ ابْتَدَأْتُ أَدْفَعُ أَمَامَكَ سِيحُونَ
وَأَرْضَهُ. ابْتَدِئْ تَمَلَّكْ حَتَّى تَمْتَلِكَ أَرْضَهُ. [٣٢]فَخَرَجَ سِيحُونُ لِلِقَائِنَا هُوَ
وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ إِلَى يَاهَصَ، [٣٣]فَدَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا، فَضَرَبْنَاهُ
وَبَنِيهِ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ. [٣٤]وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ، وَحَرَّمْنَا مِنْ كُلِّ
مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. لَمْ نُبْقِ شَارِدًا. [٣٥]لكِنَّ الْبَهَائِمَ نَهَبْنَاهَا
لأَنْفُسِنَا، وَغَنِيمَةَ الْمُدُنِ الَّتِي أَخَذْنَا. [٣٦]مِنْ عَرُوعِيرَ الَّتِي عَلَى حَافَةِ وَادِي
أَرْنُونَ وَالْمَدِينَةَ الَّتِي فِي الْوَادِي، إِلَى جِلْعَادَ، لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ قَدِ امْتَنَعَتْ
عَلَيْنَا. الْجَمِيعُ دَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا. [٣٧]وَلكِنَّ أَرْضَ بَنِي عَمُّونَ لَمْ
نَقْرَبْهَا. كُلَّ نَاحِيَةِ وَادِي يَبُّوقَ وَمُدُنَ الْجَبَلِ وَكُلَّ مَا أَوْصَى الرَّبُّ إِلهُنَا.»

والتبس الصّوت في ذهنه بصوت آخر، في ذلك التّيه الكبير، وكأنّما الحرب الّتي كانت اندلعت فجأة قد خمدت أخيرا، وانهزم من انهزم،

وانتصر من انتصر، وبدل القلاع والحصون، عاد التّيه من جديد، وكأنّ الوعد الّذي كان يدفع دائما إلى الأمام، قد بدأ يشدّ إلى الخلف، إلى روابي التّيه، وآطام المهامه، لا ليأخذ بني إسرائيل إلى أرض الوعد، وإنّما ليأخذه هو، أو يأخذ شخصا آخر كان رآه في زمن من الأزمنة، وفي مكان من الأمكنة الكثيرة الّتي باتت في ذهنه أكثر من أن يحصيها، إلى صومعة الظّلال، إلى مواقف المخاطبة، وآثار الشّهود، بعيدا عن المحاميل، والعوارض الّتي كانت طوال الوقت تشدّه إلى مجاثم الشّهوة وأوظار الجسد... وكان مكتوبا عليه، أو مكتوبا عليهما، لأنّه حين ظلّل عينيه بيديه، رأى بدر النّور غير بعيد عنه، وبدل الشّيخ الّذي كان يجيئه في كلّ مرّة، كان هناك شخص آخر، عالي الهمّة في ثياب بيض لم ير أجمل منها في حياته، وكانت لحيته الطّويلة البيضاء تصل إلى منتصف صدره؛ وكان يبدو عليه أنّه مستأنس في ذلك الّتيه، في صومعته؛ ورغم انعزاله وانفراده، وإيثاره البعد، لم يكن يفته شيء ممّا حوله، وكان يعرف كلّ شيء وقع في الأزمنة الدّابرة، أو الأزمنة الحاضرة، وكان يعرف كلّ الأمكنة، وكلّ حدث وحادث، وكلّ عرض وجوهر؛ وكان يعرف الكائنات والمكوّنات، والأشكال والهلاميّات، والمتجسّد وغير المتجّسد، ويروي عن الفلاسفة والعلماء، فلاسفة وعلماء سمع بهم وآخرين لم يسمع بهم في حياته؛ وكان يحكي عن النّجوم وما تقوله، وعن السّماء وما تظلّه، والأرض وما تقلّه ـ ويعرف لغة الماء، ولغة الطّير ولغة الوحش، ويكشف سرّ الأعداد، وما تسرّه عقول العباد بمجرّد أن ينظر في أعينهم؛ وكان قليل النّوم بالنّهار، كثير القيام في ليل لا دليل فيه ولا مؤنس؛ وحين عاشره لأيّام، لم يره يأكل أو يشرب، فسأله:

- مولاي، لم أرك تأكل؛ أفلا يموت من لا يأكل؟

قال له، وهو يبتسم ابتسامة فيها كلّ شيء يعلمه وكلّ شيء لا يعلمه، وكانت بالأسرار مثقلة، وبين ألغاز الوجود معلّقة:

- ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان.

وقال له بدر النّور:

- هذا ما قاله يسوع في تعاليمه...

فقاطعه في غير شدّة ولا وحشة:

- وهكذا قال غيره، عليه السّلام.

وقال له بدر النّور مرّة أخرى:

- مولاي، لم أرك تشرب؛ أفلا يموت من لا يشرب؟

فأجابه:

- من كان شأنه ما أنا فيه من وجد وهيام، وتقلّب في أمواج النّور، فلا حاجة له في ماء يهب ذهاب غلّة للحظات ويترك ظمأ مقيما... وأنا آكل وأشرب، كأيّكم، ولكن لا تراني أفعل ذلك. فمن يطعمني يطعمني وهو بربّي، ولا يشغلني عن ذكري، ومن يسقيني يسقيني، وهو أحنّ عليّ من نفسي، ويسقيني، فلا يريني؛ وأجدني شبعان من غير طعام، وريّان من غير ماء؛ وأنا .كما ترى. صحيح البدن معافى...

وبدا لبدر أن يسأله مرّة أخرى؛ ويسأله مرّات ومرّات لما كان يرى من غرابة أمره، فأومأ إليه أن يتوقّف؛ وسأله:

- ماذا تعرف عن المواقف؟

قال بدر:

- المواقف، يا مولاي، هي مواقف. موقفي بين يديك موقف؛ وموقفك حيث أنت موقف.

فقال الشّيخ، وهو يبتسم هذه المرّة ابتسامة قد غطّت كلّ وجهه:

- تلك، يا ولدي، مواقف أهل الدّنيا.

سأله:

- وهل هناك غيرها؟

قال:

- أجل.

سأله:

- فما هي؟

قال:

- مواقف أهل العرفان.

سأله:

- فمن هم أهل العرفان؟

قال:

- الّذين جمعوا في عرفانهم بيان غيرهم وبرهانهم، وهم أهل الله وصفوته من خلقه.

سأله:

- وكيف يعرف أهل العرفان أنّهم أهل العرفان؟

قال:

- هو حدس يلقيه الله في قلوبهم، فيعلمون أنّ قلوبهم بالله معلّقة؛ وأنّ دنيا غيرهم هي غير دنياهم، وأنّ دنياهم هي دنيا مونقة لا تحيط بها أذهان من تعلّقت قلوبهم بزائل الأشياء وعارضها.

وسأله:

- مولاي، وهل أنت من أهل العرفان؟

فأجابه الشّيخ:

- أنا من أهل المواقف... مازلت أجهد في مخاطبات المبتدئين لتوصلني إليهم... أنا، يا ولدي، مازلت أروم الرّمز والإشارة لتفصح لي عن مكنوني، وتحملني من ضفاف المياه الهدّارة إلى ضفاف الأسرار الموّارة...!!!

وأدهشه منه ما كان يعلمه عنه، فسأله:

- وأنت تعلم ما تعلم، ممّا لا يعلمه غيرك في ألف عام، وتقول إنّك ما تزال في المبتدئين؟

فقال له الشّيخ:

- لو عرفت أهل العرفان، يا ولدي، لوجدتني أتضاءل أمامهم. إنّي

أجهد أن أكون مثلهم أو تابعا لهم، يرضيني منهم أن أنفض الغبار عن حذاء أحدهم أو أظفر بقبلة من شملته.

وبدا له أن يسأله عن الوصول، وسمعه يذكر المخاطبات، فاعتقد أنّ هذه موصلة إليه، فأراد أن يسأله عنها:

- وما المخاطبات الّتي ذكرت، يا مولاي؟

قال:

- هي كلام.

سأله:

- مثل الكلام؟

قال:

- مثله وليست مثله.

سأل بدر:

- هل هذا لغز؟

قال له الشّيخ:

- وهل ما نحن فيه سوى ألغاز، يا ولدي.

قال:

- صفها لي.

قال الشّيخ:

- فرادى، واحدة واحدة، أو مجتمعة؟

قال بدر النّور:

- شأنك، يا مولاي!

قال الشّيخ:

- استمع إذن:

«أوقفني وقال لي أنت ثابت ومثبت فلا تنظر إلى ثبتك فمن نظرك إليك أتيت وقال لي انظر إلى مثبتي ومثبتك تسلم لأنّك تراني وتراك وإذا كنت في شيء غلبت. وقال لي متى رأيت نفسك ثبتا أو ثابتا ولم ترني في

الرّؤية مثبتا حجبت وأسفر لك وجهك فانظر إلى ماذا بدا لك وماذا توارى عنك. وقال لي لا تنظر إلى الإبداء ولا إلى البادي فتضحك وتبكي وإذا ضحكت وبكيت فأنت منك لا منّي. وقال لي إن تجعل كلّ ما أبديت وأبديه وراء ظهرك لم تفلح فإن لم تفلح لم تجتمع عليّ. وقال لي كن بيني وبين ما بدا ويبدو ولا تجعل بيني وبينك بدوا ولا إبداء. وقال لي الأخبار الّتي أنت في عموم. وقال لي أنت معنى الكون كلّه. وقال لي أريد أن أخبرك عنّي بلا أثر سواي. وقال لي ليس لي من رآني ورآه بأرائته إنّما لي من رآني ورآه بأرائته. وقال لي ليس من رآني ورآه حكم رفق به، أليس فيه شرك لا يحسّ به. وقال لي لا يحسّ به كشف فيما رآني ورآه، حجاب في الحقيقة. وقال لي الحقيقة وصف الحقّ، والحقّ أنا. وقال لي هذه عبارتي وأنت تكتب، فكيف وأنت لا تكتب...»

كان فيما مضى غفلا، له الحياة، وليس وراء الحياة الّتي له شيء؛ وما الحياة الّتي كانت له سوى أصوات ترجّع، أصداؤها فقط تسمع، وما تحمله من جوهر يمضي، له أثر لا يستبينه؛ ولم يعرف، لأنّ نظره كانت تغشاه هنات ووسنات؛ ولم يسأل، حتّى التقى بالعدويّة والشّيخ الآخر، وبعض من كلّ من كان يرى، في نوم أشبه باليقظة أو يقظة أشبه بالنّوم ـ وكان ترك الوراء لمن هم وراءه، وولّى الشّطر الآخر للدّنيا، وما يترك من آثار تحمله ريح الوسن الغافي؛ ولم يسأل قبل عن الخافي... وبدت له الكلمات، والشّيخ القائم قبالته يحلّيها، لا تحمل شيئا يعرفه بعد؛ وبدا له أن يسأل. قال:

- من الموقف، يا مولاي، ومن الموقوف؟

نظر إليه الشّيخ وكأنّه يؤوب من سفر طويل؛ ثمّ قال:

- هما في العدد اثنان وفي الجوهر واحد؛ يكون الموقف هو الموقوف آنا والموقوف هو الموقف آنا؛ ولا يتكلّم سوى الموقوف الموقف ليعلم من أوقف أنّ عليه ان يتأدّب في حضرة مولاه...

سأله بدر النّور، وما تزال الأمور لديه معمّيات لا تفهم:

- فهل من أوقف يعلم أنّ من أوقفه مولاه؟

قال الشّيخ:

- نعم يعلم، لأنّه كان في منتصف الطّريق إليه؛ وإذا علم من أوقف أنّه في منتصف الطّريق علم؛ ولكنّ العلم الّذي علمه ناقص.

سأله:

- ولماذا هو ناقص؟

أجابه:

- لأنّه لم يعلم بعد من ناداه وناجاه؛ ولأنّه لم يعلم بعد أنّه هو المنادي والنّداء والمنادى، فلا شيء خارجه، والكلّ داخل في دائرة نجواه.

كان بدر النّور يحاول أن يفهم؛ وقد كان فهم أشياء، وما يزال المعنى وراء الكلمات مجهولا، في حاجة إلى دليل يدلّه إليه:

- فهل الموقف والموقوف واحد في جوهر؟

قال الشّيخ:

- نعم؛ لكن كان عليه، أو عليهما، أن يعلم، أو أن يعلما ذلك: هو الحقّ، وإذا علم الموقوف الحقّ، صار هو أيضا حقّا؛ ولكن أيضا ليس الموقوف دائما يعلم؛ وإذا لم يثبت في الرّؤية شيئا لم يثبت مولاه، وغاب عنه الجوهر والمعنى...

وقال:

«أوقفني في البحر ورأيت المراكب تغرق، والألواح تسلم، ثمّ غرقت الألواح، وقال لي لا يسلم من ركب. وقال لي خاطر من ألقى نفسه ولم يركب. وقال لي هلك من ركب وما خاطر. وقال لي في المخاطرة جزء من النّجاة، وجاء الموج ورفع ما تحته وساح على السّاحل. وقال لي ظاهر البحر ضوء لا يبلغ، وقعره ظلمة لا تمكن، وبينهما حيتان لا تستأمن. وقال لي لا تركب البحر فأحجبك بالآلة، ولا تلق نفسك فيه فأحجبك به. وقال لي في البحر حدود أيّها يقلّك. وقال لي إذا وهبت نفسك للبحر فغرقت فيه كنت كدابّة من دوابّه. وقال لي غششتك إن دللتك على

سواي. وقال لي إن هلكت في سواي كنت لما هلكت فيه. وقال لي الدّنيا لمن صرفته عنها وصرفتها عنه، والآخرة لمن أقبلت بها إليه وأقبلت به عليّ...»

وقال:

- ربّما أكون أخطأت المعنى؛ وما بحت به مجرّد شكّ منّي، فالموقوف هو السّامع والموقف حقّ، كان على السّامع أن يصل إليه...

قال بدر:

- وكيف له أن يصل إلى الحقّ دون أن يغرق في البحر؛ وقد حرّم عليه الرّكوب والمخاطرة...؟!!

قال الشّيخ:

- هناك وراء المجاز معنى؛ وبين الرّكوب والمخاطرة تكمن النّجاة، وبينهما أيضا يوجد الحقّ...

وقال:

- استمع.

«أوقفني في الوقفة وقال لي إن لم تظفر بي أليس يظفر بك سواي. وقال لي من وقف بي ألبسته الزّينة، فلم ير لشيء زينة. وقال لي تطهّر للزّينة وإلاّ نفضتك. وقال لي إن بقي عليك جاذب من السّوى لم تقف. وقال لي في الوقفة ترى السّوى بمبلغ السّوى فإذا رأيته خرجت عنه. وقال لي الوقفة ينبوع العلم فمن وقف كان علمه تلقاء نفسه، ومن لم يقف كان علمه عند غيره. وقال لي الوقف ينطق يصمت على حكم واحد. وقال لي الوقفة نوريّة تعرف القيم وتطمس الخواطر. قال لي الوقفة وراء اللّيل والنّهار وما وراءهما من الأقدار. وقال لي الوقفة نار السّوى فأن أحرقته بها وإلاّ أحرقتك بها. وقال لي دخل الواقف كلّ بيت فما وسعه، وشرب من كلّ مشرب فما روي، فأفضى إليّ وأنا قراره وعندي موقفه. وقال لي إذا عرفت الوقفة لم تقبلك المعرفة، ولم يتألّف بك الحدثان. وقال لي من فوّض إليّ في علوم الوقفة فإلى ظهره

أستند، وعلى عصاه اعتمد. وقال لي إن دعوتني في الوقفة خرجت من الوقفة، وإن وقفت في الوقفة خرجت من الوقفة. وقال لي ليس في الوقفة ثبت ولا محو ولا قول ولا فعل ولا علم ولا جهل. وقال لي الوقفة من الصّمديّة فمن كان بها ظاهره باطنه وباطنه ظاهره. وقال لي لا ديمومة إلاّ لواق، ولا وقفة إلاّ لدائم. وقال لي للوقفة مطلع على كلّ علم وليس عليها مطلع لعلم. وقال لي من لم يقف بي أوقفه كلّ شيء دوني. وقال لي الواقف يرى الأواخر فلا تحكم عليه الأوائل. وقال لي الوقفة تعتق من رقّ الدّنيا والآخرة. وقال لي الصّلاة تفتخر بالواقف كما يفتخر بها السّائر. وقال لي ما عرفني شيء، فأن كاد أن يعرفني فالواقف. وقال لي كاد الواقف يفارق كم البشريّة. وقال لي سقط قدر كلّ شيء في الوقفة فما هو منها ولا هي منه. وقال لي في الوقفة عزاء ممّا وقفت عنه وأنس ممّا فارقته. وقال لي الوقفة باب الرّؤية، فمن كان بها رآني زمن رآني بها وقف، ومن لم يرني لم يقف... وقال لي... وقال لي... وأنا أستمع إليه، وأحاول أن أثبته كما قال لي فتقوم بيني وبينه في كلّ مرّة كدورات أراها تغشى رؤياي إيّاه؛ وكنت أخوّض في لجّة غير لجّة البحر، وكان هو يدعوني، فقلت: مولاي... مولاي... أين أنت؟ وكان يدعوني ولم يجب. وأثبتّ صوته في باطني، فأغمضت عينيّ وانطلقت إليه، بوجداني، فاكتنفتني أسراره، وغرقت في بحاره، وأمسيت من بعد جهل به عالما، وله قاصدا، فأفرشني الوطأ، وأذهب عنّي كلّ ما كان بي من التّعب والضّنى... وأثبتّ الألواح وقد قامت بعد أن غرقت، والمركب كان على ماء البحر... وصعّدت...»

وراه بدر النّور يمضي صعدا، ويعرج في سموات كانت تنفتح أمامه شيئا فشيئا، ثمّ تواريه أخيرا؛ وفي مقامه الأوّل، كان رجلان قد باعدت بينهما المسافة، رغم أنّه كان يراهما دون فواصل تفصلهما أو حواجز تحجز بينهما؛ وكان الأوّل في الشّام، وكان الثّاني في بلخ أو أرض الرّوم... وابتدره الأوّل، الشّاميّ، قائلا:

- السّلام عليكم، يا ولدي.

وقبل أن يردّ عليه السّلام، رآه يحتجز في كمّ قفطانه نجوما ومذنّبات وأقمارا وشموسا، وأكوانا بأسرها، وكائنات بمختلف الألوان والأحجام؛ وكان يقول لمن يدخل في كلّ مرّة من التّصوّرات والمصوّرات: أوبي، فأنت الآن في الوحدة، ولا خلاف بين الأشياء، فالكلّ واحد... وقال لبدر:

- قد كنت جاهلا، يا ولدي، فجاءني، وقال لي اعزم وتوكّل...

فعزمت وتوكّلت، وكتبت الفتوحات، وقد كانت، يا ولدي، فتوحات حين قرأتها علمت أنّه لولا عزمة مولاي لما كنت قادرا على إيفائها حقّا أو استيفائها... وقد علمت أن المنشأ واحد وأنّ الخليقة واحدة، وأنّه لا فرق بين ما يبدو من ظاهر الشّرك وما خفي من الإيمان...

ونظر ناحية بلخ، وهو ما يزال يستمع إلى مريد الشّيخ أبي مدين، فرأى طرقا كثيرة، وأزقّة ملتوية؛ ورأى في إحدى تلك الطّرق، في زقاق من تلك الأزقّة، شابّا كأحسن ما يكون الشّبّان، ولم يروجهه، لأنّه كان يتّجه صوب بيت كان مغلقا، وعلى مبعدة منه رأى رجلا آخر يتبعه؛ ولكن لم يبد عليه أنّه أحسّ به؛ وسمع الرّجل الثّاني يقول للأوّل:

- انتظر، يا جلال الدّين.

التفت الرّجل الّذي دعي «جلال الدّين» ، ونظر ناحية المنادي فلم يبد عليه أنّه عرفه، غير أنّه أنس في نفسه انجذابا إليه لم يعرف مثله لرجل من قبله؛ وابتدره بسلام المحبّين الّذين، وإن تباعدوا، ظلّ الودّ موصولا بينهم؛ وأدخله إلى الدّار، وأغلق من دونهما باب غرفته؛ وقد كان من قبل جوّالا بين المساجد وحلقات الدّرس، وبين الخلاّن والأصحاب؛ وكانت له حياة الأحياء، على استحياء، فلمّا جاءه الغريب، صار كلّه للغريب، لا يأتمر بأمر غير أمره، ولا يسمع فيه واشيا أو عذولا؛ وقد علّمه الأسرار، وكان اسمه «شمس الدّين» وينسبونه إلى «تبريز» ـ!!!

٧.المواجيد الصّغرى والكبرى

* كانت كلّ الأشياء تنطلق منه وتعود إليه، وهو يتأمّلها: فإذا تأمّلها كانت هي، وإن لم يتأمّلها لم تكن هي، وكان مشغوفا بها، لأنّها كانت تشعره باقترابها منه، فيفسح لها في مجلسه؛ ويشير إلى جلسائه فيرقبونها وهي تتمسّح به، وتعلق بقلمه وهو يكتبها، بأجلى حرف وأعتق عبارة ـ لأنّ العبارة كانت عنده معتّقة بماء الحياة الأخرى حين نزعت عنها رداء البلى، وطلبت الانجذاب إلى العالم العلّيّ حيث مراقيها؛ وقال لها: اصمتي، حين بدا له أن يتفكّر قليلا في معنى كان طلبه في زمان صباه واختفى عنه؛ وتساءل بينه وبين نفسه، وقبل أن يكتمل الجواب في خاطره جاءه المعنى فقال له: لبيّك، يا سيّدي!! فأسنده إلى قلمه قليلا قبل أن يكتبه... ونظر إلى الأشياء الّتي كان الآخرون يرونها ولا يرونها، فأومأ بسبّابته، ثمّ قرن سبّابته بإبهامه فرسم دائرة، وقال لكلّ الأشياء في الغرفة وخارجها، والأشياء في كلّ مكان: ادخلي فدخلت، وقال لها جميعا: أنت الآن برسم الدّائرة. وقال فسمعه الجميع: «لو علمته لم تكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت: فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته! فهو هو لهو: لا لك. وأنت أنت: لأنت وهو! فأنت مرتبط به، ما هو مرتبط بك. الدّائرة. مطلقة. مرتبطة بالنّقطة. النّقطة. مطلقة. ليست مرتبطة بالدّائرة... نقطة الدّائرة مرتبطة بالدّائرة...» ثمّ أرسل إصبعيه، وبدأ يكتب، فكان الكلام الّذي يجري في قلبه ويسيل به لسانه، ينكتب في يسر على الرّقاع الّتي كانت أمامه؛ وكان كلّما خرج حرف لينكتب هلّل، وأشار إلى نقطة الدّائرة الّتي كانت تستقبل كلّ الكلام. وبدا له، وهو يضع الشّيء قبالة الشّيء، والشّيء إلى جانب الشّيء، والشّيء فوق،

والشّيء تحت، أنّه كيفما وضع هذا الشّيء لاينفرط عقده ويظلّ مشدودا إلى غيره، ومهما جهد في إبعاده ظلّ مشدودا إلى النّقطة في قلب الدّائرة؛ فقال: إنّ الأشياء مادامت تحنّ فهي واحدة ولا يكون الكون إلاّ بحنينه وهو واحد، وأنّ ما بزغ عنه ونبع منه، فهو واحد أيضا ويجتجن بالنّقطة والدّائرة؛ ونظر إلى بدر النّور، الّذي كان أيضا يراقب جلال الدّين وشمس الدّين: «وأنت أيضا من الدّائرة، فلا تسأل كيف جئت ولا متى جئت ولا إلى أيّ شيء انتهيت؛ واعلم أنّك واحد في مبدئك مع آحاد، وأنّ الآحاد وإن تفرّقت، فهي مشدودة إلى الوحدة بحنينها الدّائم إلى بعضها البعض...»

وسأله:

- أليس هناك اختلاف؟

قال له:

- الاختلاف مظهر من مظاهر الوحدة؛ وهو أقنوم للتّكنية ليس إلاّ.

وسأله:

- فماذا تقول في أنا لست أنت وأنت لست أنا؟

قال:

- الأناءات أنا واحد؛ والتّفرّق في المبتدإ ضروريّ لتنجذب النّفوس إلى بعضها كما ينجذب المغناطيس بالمغناطيس؛ وهي نفوس مسكونة بروح، والرّوح واحدة، وهي الّتي تخلق الائتلاف.

وسأله:

- فماذا عن الكفر والإيمان؟

فقال:

- هي مجرّد رسوم وآثار لا معنى لها لأنّ المتعلّق الحقيقيّ مشدود بين طرفي الرّوح، والرّوح لاانتسابيّة، فهي ليست بكافرة، وقد تكون مؤمنة...

وقال، وكان دائما مع الشّعر على موعد، ومن المواجيد على أنسام

تحمله أنّى توجّه وكيفما تقلّب؛ وكانت كلماته كأنّ بها روحا كتلك الرّوح الّتي يتحدّث عنها، بل هي تلك الرّوح تماما، لأنّ الأرواح عنده واحدة كما الخلائق واحدة: « إذا كانَ عينُ الحبِّ ما ينتجُ الحبُّ/ فما ثمَّ من يهوى ولا من له حبٌّ*فإنَّ التباسَ الأمرِ في ذاك بيّنٌ/وقد ينتج البغضاءَ ما ينتجُ الحبُّ*ولكنَّه معنًى لطيفٌ محققٌ/ يقومُ بسرِّ العبدِ، يجهلهُ القَلْبُ*لأنَّ له التَّقليبُ فِي كلِّ حالةٍ/بهِ فتَراهُ حيثُ يحملُهُ الرَّكْبُ*وذو الحُبِّ لمْ يبرحْ معَ الحبِّ ثابتًا/على كلِّ حالٍ يرتضيها لهُ الحُبُّ.» واتّصل شعره اللاّحق بشعره السّابق، وكانت الكلمات تسيل وكأنّها تجري، وكان هو المصرّف لها دائما يتأنّى، يمشي الهوينا، يتخيّر الألفاظ كما يتخيّر صاحب الجواهر جواهره ليضعها في أماكنها من عقوده الفريدة؛ وكان كلّ شيء لديه يدخل في كلّ شيء، والشّعر يدخل في الشّعر ويعضد الشّعر، والأشياء تعضد الأشياء وتدخل هي الأخرى في الأشياء، وكان هناك مسلم وكافر، ومشرك وموحّد؛ وبدت له أصائل أورفيوس والنّمارق الأورفيوسيّة، والعقود الكورنثيّة في معابد ومساجد، وكنائس وأديرة، وكان يقول في الشّعر أيضا بالحبّ، وإنّ في الحبّ ينتفي الاختلاف، ولا تبقى سوى الوحدة؛ وكان الشّعر في مبتدإ الكلام، والشّعر في آخره: «لقدْ صارَ قلبي قابلًا كلَّ صورةٍ/ فمَرْعًى لغِزْلاَنٍ وديرٌ لرُهْبانِ*وبَيْتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ/وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ*أدينُ بدينِ الحبِّ أنَّى توجَّهتْ/رَكائِبُهُ فالحُبُّ ديني وإيماني*لنا أُسْوَةٌ في بِشْرِ هندٍ وأُخْتِهَا/وقيسٍ وليلى، ثمَّ ميٍّ وغيلانِ**يا بانَةَ الوادي أرِينا فَنَنًا/في لبنِ أعطافٍ لها أو قُضُبا*ريحُ صبا تخبرُ عنْ عصرِ صِبًا/بحاجرٍ أوْ بمنىً أوْ بقبا أوْ*بالنَّقا، فالمنحني عندَ الحمى/أوْ لَعْلَعٍ حيثُ مَرَاتعُ الظِّبا لا*عجبٌ لا عجبٌ لا عجبا/منْ عربي يتهاوى العربا يفنى،*إذا ما صَدَحَتْ قُمريّةٌ/بذِكْرِ مَنْ يهْوَاهُ فيهِ طَرَبا**ألمْ بمنزلِ أحبابٍ لهمْ ذممُ/سحَّتْ عليهمْ سحابٌ صوبها ديمُ*واستنشقَ الرِّيحَ منْ تلقاءِ أرضهمُ/شوْقًا لتُخْبِرَكَ الأرْوَاحُ أينَ همُ*أظنّهمْ خيَّموا

بالبانِ منْ أضمٍ/حيثُ العرارُ، وحيثُ الشِّيحُ والكتمُ**ألا يا نسيمَ الرّيح بلّغْ مَهَا نَجدِ/بأنّي على ما تعلَمُونَ من العَهْدِ*وقلْ لفتاةِ الحيِّ موعدنا الحِمى/غُدَيّةَ يَوْمِ السّبْتِ عندَ رُبى نجدِ*على الرّبوَةِ الحمراءِ من جانبِ الضَّوَى/وعَنْ أيْمنِ الأفلاجِ والعَلَمِ الفرْدِ*فإنْ كَانَ حَقًّا ما تَقُولُ، وعندَها/إليَّ منَ الشَّوقِ المبرّحِ ما عندي*إلَيْهَا، فَفي حَرِّ الظَّهِيرَةِ نَلتَقي/بخيمتِها سرًّا على أصدقِ الوعدِ*فتلقي ونلقي ما نلاقي منَ الهوى/ومِنْ شِدّةِ البَلوَى ومن ألَمِ الوَجْدِ*أأضْغَاثُ أحْلامٍ، أبُشْرَى مَنَامَةٍ/أنُطقُ زَمانٍ كان في نُطقِهِ سَعْدي*لعلَّ الّذي ساقَ الأماني يَسوقُهُا/عيانًا فيهدي روضُها لي جنى الوردِ.»

*وتتحوّل عيناه، تنشالان، من مكان الأكبريّ القائم في لامكان وإن كان في مكان؛ وتهجس في داخله منابع وسوسات، وتولجه من الباب إلى داخل الغرفة المكسوّة برياش، حيث رأى القادم والمضيف الّذي صار هو نفسه ضيفا؛ وسمع شمس الدّين يقول لجلال الدّين، وكأنّه يعرفه من مبدإ الزّمان أو من قبل الزّمان؛ وكان كلّما قال صدّقه جلال الدّين:

- جئت من الشّوق والصّفا، فأنا الشّوق والصّفا، ورأيتني فنقلت شوقي وصفاي إليك، فصرت أنت أيضا شوقا من شوقي وصفاء من صفاي؛ وكنّا متفرّقين في أمكنة المحمول وأزمنته فصرنا الواحد في الحامل: فأنا الحامل أنت وأنت المحمول في أنا، ثمّ بعد تعارفنا صرت أنت الحامل في أنت، وسيكون عليك أن تتدرّب كي تصبح الحامل في أنا ــ ولكن اطمئنّ، مادام القرب بيننا رسولا، فسيكون من اليسير عليك أن تكون الحامل في أنا وأنت... وقال لي: -اذهب إليه، وأخبره أنّ في الحبّ حياة، وأنّه حبّ، فهو حياة، ولا تصلح الحياة بغير الحاء البينيّة ولا الباء الّتي كانت بيني وبينه على مسافة، وضاقت المسافة، فعلّمتك أن تحيا بين مسافات الحبّ مسافة بعد مسافة... وقال لي: قل له إنّه لم يحي من قبل؛ وإنّه لم يكن واحدا، بل اثنين في واحد؛ جسد يكبو، وروح تسعى أن تشعل نار لقيانا؛ وقال لي:لا تدعه، يا شمس الدّين يغيب

عن عينيك، فجئت، وأنا الوعد والموعد؛ وكنت عرفتك حتّى من قبل أن أراك؛ وكنت إسما بلا شكل عندي، فصرت عندي الإسم والشّكل. وقال لجلال الدّين وهو يرنو إليه بعينين حانيتين فرآه يفتح في قلبه أبوابا كثرا، وتلك الأبواب تفتح على باحات بها أزهار وأطيار، وبساتين بها من ثمر الدّنيا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ وكان جلال الدّين قبل أن يلتقي شمس الدّين مغلقا، لا تأتيه سوى أصوات الظّاهر غير المخفيّ، وحين أرسل الصّوت إليه نديم هواه صار يسمع دبيب النّملة في حلكة اللّيل، وترنيم الحادي في صحارى لم يسمع بها من قبل، ويسمع ما دقّ وما خفي؛ وتعلّم أن ينشد، وأن يعطي الأشياء جميعا معانيها، فصارت تلك الأشياء معرفة وتحقيقا؛ وكان يعلم أنّ علمه من علم شمس الدّين، وحين يتكلّم شمس الدّين يغمض عينيه ويقول لأذنيه: اسمعي واستمعي؛ وما كان قد تعلّم بعد أن يشطح، أن يدور، وفي الشّطح والدّوران يشدّ القرب إلى البعد، والبعد إلى القرب، ويرسم أقمارا على جدار قلبه، وشموسا في وجدانه، ويغنّي، ليرى شمس الدّين الرّاحل، والمسافر والمقيم. وقال التّبريزيّ ليسمعه: «الوحدة والخلوة شيئان مختلفان، فعندما تكون وحيدا، من السّهل أن تخدع نفسك ويخيّل إليك أنّك تسير على الطّريق القويم، أمّا الخلوة فهي أفضل لنا، لأنّها تعني أن تكون وحدك من دون أن تشعر بأنّك وحيد. لكن في نهاية الأمر، من الأفضل لك أن تبحث عن شخص، شخص يكون بمثابة مرآة لك، تذكّر أنّك لا تستطيع أن ترى نفسك حقّاً، إلا في قلب شخص آخر، وبوجود الله في داخلك.» وقال له أيضا وما تزال عيناه مغلقتان: «لا يوجد فرق كبير بين الشّرق والغرب، والجنوب والشّمال. فمهما كانت وجهتك، يجب أن تجعل الرّحلة الّتي تقوم بها رحلة في داخلك، فإذا سافرت في داخلك، فسيكون بوسعك اجتياز العالم الشاسع وما وراءه.» وكان حين يتكلّم ينساب كالخرير، وكان جلال الدّين يعلم أنه بحر؛ وجلال الدّين قبل أن يراه لم يكن سوى جدول مجهول قد أخفته

أحراش الحياة عن الأنظار، فلم يكن يراه أحد أو يهتمّ لأمره أحد. وسمع أوائل كلمات أخر، فأنصت؛ ورأى تلك الكلمات تأتي فتدغدغ سمعه، ثمّ تشقّ طريقها إلى ذهنه عبر مسارب من نور ـ وكانت كلمات شمس الدّين هي النّور: «يوجد معلّمون مزيّفون وأساتذة مزيّفون في هذا العالم أكثر عدداً من النّجوم في الكون المرئيّ، فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيّين الّذين يعملون بدافع السّلطة وبين المعلّمين الحقيقيّين، فالمعلّم الرّوحي الصّادق لا يوجّه انتباهك إليه ولا يتوقّع طاعة مطلقة، أو إعجاباً تامّا منك، بل يساعدك على أن تقدّر نفسك الدّاخليّة وتحترمها، إنّ المعلّمين الحقيقيّين شفّافون كالبلّور، يعبر نور الله من خلالهم.» وكان يناديه: «يا معلّم!» ولم يكن تعلّم منه، وحين تعلّم منه، وزاد على العلم الّذي تعلّمه، كان يطرد غرور نفسه حين تنازعه إلى الاعتراف لها بالعلم، فيقول: «أين المعلّم ممّن تعلّم!!» وكان جلال الدّين يعلم شيئا يسيرا قبل شمس الدّين، وعلّمه اختفاؤه أن يكون بحرا، وبحرا، وبحرا، وبحورا؛ وعلّمه اختفاء شمس الدّين أن يكون شاعرا، وشوارع تفتح على شارع شارع في الشّعر، وكان شعره وجدا، واستدعاء لغياب الغائب حتّى يكون حاضرا.

وقال جلال الدّين:

- وقالوا لي إنّي كنت أرقص حزنا على فراقه...

وبدا لبدر النّور أن يسأله فقاطعه:

- فلم كان رقصك؟!!

قال:

- لقد كان رقصي شوقا إليه؛ فهو الّذي علّمني الشّوق، وهو الّذي علّمني الحبّ؛ وحبّه الّذي هداني...

وقال لبدر:

- وصيّتي إليك أن تحبّ، ولو كرهك كلّ النّاس؛ وأن تعشق، ولو لم يبق على الأرض عاشق واحد.

وشمس الدّين الّذي كان يتكلّم لم يتوقّف: « لا تحاول أن تقاوم التّغيّرات الّتي تعترض سبيلك، بل دع الحياة تعيش فيك، ولا تقلق إذا قلبت حياتك رأساً على عقب، فكيف يمكنك أن تعرف أنّ الجانب الّذي اعتدت عليه أفضل من الجانب الّذي سيأتي.»

قال له جلال الدّين وقد فتح عينيه على اتّساعهما ليتشرّب كلّ ملمح من ملامحه، وكأنّه كان يحدس أنّهما سيفترقان يوما ما، وأنّه سيتعذّب بهذا الفراق:

- والحبّ، يا معلّم.؟

قال له شمس الدّين سائلا، وهو يشير إلى شيء فوق رأسيهما كان يراه ولا يراه جلال الدّين:

- هل بإمكانك أن ترى ما أرى؟

أجاب جلال الدّين، وهو يتطلّع إلى النّاحية الّتي أشار إليها معلّمه (وكان لم ير شيئا):

- إنّي لا أرى الّذي رأيت، يا معلّمي؛ فكيف ترى ما لا يراه غيرك؟

قال:

- إنّما الرّؤية بالقلب، فإذا أردت أن ترى فأغمض عينيك واترك لقلبك أن يقودك إلى حيث تريد المسير.

قال جلال الدّين:

- لقد حاولت، ولكن كان عبثا دون طائل؛ فأخبرني، يا مولاي، عن حبّك، كيف هو، وما جوهره، ولمن يكون؟

التفت إليه شمس الدّين، وكان مشفقا عليه، وهو يريد أن يعلّمه علما لم يعلمه من قبل، وقال:

- ابدأ في الحبّ بنفسك، وتدرّب أن تحيا بحبّك، قبل أن تفتح طاقة عشقك على غيرك؛ واعلم أنّه كلّما كان حبّك لنفسك صادقا نقيّا، سيكون حبّك لغيرك أنقى وأصفى؛ ولا تتبدّل مهما كان ظرفك، وتذرّع بالصّبر، وكن ممّن صبر فشكر، لتجزى على قدر صبرك... اصبر على

أشواك الطّريق... اصبر على ظلمة اللّيل... واصبر على شمس النّهار... واصبر على صمتك وسكونك... واصبر على قول لا يعجبك... واعلم أنّك إذا رددت فعلا تكرهه بفعل آخر يكرهه غيرك، استويت أنت وذلك الغير... اعلم أنّ الحبّ عطاء... اعلم أنّ الحبّ صفاء... وأن الحبّ نقاء...

وغاب شمس الدّين فجأة، فتعلّم جلال الدّين من بعده الرّقص والشّطح، وصار مولانا ــ وكان يقول: حبّي له لا لشخص، لأنّه كان هو الحبّ؛ وهو حين يقول، يكون لا شخصا، ويكون هو الحبّ يتحدّث عن الحبّ... وعلّمني مولاي شمس الدّين أن أحبّ، ولو عاداني في حبّي كلّ النّاس. ورقصت حين أرسلت في طلبه ولم يعد، ولم يدر في خلدي أنّ غيابه في رقصي يكون حضورا؛ فتمنّيت لو كانت حياتي كلّها رقصا فلا أملّ من رؤياه...

وقال لبدر:

- آن لنا ان نفترق، يا ولدي؛ فلم يعد هناك شيء تعلمه فوق ما علمته من مواجيد الموسوسين... ارحل، يا ولدي، وكن أنت أنت، وليس أنت آخر، وسر في طريق النّور حتّى ترى كما رأى غيرك...!!

وقال له الأكبريّ:

- أنت منذ الآن في الدّائرة ومشدود إلى النّقطة؛ وقد عرفت وعلمت، فإذا كتب لك الرّجوع فعلّم ما علمت، وإن لم يكن، فأنت في الوحدة موجود وإليها مشدود، فاذكر أصحاب الأخدود، وأنّ لك ربّا معبودا؛ واذكر، يا ولدي، أنّي أنا الأكبريّ، وقد أجزتك.

وقال طاجيك بن لامار:

وقد كانت هذه المواجيد الصّغرى والكبرى، وقد شهدتها وأثبتّ بعضا منها في وثائقي مع بقيّة ما كنت كتبته عن الأسفار وما قرأته في كتب المؤرّخين من العرب المستعربين أو كتب المؤرّخين المسلمين...

ثمّ أضاف:

- وبعد، فإنّي أحسّ إحساسا يكاد يرقى إلى اليقين أنّ هذه الرّحلة قد أشرفت على الانتهاء؛ وسألت الله تعالى أن يعيدني إلى بغداد... سألته سبحانه أن يقيّض لي من ييسّر أمر عودتي إلى والدي وبوران؛ ومنّيت النّفس بالهيمان مرّة أخرى في مجالي الرّصافة والكرخ، كما منّيتها بالظّفر بقوت القلوب والعودة بها معي إلى مرابع صباي؛ وقلت: «عسى الله تعالى أن يرزقنا أطفالا فتقرّبهم عيوننا وعيون أحبابنا هناك...»

ولم يشعر إلاّ والقلم يسقط من يده على النّضد، ويلفي عينيه وهو يغمضهما تلجان به إلى شوارع المحروسة بغداد؛ وكانت أصوات تناديه، وتلحّ في المناداة:

- أما آن لك أن تعود؟! أما آن لهذه الغربة أن تنتهي؟!

فكان يجيب في كلّ مرّة، وكأنّ القدر هو من يتكلّم على لسانه:

- لله الأمر من قبل ومن بعد، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، بيده الأمر وهو على كلّ شيء قدير...

وكان آخر شيء يسمعه وهو يغطّ في سبات عميق، صوت مرتّل كان صداه يتردّد في الآفاق:

«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[٣٤]».

٨. ما تيسّر من سفر يوشع بن نون

بخارى لعشر ليال بقين من ربيع الأوّل سنة (...) من الهجرة الشّريفة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام: «خرجت على سير عادتي من الغرفة إلى مطبخ الخان رغم أنّ البرد لم يكن لي مشجّعا على الخروج فتناولت فطورا خفيفا مع كوب كبير من البابونج قلت لتنشيط ذهني وإخراجه من الخمدة الّتي أصابته على حين غرّة ولم أكن أدري بعد مصدرها؛ ونازعتني نفسي إلى القهوة وإلى عزلة صديقي

علاء الدّين، ثمّ أحجمت لأنّه بدا لي أنّ الأسفار بعد «التّثنية» ستكون ممتعة بما ستذكره من حكايات رسل بني إسرائيل وملوكهم؛ وكنت سأقيم مقارنة بين نبيّ الله موسى عليه السّلام وبين تلميذه يوشع بن نون، ولكنّي تداركت أمري فجأة وقلت في نفسي «أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، كيف يكون لنبيّ من أنبياء الله ذوي العزم والبأس أن يقارن بمن كان له تلميذا وتابعا.» وقلت أيضا: «إنّ يوشع بن نون وإن لم يكن ندّا لموسى عليه السّلام فهو الّذي يسّر الله على يديه هزيمة العماليق وجعل على يديه دخول الأرض المقدّسة؛ فهو إذن من الّذين باركهم الله وأجرى على يديه بعض معجزاته.» وتمنّيت لو كنت حافظا للأسفار بحذافيرها كما يحفظ أحدنا القرءان الكريم؛ ثمّ بدا لي أنّ هذا الأمر متعسّر، وحاولت أن أجد لذلك مبرّرات فقلت: «عسى العيب يكون في أنّ هذه الأسفار لم تكن وحيا كما كان القرءان العظيم وحيا؛ أو لعلّها كانت وحيا، ثمّ حرّفت فعاقب الله أهل الكتاب بأن ختم على قلوبهم وحرمهم نعمة حفظها؛ فلو كانت كلام الله حقّا لوجدنا من يحفظها كما يحفظ القرءان أناءي اللّيل وأطراف النّهار في المساجد أثناء الصّلوات وفي رمضان في صلاة القيام...» وقلت «: «الحمد لله على كلّ حال أن كانت عندي نسخ منها أفرغ إليها كلّما سنحت الفرصة وساعد المزاخ وصادف حسن الطّالع.» ووجدت كلّ شيء في مكانه في غرفتي ينتظرني، وفتحت الأسفار على سفر يوشع، وبدا لي هذه المرّة أن أكتب شيئا يسيرا على الحواشي بدل أن أزعج نفسي بكلام مطوّل في دفتري الّذي كنت كتبت فيه شيئا ليس بالقليل. وكتبت في أعلى الورقة في الجانب الأيمن من السّفر: «بسم الله الرّحمان الرّحيم» تبرّكا، لما كنت أعلمه من أنّ ذكر الجلالة من شأنه أن يفتّق الذّهن عن فرائده وييسّر الفتوح؛ وقرأت البدايات بإمعان، وتخيّلت نفسي واحدا من بني إسرائيل في ذلك الزّمن السّحيق، بعد وفاة نبيّ الله موسى، والقوم بعد عصيانهم لأمر الله تعالى في امتحان من حلّت به المهانة وركبه الشّين؛

ورأيت حتّى وأنا تفصلني عن ذلك الزّمن قرون لا يعلم عددها إلاّ الله قلاع الكنعانييّن الحصينة وحصونهم، وعددهم وعدّتهم، وقضّهم وقضيضهم، وبأسهم الّذي لا يرام. وتساءلت بيني وبين نفسي: «ما الّذي يجعل إنسانا أو أناسا يعصون أمر الله الصّريح في أن يفعلوا ما أمرهم رغم أنّه وعدهم إن فعلوا ما يؤمرون به سيكون معهم ويشدّ أزرهم وينصرهم على أعدائه؟ وهو القائل سبحانه: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن الّذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.» وهو القائل أيضا: «يا أيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوم لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.» فوعد الله تعالى إذن ليس أوضح منه؛ وما يجعل النّاس ينكصون عن أمر الله ضعف التوكّل فيهم، وخوفهم من أن يخرجوا من سعة الدّنيا إلى ضيق البلاء؛ وهذا منطق فاسد لأنّ الخير فيما أمر به الله؛ ولو أنّ ما يعتبره النّاس سعة لهم في الدّنيا لأدامه الله على من سبقهم، ولكنّه بعلمه يجزي على البلاء والحمد له في السّرّاء والضّرّاء والنّعماء والبأساء؛ والله وإن كان ختم على قلوب الغالبيّة الغالبة من أهل الرّيب والفتن فإنّه كان بحلمه وعلمه كتب النّجاة لفئة قليلة كانت تظهر دائما في الأوقات العصيبة لتذكّر أولئك الّذين ختم الله على قلوبهم أنّ النّصر ليس بالعدد ولا بالكثرة ولكن بالإخلاص والإيمان؛ وقد ذكر الله شيئا من ذلك. ودائما في بني إسرائيل، على عهد طالوت .، فقال عزّ من قائل: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩).» وقد كان من الأمر ما أخبرت

به تلك الفئة القليلة الّتي آمنت بربّها ولم يرهبها منظر أولئك الجبّارين وقد قاموا على الطّرف الآخر بآلات حربهم فأخزاهم الله وردّهم خائبين؛ ولله تعالى في خلقه شؤون وشؤون وهو يعلم من حالهم ما لا يعلمونه هم عن أنفسهم؛ وقد أخبرنا بفيض رحمته على نبيّه صلّى الله عليه وسلّم حين كان في قلّة من أصحابه وكان عدد المشركين يفوق عددهم بكثير؛ وذلك بأن كان يقلّل لهم عدد المشركين حتّى تطمئنّ قلوبهم ويتشجّعوا على المصاولة والقتال. فوصف تعالى ذلك في أبلغ عبارة وأجلى وصف في سورة الأنفال حين يقول: «وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) » وقد صدق الله تعالى وعده لرسوله. كما صدق وعده لجميع رسله؛ وإذا كان الرّسل يتفاضلون ففيهم الفاضل والمفضول. فكذلك الشّأن مع أقوام تلك الرّسل ففيهم من أذعن إلى أمر الله ومنهم من بغى وتجبّر وضرب صفحا عن الوحي والأمور الشّرعية الّتي كان سبحانه ينزّلها لتصبح أحكاما ملزمة؛ ومن رحمة الله تعالى على هذه الأمّة أن جعلها راضية مرضيّة منيبة إليه ولرسوله طائعة. فما كان أصحابه رضوان الله عليهم ليقولوا له كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السّلام: « اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون.» ولكن كان لسان حالهم يقول دائما: «اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما منطلقون.»...[وقد أراني أطلت بعض الشّيء واستطردتّ فأخذني الاستطراد ونسيت ما كنت فيه من أمر السّفر والأسفار؛ وكنّا قد وصلنا إلى ما كان من أمر قبض الله تعالى لموسى وبعثه يوشع بن نون على بني إسرائيل. فنقرأ في بداية السّفر: «[١]وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى عَبْدِ الرَّبِّ أَنَّ الرَّبَّ كَلَّمَ يَشُوعَ بْنِ نُونٍ خَادِمَ مُوسَى قَائِلاً: [٢]«مُوسَى عَبْدِي قَدْ مَاتَ. فَالآنَ قُمُ اعْبُرْ هذَا الأُرْدُنَّ أَنْتَ وَكُلُّ هذَا الشَّعْبِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ أَيْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. [٣]كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أَعْطَيْتُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى. [٤]مِنَ الْبَرِّيَّةِ وَلُبْنَانَ هذَا إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ

الْفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ الْحِثِّيِّينَ، وَإِلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ نَحْوَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ
يَكُونُ تُخْمُكُمْ. ٥لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. كَمَا كُنْتُ
مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ. لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ. ٦تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ، لأَنَّكَ أَنْتَ
تَقْسِمُ لِهذَا الشَّعْبِ الأَرْضَ الَّتِي حَلَفْتُ لآبَائِهِمْ أَنْ أُعْطِيَهُمْ. ٧إِنَّمَا كُنْ
مُتَشَدِّدًا، وَتَشَجَّعْ جِدًّا لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ الشَّرِيعَةِ الَّتِي
أَمَرَكَ بِهَا مُوسَى عَبْدِي. لاَ تَمِلْ عَنْهَا يَمِينًا وَلاَ شِمَالاً لِكَيْ تُفْلِحَ حَيْثُمَا
تَذْهَبُ. ٨لاَ يَبْرَحْ سِفْرُ هذِهِ الشَّرِيعَةِ مِنْ فَمِكَ، بَلْ تَلْهَجُ فِيهِ نَهَارًا وَلَيْلاً،
لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ. لأَنَّكَ حِينَئِذٍ تُصْلِحُ
طَرِيقَكَ وَحِينَئِذٍ تُفْلِحُ. ٩أَمَا أَمَرْتُكَ؟ تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ
لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ».
١٠فَأَمَرَ يَشُوعُ عُرَفَاءَ الشَّعْبِ قَائِلاً: ١١«جُوزُوا فِي وَسَطِ الْمَحَلَّةِ وَأْمُرُوا
الشَّعْبَ قَائِلِينَ: هَيِّئُوا لأَنْفُسِكُمْ زَادًا، لأَنَّكُمْ بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ تَعْبُرُونَ
الأُرْدُنَّ هذَا لِكَيْ تَدْخُلُوا فَتَمْتَلِكُوا الأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ
لِتَمْتَلِكُوهَا». ١٢ثُمَّ كَلَّمَ يَشُوعُ الرَّأُوبَيْنِيِّينَ وَالْجَادِيِّينَ وَنِصْفَ سِبْطِ
مَنَسَّى قَائِلاً: ١٣«اذْكُرُوا الْكَلاَمَ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ قَائِلاً:
الرَّبُّ إِلهُكُمْ قَدْ أَرَاحَكُمْ وَأَعْطَاكُمْ هذِهِ الأَرْضَ. ١٤نِسَاؤُكُمْ وَأَطْفَالُكُمْ
وَمَوَاشِيكُمْ تَلْبَثُ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَاكُمْ مُوسَى فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ، وَأَنْتُمْ
تَعْبُرُونَ مُتَجَهِّزِينَ أَمَامَ إِخْوَتِكُمْ، كُلُّ الأَبْطَالِ ذَوِي الْبَأْسِ، وَتُعِينُونَهُمْ
١٥حَتَّى يُرِيحَ الرَّبُّ إِخْوَتَكُمْ مِثْلَكُمْ، وَيَمْتَلِكُوا هُمْ أَيْضًا الأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيهِمُ
الرَّبُّ إِلهُكُمْ. ثُمَّ تَرْجِعُونَ إِلَى أَرْضِ مِيرَاثِكُمْ وَتَمْتَلِكُونَهَا، الَّتِي أَعْطَاكُمْ
مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ نَحْوَ شُرُوقِ الشَّمْسِ». ١٦فَأَجَابُوا يَشُوعَ
قَائِلِينَ: «كُلَّ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ نَعْمَلُهُ، وَحَيْثُمَا تُرْسِلْنَا نَذْهَبْ. ١٧حَسَبَ كُلِّ
مَا سَمِعْنَا لِمُوسَى نَسْمَعُ لَكَ. إِنَّمَا الرَّبُّ إِلهُكَ يَكُونُ مَعَكَ كَمَا كَانَ مَعَ
مُوسَى. ١٨كُلُّ إِنْسَانٍ يَعْصَى قَوْلَكَ وَلاَ يَسْمَعُ كَلاَمَكَ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُهُ بِهِ
يُقْتَلُ. إِنَّمَا كُنْ مُتَشَدِّدًا وَتَشَجَّعْ»....»

وكان مسترسلا في القراءة، وهو يمنّي النّفس بأن يقضي عظم ذلك

اليوم في غرفته متسربلا في وحدته لا يعكّر عليه صفوه معكّر لولا ما طرأ عليه فجأة من الأمر حيث غامت عيناه وفقد بمثل السّحر كلّ اتّصال له بالواقع وسمع الأصوات من جديد وهي تناديه، وهي تدعوه، وتهيب به أن يستعدّ لجليل من الأمر... ورأى الشّيخ النّورانيّ من جديد على مبعدة، وقد أفصح وجهه فكان مثل فلق الصّبح جمالا، وكان ما تزال عليه ملابسه البيضاء الّتي لا شية فيها. ووجد نفسه مسلوب الإرادة كمن فقد كلّ حوّاسه وهو يسمع:

- قم وانهض...

انطلق صوت من داخله وكأنّ الشّيخ أنطقه ولم يكن له في الأمر حيلة، وهو يسأل في حياء، في تردّد، في خوف، وإشفاق:

- إلى أين؟

قال الشّيخ وهو يتقدّم نحوه:

- هذا يوم الإقدام... هذا يوم الموت والحياة...

قال يسأل، وهو بين القدرة وعدم القدرة، وبين الإرادة وعدم الإرادة، وبين الفعل وعدم الفعل، وهو بين المتناقضات:

- فأيّ موت وأيّ حياة؟!

ولكنّ الشّيخ لم يزد على أن قال:

- اذهب فتزوّد قبل فوات الأوان.

سأله:

- أذهب إلى أين؟ وأتزوّد بماذا؟ ولماذا سيفوت الأوان؟

قال الشّيخ:

- لا فائدة من الأسئلة. اذهب إليها فستجدها في انتظارك.

سأل ثانية، وثالثة، ورابعة، ولم يكن يملك إلاّ أن يسأل، وقد نسي ما قاله الشّيخ من عدم جدوى الأسئلة:

- هي من؟ ولماذا تنتظرني؟

قال الشّيخ:

- سرعان ما نسيت!! هل ينسى المرء زوجه؟

قال طاجيك، وقد تذكّر دفعة واحدة تلك اللّيلة وما أعقبها من خيبة وآلام، ومن جروح وقروح:

- قوت القلوب ثانية؟!!

قال الشّيخ:

- وثالثة ورابعة، وقوت القلوب دائما...

وألفى قدميه تشيلانه، وهو لا يعلم، وقد فقد علاقته تماما بما حوله؛ ووصل إلى القصر، وصل إلى بيت عديله الّذي صار قصرا منيفا، وكان كلّ شيء قد تحوّل فيه إلى أعمدة لا رونق فيها وأجساد لا حياة بها، إلاّ ما كان من أمر قوت القلوب الّتي كانت في انتظاره وقد تجرّدت له وتجرّد لها، فكانا كفرسي رهان؛ أو كانت هي المهرة الجموع وهو الفرس الّذي في جريه وراءها قد انقطع منه النّفس... وكانت تصعّد في أجواز الفضاء وهو وراءها يرمي بوجده، وقلبه، وفؤاده، ومشاعره الّتي كانت تنبع داخله كما ينبع الماء من تحت الأرض؛ وكان كلّما اقترب منها التاث لرؤيا تلك السّهوب، والوهاد والنّجاد، والآطام الّتي كانت تفصح دون إفصاح؛ وقد كان يرى بداخله وهو يراها شهبا ومذنّبات، ومدارات تهوي، وكواكب يصطدم بعضها ببعض ثمّ تنفجر، ويسمع في أعماق أعماقه أصوات رعود تأتي من كلّ مكان ولامكان، ووميض بروق، وصواعق كانت تنزل فجأة فتأخذ كلّ شيء معها؛ وهو في جريه وراءها يلهث ولا يبلغها، وكانت هي تشفّ، فيرى كلّ شيء منها، وتضحك، فيتضاعف بلاؤه، ويجري ويجري، وهي تجري أيضا حتّى بلغا مجازا بين مجازات في إحدى السّماوات البعيدة الّتي كانت تحفل بمناظر لم ير مثلها في حياته؛ فكان يرى جبالا من زمرّد وعسجد وزبرجد، وأنهارا من عسل ولبن وخمر لذّة للشّاربين، وغلمانا وجواري كأنّهم الأقمار، وحورا عينا كأمثال اللّؤلؤ المكنون... وكان يرى فلا يصدّق عينيه، وكان في شغل عن كلّ ذلك لما كان اعتراه من جرّاء ملاحقة تلك المهرة؛

وضاعف من جريه وراءها، فتضاعفت لذلك مشاعره، ووجد قلبه يحنّ إليها، وفؤاده أيضا، ووجده، وكلّ شيء فيه يستدعيها بأسمائها وغير أسمائها... وكانت كلّما تجاوزته بمرحلة ضحكت، حتّى يئست أخيرا من ظفره بها، فعادت أدراجها إلى القصر... وداخل القصر ولجت غرفة لم ير في الرّياش الّذي كان منتشرا فيها مثلها، ولا في ترتيبها مثلها، ولا في جمالها مثلها، وكان جمالها من جمالها، وبين كرّ وفرّ، وصهيل وصليل، وإقبال وارتداد، وصعود ونزول، وتطامن واستوفاز، امتلأ الجسد أخيرا، وحينما امتلأ أصابته خمدة الموت... وكانت هي تشهد كلّ ذلك، ولم تكن تتصوّر أنّ الذّروة ستؤدّي إلى الفقد، فبكت من قلبها وهي متجرّدة؛ وعلى مبعدة، في صمت الغرفة الّذي التبس بصمت الميّت، رأت شخصا لم تكن رأته من قبل، وهو بين سماء وأرض، يسبح في بحار من نور، وكان يشير إلى شيء في ذلك الجسد الّذي همد فجأة، فيخرج من بين جوانحه كائن شفيف، شفيف جدّا بجناحين ناعمين أبيضين، ويلتحق بذلك الطّائر الّذي كان بدر النّور...

قالت، في إعوال وإشفاق:

- ارجع إليّ، يا حبيبي.

ولكنّ الأرواح لا تتكلّم. الأرواح تمضي صعدا إلى السّماء، ولا تتكلّم.

وانطلقا سويّا وهي تنظر إليهما ـ بدر النّور وطاجيك بن لامار، وقد غام من حوله كلّ شيء:

. بغداد المحروسة...

. والده وبوران...

. مراتع صباه...

. وجبال القفقاس...

وكان بدر النّور ينظر فيرى كلّ شيء كما كان...

. العتبة الخضراء...

. وموقفه من ذلك المكان الّذي ما عاد يذكره...

.ووالده... ووالدته...

.وعبد المنعم وأخواته...

وكان يسمع أصواتا تناديه، ولكن لا يظلّ عالقا في خياله من كلّ تلك النّداءات وهو يجوز السّماوات مع طاجيك، إلاّ نداء وحيد كان يتردّد كما الصّدى في كلّ مكان:

وداعا، أيّتها العتبة الخضراء...!!!

وداعا أيّتها العتبة الخضراء...!!!

وداعا أيّتها العتبة الخضراء...!!!

.انتهت.

كوبيـك (كندا) في:

٢٠ حزيران ٢٠٢٠

ماستر ©